

مصرفى كتابات
الرحالة والقناصل الفرنسيين
فى القرن الثامن عشر

د. الـرام محمد على زهنى



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

الاخراج الفني :

مراد نسيم

مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر

تأليف
د. إلهام محمد علي ذهني



المطبعة العربية العامة - القاهرة

١٩٩٢

تقديم

ربما كان من محاسن الصدف وحدها أن هذا الكتاب عن : « مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر » للدكتورة الهام محمد ذهني ، يصدر بعد شهر واحد من صدور كتابها : « مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر » ، الذي يصدر عن سلسلة « مصر النهضة » التي يشرف عليها صديقي الأستاذ الدكتور يونان لبیب . ويرجع السبب في ذلك الى تأخر صدور هذا الكتاب الأخير أكثر من عام ، حتى تزامن صدوره مع كتاب المؤلفة الثاني ، الذي هو بين يدي القارئ

ويبدو أن السبب الذي دعاني الى قبول نشر هذا الكتاب في سلسلة « تاريخ المصريين » هو نفس السبب الذي دعسا الدكتور لبیب لقبول سابقه في سلسلة « مصر النهضة » ، وهو أننا في حاجة الى معرفة صورة مصر من عيون أخرى ، هي عيون الأوروبيين الرحالة الذين وفدوا على مصر في تلك الفترة الزمنية البعيدة ، بعد أن عرفناها من عيون مصرية ، مثل عين المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي وغيره .

صحيح أن ما كتبه هؤلاء الرحالة الأوروبيون قد تعرضت له كتابات مؤرخين مصريين ، مثل الأستاذ الراحل الدكتور محمد فؤاد شكرى في موسوعته عن تاريخ مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، « ومصر والحملة الفرنسية » ، وكتاب الدكتور

مصطفى الحفناوى عن « قناة السويس » ، ولكن تقديم هذه الكتابات من منظور آخر غير منظور قناة السويس أو الحملة الفرنسية ، والتركيز على الجوانب المختلفة التى تعرض لها هؤلاء الرحالة والقناصل أمر ذو فائدة كبرى فى معرفة رؤية الأوروبيين للمجتمع المصرى فى تلك الفترة البعيدة .

لم تكن زيارات رحالة القرن الثامن عشر لمصر قصيرة ، بل كانت زيارات طويلة امتدت عدة سنوات ، جابو فيها مدن مصر ، وتوغلوا فى صعيدها وصحاريها ، واستطاعوا أن يصفوا الكثير من أحوالها السياسية والاجتماعية . وصفا مسهباً ومفصلاً . وكان من هؤلاء الرحالة جواسيس اهتموا بدراسة احوال مصر السياسية والعسكرية لخدمة مصالح بلادهم ، ومهدوا بذلك لغزو مصر ، ومن هؤلاء : البارون دى توت ، وفولنى ، وأوليفيه .

والدراسة التى بين ايدينا اعتمدت على النصوص الأصلية لهذه الكتابات ، وبلغتها الفرنسية القديمة ، مما احتاج من الدكتورة الهام محمد ذهنى الى مجهود مضاعف . فلها الشكر على ما قدمت من جهد ، وما أبدت من مثابرة ، حتى تتيح للقارئ الاطلاع على هذه الدراسة الشيقة . وأملنا أن تسد هذه الدراسة ركنا هاما فى المكتبة العربية ، يضاف الى ما تقدمه هذه السلسلة الطويلة من الدراسات التاريخية عن « تاريخ المصريين » .

والله الموفق .

ا.د. عبد العظيم رمضان

رئيس تحرير السلسلة

المقدمة

تتناول هذه الدراسة أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما دونها القناصل والرحالة الفرنسيون في القرن الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية وهي مكملة للدراسة سابقة نشرت في « مصر النهضة » بعنوان « مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر » ، وقد آثرت تخصيص دراسة منفصلة لكتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر عن سبقوهم من الرحالة لعدة أسباب .

تشابه كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن رحالة القرن الثامن عشر إقعد زار العديد منهم مصر بعد أداء فريضة الحج في بيت المقدس من أجل زيارة المزارات المسيحية فيها ، خاصة دير سانت كاترين في صحراء سيناء وبستان مريم في المطرية ، والأديرة القبطية في وادي النطرون ، ولذلك جاءت رحلاتهم سريعة اقتصر على المزارات

المسيحية ومصر السفلى فقط ، كذلك تأثر رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر بكتابات هيرودوت Herodote وسترابون Strabon واقتبسوا العديد من الملاحظات وأوردوها في كتبهم وذلك تعويضا عن الفترة القصيرة التي قضاها في مصر وعدم دراستهم لأحوال المجتمع المصري دراسة وافية وان كان هذا لا يقلل من أهمية كتاباتهم التي تم تداولها من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة ولا ننسى انهم حظوا بتشجيع ملوك فرنسا ولكن لا ننكر ان وصفهم لمصر جاء موجزا جافا مقتضبا سريعا .

أما رحالة القرن الثامن عشر فلم تقتصر زيارتهم لمصر على المزارات المسيحية فقط وانما جابوا مدن مصر وتوغلوا في صعيد وصحارى مصر ولم تكن زيارتهم قصيرة وسريعة وانما مكث البعض منهم عدة سنوات فيها فجاءت كتاباتهم عن مصر أعمق بكثير ممن سبقوهم .

اختلفت الظروف السياسية في مصر في القرن الثامن عشر عن القرنين السابقين فقد كانت أحداث هذا القرن سريعة ومتلاحقة ففي النصف الأول منه كثرت المنازعات والحروب بين البيوت المملوكية وفرق الأوجاقات المختلفة ، أما في النصف الثانى فقد اتسم بظهور صفوة عسكرية من المماليك استأثرت بالحكم مثل على بك الكبير ومحمد أبى الذهب ومراد بك وإبراهيم بك هذا مع ضعف هيمنة الدولة العثمانية على مصر وغيرها من الولايات ولذلك جاء وصف الرحالة لأحوال مصر السياسية مسهبا ومفصلا عن سبقوهم من الرحالة الذين اكتفوا بتقديم وصف موجز لبعض الوظائف السياسية الهامة خاصة وظيفة باشا مصر .

انفرد القرن الثامن عشر بمجىء مجموعة من الرحالة يمكن أن نطلق عليهم الرحالة الجواسيس نخص بالذكر منهم البارون دى توت ، فولنى ، أوليفيه فقد اهتموا بدراسة أحوال مصر السياسية والعسكرية لخدمة مصالح بلادهم ومهدوا بكتاباتهم لغزو مصر ، ولا ننسى أن أوليفيه أوفد من قبل حكومة الإدارة ليضع اللمسات الأخيرة لاحتلال مصر فقدم وصفا عن تحصيناتها العسكرية .

سأهت كتابات رحالة القرن الثامن عشر في مجىء الحملة الفرنسية على مصر فقد حثوا حكومة بلادهم على ضرورة الاستيلاء على مصر للحصول على ثرواتها الاقتصادية والافادة من موقعها الجغرافى الهام وأحياء فكرة وصل البحرين الأحمر والمتوسط. لتعم الفائدة الاقتصادية والتجارية على فرنسا ، حقيقة أن فكرة احتلال مصر ظهرت أيضا بين الرحالة الفرنسيين السابقين خاصة الأب كوبان Coppin في القرن السابع عشر الذى دعى لإعلان الحرب الصليبية على الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها على أن تكون مصر من نصيب فرنسا . ولكن اختلف الوضع في القرن الثامن عشر فدعوة القناصل والرحالة لاحتلال مصر جاءت نتائجها سريعة وحاسمة بدليل ما ذكره قادة الحملة الفرنسية وتأكيدهم بأنه « لولا كتابات سافارى Savary وجرانجيه Granger وفولنى Volney وأوليفيه Olivier لما تمكنا من معرفة مصر قبل أن تقدم على غزوها » .

لقت مصر في القرن الثامن عشر أنظار فرنسا بشروتها الاقتصادية فوجدت فيها البديل المثالى لتعويض ما فقدته في حروبها في أوروبا خاصة حرب السنوات السبع والتي أسفرت عن فقد فرنسا لممتلكاتها في العالم الجديد والهند فكانت مصر هى محور

اهتمام الفرنسيين ومحط انظارهم في هذا القرن بينما في القرنين السابقين كانت الامبراطورية العثمانية وامبراطوريات الشرق الأخرى الفارسية والهندية هي محور اهتمام فرنسا ولذلك جاء الاهتمام بمصر خلال هذه الفترة باعتبارها ولاية تابعة لامبراطورية كبيرة وعظيمة هي الامبراطورية العثمانية .

يمكننا القول ان رحالة القرن الثامن عشر قدموا وصفا تفصيليا عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية واختلف وصفهم المسهب عن الوصف الموجز السريع لمن سبقوهم ويكفى ان العديد منهم قد تمكن من التوغل لأول مرة في صعيد مصر فسجلوا مشاهداتهم عن أهم الآثار فيه وقدموا رسوما دقيقة عنها وأن كانوا قد وقفوا عاجزين عن قراءة النقوش والكتابات المسجلة على هذه الآثار .

أما عن سبب اضافة كتابات القناصل الفرنسيين عن مصر لهذه الدراسة فقد رايت الاطلاع على ما كتبه القناصل العاملون في مصر خاصة وان معظمهم جاؤوا مدن مصر ودونوا ملاحظاتهم عنها . ويقابلنا في القرن الثامن عشر ظاهرة تسجيل القناصل لهذه المشاهدات ، حقيقة ان الأب كوبان الذي عمل نائب قنصل في دمياط في القرن السابع عشر قد دون مشاهداته عن مصر ولكنه اهتم فيها بالقاء الضوء على المنازعات بين القناصل وبينهم وبين الجالية الفرنسية ، أما في القرن الثامن عشر فقد دون القناصل مشاهداتهم عن مصر ذاتها مثل ملاحظات القنصل الفرنسي ميليه Maillet التي نشرها الراهب لي ماسكريه Mascrier بعنوان « وصف مصر » أي قبل ظهور العمل العظيم للحملة الفرنسية وصف مصر بأكثر من ستين عاما وقد اقتبس علماء الحملة تسمية وصف مصر من كتاب ميليه

الذىلقى الضوء فيه على أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

كذلك استطفنا التعرف على أحوال مصر فى الفترة ما بين عام ١٧٧٤ م الى ١٧٨٩ م من رسائل القنصل الفرنسى مور Mure الى السفير الفرنسى فى الأستانة وفيهالقى الضوء على محاولات الفرنسيين الاتفاق مع المماليك وعقد المعاهدات التجارية معهم وفتح طريق البحر الأحمر للسفن الفرنسية .

ولا نغفل رسائل القنصل ماجالون الى حكومة الادارة تلك الرسائل التى كان لها اثرها الفعال فى احتلال مصر وحث الحكومة الفرنسية على التمهيل بالحملة .

وقد حرصت على مقارنة ما دونه الرحالة والقناصل الفرنسيون عن مصر بكتابات المؤرخين المعاصرين مثل أحمد شلبى وأحمد الدمرداشى ومؤرخنا العظيم الجبرنى فوجدت تطابقا كبيرا وصندقا فيما ذكره هؤلاء الرحالة خاصة عند تسجيلهم لأحداث مصر السياسية .

كذلك اطلعت على ما دونه علماء الحملة الفرنسية فى « وصف مصر » فوجدت انهم اثنوا فى كتاباتهم على رحالة القرن الثامن عشر خاصة وان البعض منهم كانت له دراسات علمية قيمة فإشار علماء الحملة الى دراسة جرانجيه عن مصبات وفروع النيل ودراسة فولنى عن سطح مصر وملاحظات الأب سيكار Sicard عن منطقة وادى النطرون .

وقد حرصت ايضا على الاطلاع على ما كتبه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر خاصة الرحالة

البريطانيين والروس فوجدت ان كتابات ورسوم وخرائط
الفرنسيين أدق وأفضل ولاحظت أيضا ان الرحالة الفرنسيين
كثيرا ما كانوا يصححون أخطاء غيرهم من الرحالة مثل تحديد
مواقع المدن .. الخ ، ولقد كان الرحالة الفرنسيون سلسلة
متعددة الحلقات تتم كل منها الأخرى ولم أجد هذه الأعداد من
الرحالة لدى دولة أوروبية أخرى سوى فرنسا .

ان كتابات القناصل والرحالة عن مصر منذ بداية القرن
الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية تعكس الرؤية الفرنسية
لمصر ، وقد ذكرت ما كتبه الفرنسيون بالفعل من ملاحظات
وأوردت المبالغات التي دونها البعض منهم وحرصت على نقل
ما لفت نظرهم بالفعل في مصر حتى ولو كان شيئا يبدو مأوفا
لنا ولكنه كان غريبا عليهم أثار دهشتهم وانبهارهم حتى الخرافات
التي نقلوها عن العامة رأيت ضرورة ذكرها مثل حديثهم عن
معجزات ثعبان الشيخ هريدى في صعيد مصر وغير ذلك .

وأخيرا لقد تأثر الرحالة الفرنسيون بالثقافة العربية
واتقن البعض منهم اللغة العربية خاصة دورفال D'Orvalle
وفورمون Fourmont وسافارى فاطلعوا على التراث الإسلامى
وتأثروا بكتابات المقرئى وابن دقماق وغيرهم وأشادوا بالحضارة
الإسلامية واتيح لهم أثناء إقامتهم بمصر الاطلاع على مكتبة
الأزهر فأشادوا بدوره في مصر والعالم الإسلامى ويكفي ما ذكره
فورمون في كتاباته « ان مصر قد ملأت العالم فخرا ومجدا
بحضارتها وآثارها » .

الفصل الأول

علاقة فرنسا بالدولة العثمانية ومصر في القرن الثامن عشر

- موقف فرنسا من الصراع العثماني الأوروبي •
- فرنسا وفكرة تقسيم الدولة العثمانية •
- مصر في مخططات السياسة الفرنسية •

موقف فرنسا من الصراع العثماني الأوروبي

قويت الاتصالات الفرنسية العثمانية منذ القرن السادس عشر واتسمت العلاقة بين الدولتين بالود والصداقة ، ويرجع السبب في ذلك ان أسرة الفالوا Valois (١) أرادت الاستعانة بسلاطين الدولة العثمانية في صراعها ضد دول أوروبا للسيطرة على إيطاليا (٢) . وقد تزايدت هذه الاتصالات في عهد فرانسوا الأول ثم ابنه هنري الثاني وقدم السلطان سليمان القانوني بالفعل المساعدات القيمة للفرنسيين . وكان رد الفعل الأوروبي ازاء هذه الاتصالات عنيفا فاعتبرها البابا « وصمة عار في جبين فرنسا » وندد « بموقفها المزرى » على حد قوله لاتصالها بالمسلمين ويمكن تفسير ذلك بأن الدولة العثمانية نجحت في ذلك

(١) حكمت أسرة الفالوا فرنسا في الفترة من عام ١٢٢٨ وحتى عام ١٥٨٩ م .
(٢) امتدت الحروب الإيطالية من عام ١٤٩٤ م الى عام ١٥٥٩ م .

الوقت في تدعيم سيطرتها على البلقان بينما ما زالت أوروبا المسيحية متوترة ومتحفزة ضد هذا المد الاسلامي الجارف الذي وصل الى عقر دارها وكان البابا في روما ما زال يسعى لتكوين الأحلاف الصليبية للتصدي لقوة الأتراك المسلمين ، ولذلك كان اتصال أسرة فالوا بالدولة أمرا غريبا على المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت ومن الصعب قبوله . ويمكننا القول بأن فرنسا أفادت بالفعل من هذه الاتصالات فقد قدمت لها الدولة العثمانية المساعدات القيمة إبان فترة الحروب الإيطالية ، كذلك أثمرت هذه الاتصالات باستئثار الفرنسيين بالامتيازات التي منحت لهم عام ١٥٣٦ م (٣) .

شهدت السنوات الأولى من القرن السابع عشر بداية طيبة للعلاقات الفرنسية العثمانية خاصة في عهد السلطان أحمد خان الذي قبل في عام ١٦٠٤ م تجديد الامتيازات الفرنسية ، بينما نشط سفراء فرنسا في الأستانة طوال القرن السابع عشر للعمل على تقوية النفوذ الفرنسي فيها . وإذا كانت فرنسا قد انشغلت فيما بعد بحرب الثلاثين عاما (٤) في أوروبا ، فقد انشغلت الدولة العثمانية بدورها باضطراب أوضاعها الداخلية ولكن بتولى الوزير كولبير Colbert مهام منصبه عمل على تقوية وتجديد الصلات الفرنسية العثمانية والقضاء على كل ما يعكر صفو العلاقات بين البلدين . ونجح السفير

(٣) الهام ذهني : معر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١ م ص ٢٨ ، ص ٣٦ .

(٤) نشبت هذه الحرب في ١٦١٨ م وانتهت بتوقيع صلح وستفاليا ١٦٤٨ م وخلال هذه الفترة ضعف النفوذ الفرنسي في الأستانة حتى أن البندقية تقاسمت حق حماية الكنائس مع فرنسا في عهد مراد الرابع .

الفرنسي جيرردان Girardin عام ١٦٧٣ م في تجديد الامتيازات التي منحت للفرنسيين من قبل (د) .

وجدير بالذكر أن تجديد الامتيازات الفرنسية في عام ١٦٧٣ م لم يكن معناه استمرار العلاقات الودية بين الطرفين فقد تخللتها فترات من التوتر خاصة في عهد الصدر الأعظم قره مصطفى الذي كان يتبع أسلوبا معاديا للأجانب وجاء ضرب الأسطول الفرنسي لجزيرة خيوة ١٦٨١ (٦) ليزيد من استياء الباب العالي ضد الفرنسيين ، ولذلك حرص السفير الفرنسي في الأستانة على ارضاء الصدر الأعظم بالهدايا ليخفف من حدة غضب السلطان عليهم ولكن سرعان ما تعسنت العلاقة بين الدولتين في عام ١٦٨٣ م بفضل جهود الدبلوماسيين الفرنسيين فقوى النفوذ الفرنسي في الأستانة حتى نهاية حكم لويس الرابع عشر وتوج الفرنسيون ثمرة جهدهم ونجحوا في الحصول على عدة فرمانات عثمانية تخدم مصالحهم التجارية (٧) فمنعت تجارتهم نهوا ملحوظا منذ عام ١٦٨٥ م (٨) .

وقد ناقشت الدكتورة ليلى الصباغ الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع

(٥) الهام ذهني : المرجع السابق ص ٣٦ .

(٦) دأب المغاربة على مهاجمة السفن الفرنسية والتجاء بمضمون الى خيوة فطاردتهم السفن الفرنسية وحربت الجزيرة بالمدافع .

(٧) شملت هذه فرمانات منع سفن شمال افريقيا من مهاجمة السفن الفرنسية - اعفاء السفير الفرنسي من رسوم الجمر - منح ملك فرنسا حق حماية الأماكن المقدسة .

(٨) ليلى الصباغ : الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر . بيروت ١٩٨٩ م ج ١ ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ .

عشر فذكرت أن مانتران Mantran رأى بأنها كانت منحة
وكرما من الدولة الثوية الى فرنسا وقد أكد هذه الحقيقة
المسؤولون الأتراك (٩) بينما فسر البعض هذه الامتيازات بأنها
كانت بسبب تحول طريق التجارة نحو رأس الرجاء الصالح ،
واهتمام أوروبا بأمريكا القارة المكتشفة بدلا من الشرق مما دفع
الدولة العثمانية لأن تكون أكثر مرونة في علاقاتها التجارية ،
وأضاف فريق ثالث أن ضعف سلاطين الدولة بعد سليمان
القانوني كان من أهم الأسباب التي أدت الى منح الأجانب
الامتيازات ويمكن القول ان الأسباب السابقة دفعت الدولة
العثمانية لمنح الدول الأوروبية الامتيازات خاصة فرنسا (١٠) .

ويمكن القول انه حتى القرن السابع عشر حرصت الدولتان
على تحسين علاقاتهما . فالدولة العثمانية خشيت من انضمام
فرنسا الى الأحلاف المسيحية المعادية لها ، كذلك أدرك ملوك
أسرة البوربون Bourbon خاصة لويس الرابع عشر أهمية
التحالف العثماني ضد القوى السياسية في أوروبا (١١) .

وإذا كان القرن السابع عشر قد شهد تقاربا فرنسيا عثمانيا
الا انه شهد أيضا تعاظم خطرين على الدولة العثمانية الا وهما
الخطر الروسي والنمساوي ، فقد برزت قوة روسيا الجديدة
بعد تولى بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) الذي قام بالعديد من

(٩) في عام ١٦٧٠ م أرسل لويس الرابع عشر السفير الفرنسي دي فواتيل
الى الاستانة لتجديد الامتيازات فأكد له الصدر الأعظم ان هذه الامتيازات
« منحة سلطانية » « وليست معاهدات اضطرارية » واجبة التنفيذ : الهام
لجنى ص ٢٩ .

(١٠) المرجع السابق : ج ١ ص ١٩٨ ، ص ٢٢٢ .

(١١) المرجع السابق : ص ١٦٧ .

الاسلحات ونجح في أن يجعل روسيا تحتل مركزا سياسيا بين الدول الأوروبية ، كما عمل على اتباع سياسة توسعية خارج بلاده فركز عملياته الحربية ضد كل من السويد ، بولندا والدولة العثمانية وفي صراعه مع الأخيرة نجح في الاستيلاء على حصن آزوف (١٢) عام ١٦٩٦ وانتزعه من أيدي القوات التركية (١٣) .

ولم يقتصر الخطر المحدق بالدولة على العداء الروسي فحسب وإنما تان على الدولة مواجهة عدو آخر هي النمسا فكان على السلطان مصطفى خان الثاني (١٤) أن يحارب في جبهتين الأولى ضد روسيا والثانية ضد النمسا التي حشدت قواتها بقيادة القائد النمساوي أوجين دي سافوا ولكن الصدر الأعظم كوبرللي حسين أوقف القوات المتقدمة وأجبرها على التقهقر (١٥) .

وبعد محادثات طويلة وقعت الدولة العثمانية معاهدة كارلوفيتز Carlowitz (١٦) عام ١٦٩٩ م مع كل من روسيا - بولونيا - النمسا - البندقية وتسجل هذه المعاهدة بداية انسحاب الدولة العثمانية من الممتلكات التابعة لها واعترافها بذلك الانسحاب في وثيقة رسمية (١٧) وهكذا بانتهاء القرن

(١٢) يقع الحصن عند مصب نهر الدون .

(١٣) زينب راشد : تاريخ أوروبا الحديث ، القاهرة ١٩٨٦ ، ج ١ ص ٢٩٥ .

(١٤) ١٦٩٥ م - ١٧٠٣ م (١١٠٦ هـ - ١١١٥ هـ) .

(١٥) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ، القاهرة ١٩١٢ م ص ١٤١ .

(١٦) تنازلت الدولة في المعاهدة عن آزوف لروسيا فصار لها يد في البحر الاسود وتركزت الدولة بلاد المجر واقليم ترانسلفانيا للنمسا - وتركزت بادوليا لبولندا - وتركزت دلماسيا وقسما من المورة للبندقية .

(١٧) عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٨٢ م ص ٣٢ .

السابع عشر كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة
الضعف بصورة واضحة (١٨) .

ومع مطلع القرن الثامن عشر كان على الدولة العثمانية
مراقبة نشاط روسيا والنمسا الطامعين في أملاكها ، فأولى
السلطان أحمد خان الثالث (١٩) البحرية والأسطول اهتماما كبيرا
فأكثر من المدارس البحرية وأصلح دار الصناعة في استانبول
خاصة وأن نشوب الحرب بين السويد وروسيا تم في عهده ونجح
ملك السويد شارل الثاني عشر في دخول الأراضي الروسية ،
فوجدت الدولة العثمانية ان الفرصة سانحة لها لتوجيه ضربة
الى قوة روسيا العسكرية فعملت على تشجيع ملك السويد ،
ولكن بطرس الأكبر نجح في إلحاق الهزيمة به في بطاوة واضطر
شارل الثاني عشر الى اللجوء الى الدولة العثمانية عام ١٧٠٩ م
فتعقبته القوات الروسية ودخلت أراضي الدولة العثمانية التي
أعلنت بدورها الحرب على روسيا وتزعم بلطه جي محمد باشا
حصار القوات الروسية بجانب نهر بروت حتى كاد بطرس الأكبر
ان يقع في الأسر (٢٠) . ولكن سرعان ما وقعت معاهدة بين الطرفين
هي معاهدة فلكن عام ١٧١١ م وبمقتضاها أخلى بطرس الأكبر
آزوف Azov وتعهد بعدم التدخل في شئون المنطقة (٢١) .
ثم جدد يوسف باشا الصدير الأعظم المعاهدة بين البلدين وعقد
معاهدة جديدة تضمنت وقف الحرب بين البلدين لمدة ٢٥ عاما ،

(١٨) عبد العزيز فوار : الشعوب الاسلامية ص ١٦١ .

(١٩) ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م (١١١٥ - ١١٤٣ هـ) .

(٢٠) الميرالاي اسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية تقديم ومراجعة

حسن الزين ، القاهرة ١٩٨٨ م ص ١٩٦ ، ص ١٩٩ .

(٢١) قدمت كاترين زوجة بطرس الأكبر الى بلطه حى باشا مجوثراتها

لكى يفك الحصار عن زوجها فتقبلها وقبل توقيع الصلح .

ولكن كان من الصعب على بطرس الأكبر ان يتخلى عن طموحه وسياسته التوسعية فنشبت الحرب من جديد بين الطرفين وانتهت بتوقيع معاهدة أدرنه عام ١٧١٣ م وفيها تناولت روسيا عن كافة اراضيها حول البحر الأسود (٢٢) .

وكما تجددت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فقد تجددت مع النمسا أيضا بسبب رغبة السلطان في الاستيلاء على كورفو فتقدمت القوات العثمانية الى كارلوفيتز ولكن القوات النمساوية ألحقت بها الهزيمة واستولت على بلجراد عام ١٧١٧ م واضطرت الدولة لئقء معاهدة بشاروفيتز Passarowitz عام ١٧١٨ م (٢٣) حيث تنازلت فيها للنمسا عن أجزاء كبيرة من اراضيها (٢٤) .

وقد سادت فترة من الهدوء بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بعد توقيع معاهد بشاروفيتز ، ولكن سرعان ما واجهت الدولة العثمانية خطرا جديدا تمثل في الحرب التي دارت بينها وبين فارس في عهد السلطان محمود خان الأول (٢٥) ، وطلب الشاه طهماسب توقيع معاهدة الصلح عام ١٧٣٢ م ولكن القائد نادر شاه عارض المعاهدة وعزل الشاه وولى ابنه عباس الثالث بدلا منه واقام نفسه وصيا عليه ثم قام بعدها بمحاصرة بغداد والموصل وحاول الوزير طوبال التصدي له ولكنه قتل ، وبعدها دارت محادثات بين الطرفين وتم الاتفاق في عام ١٧٣٦ م في مدينة

(٢٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٢٣) تنازلات الدولة العثمانية عن بلجراد للنمسا وجزء من الحرب

وأخر من الانلاق وأعيدت بلاد المورة الى الدولة العثمانية .

(٢٤) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(٢٥) ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م (١١٤٣ - ١١٦٨ هـ) .

تفليس على أن ترد الدولة العثمانية كل ما أخذته من فارس
وان تكون حدود الدولتين وفقا لمعاهدة ١٦٣٩ م المبرمة مع
مراد الرابع (٢٦) .

ونلاحظ من خلال ذلك ان الدولة العثمانية قد وزعت
جهودها العسكرية ضد القوات الأوروبية المتحالفة ضدها متمثلة
في روسيا والنمسا وكذلك اضطرت الى مواجهة الفرس الذين
كانوا يتحينون الفرصة لتوجيه الضربات اليها باعتبارها أكبر
قوة اسلامية سنية موجودة في ذلك الوقت .

هذا ولم يستمر الهدوء الذي ساد بين الدولة العثمانية
وروسيا طويلا فسرعان ما نشبت الحرب بينهما من جديد بسبب
مملكة بولونيا فقد تم الاتفاق سرا بين روسيا والنمسا وبروسيا
عام ١٧٢٢ م على عدم تعيين ملك وطني في بولونيا خوفا من اتحاد
الأهالي ولكن يستمر اضعافها فيتم اقتسامها بعد ذلك ، فلمّا
توفي أوجست الثاني ملك بولندا انتخب الأهالي في عام ١٧٣٣ م
ستانسلاس لكزينسكى ملكا عليهم بمساعدة فرنسا التي أرادت
الابقاء على بولندا وعدم تقسيمها فأعلنت روسيا والنمسا الحرب
على بولندا ونادت بأوجست الثاني ملكا على البلاد فسارعت
فرنسا باعلان الحرب على النمسا دفاعا عن بولندا وسعت فرنسا
لدى الباب العالي بواسطة المسيو دي بونفال Bonneval
قائد الطوبجية لاستمالته للدفاع عن بولندا والانضمام الى فرنسا
لأن بولندا مثلت حاجزا بين روسيا وأوروبا ، فوضحت له نوايا
روسيا تجاه الدولة العثمانية ورغبتها في احتلال الأستانة ،
ولما شعرت النمسا بمساعي فرنسا أسرعت بدورها في أرضائها
فوقعت معها معاهدة ويانة في عام ١٧٣٥ م وأخذت النمسا

(٢٦) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

تستعد مع روسيا لمواجهة الدولة العثمانية فأغارت روسيا على القرم عام ١٧٣٦ م كما احتلت كذلك ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية وحاول الصدر الأعظم مهاجمة القوات الروسية ولكنه اضطر لتوجيه جهوده صوب النمسا التي أغارت بدورها على البوسنة والصرب ونجحت القوات التركية في النهاية في إجبار النمسا على التراجع وطلب الصلح عام ١٧٣٧ م فقد سارعت النمسا بطلب وساطة المسيو فيلينوف Villeneuve السفير الفرنسي في الآستانة لكي يقنع الدولة العثمانية بقبول عقد الصلح الذي تم في عام ١٧٣٩ م ووقعت كذلك معاهدة بلجراد التي تنازلت فيها النمسا عما استولت عليه من الصرب بمقتضى معاهدة ساروفيتس (٢٧) ، بينما تعهدت روسيا بهدم قلاع آزوف وعدم تجديدها في المستقبل وعدم انشاء سفن سواء كانت حربية ام تجارية بالبحر الأسود أو بحرف آزوف وكذلك ان تكون تجارتها على سفن أجنبية وأن ترد للدولة العثمانية كل ما ضمنه من الاقاليم والبلدان السابق استيلاؤها عليها ، وبذلك نلاحظ ان الدولة العثمانية نجحت في معاهدة بلجراد في استرداد جزء كبير مما فقدته من قبل في معاهدة كارلوفيتز (٢٨) .

يتضح لنا مما سبق الدور الهام الذي لعبه السفراء الفرنسيون في توجيه سياسة الدولة العثمانية وفق مصالح بلادهم السياسية فقد طالبوها بمساندة بولندا ثم عقدوا صلحا منفردا مع النمسا ، كذلك لعبوا دورا في الوساطة بين الدولة العثمانية وأعدائها وذلك وفق ما تقتضيه مصالحهم لا مصالح الدولة العثمانية .

(٢٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٤٨ ، ص ١٤٩ .
(٢٨) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، القاهرة في ١٩٨٠ م ج ١ ص ١٩٥ .

ولما كانت فرنسا نفسها تخشى من نمو وتصاعد الخطر الروسي فقد نشط سفيرها في الاستانة المسيو فيلينوف لاقتناع الدولة العثمانية بمدى خطورة روسيا وتماظم قوتها ونجح في اقناع الدولة العثمانية بالتحالف مع السويد ضد روسيا وعقد الباب العالي بالفعل محالفة مع السويد في عام ١٧٤٠ م ، وفي العام نفسه نجح السفير الفرنسي في الحصول على حق تجديد الامتيازات الممنوحة للتجار الفرنسيين وارسل السلطان العثماني محمد سعيد مبعوثا الى الملك لويس الخامس عشر ليقدم له صورة المعاهدة بين الدولتين وهي مطابقة لمعاهدة عام ١٦٧٣ م ولكن مع بعض التسهيلات الجديدة وحرص السلطان على ارسال الهدايا الثمينة مع البعثة العثمانية فأحسن الملك مقابلة البعثة وارسل معها عند عودتها مركبتين حربييتين ومدفعية فرنسية ومعلمين فرنسيين لتدريب الجيش العثماني على النظام العسكري الجديد الذي ادخله لوفوا Louvois الفرنسي الشهير في القوات الفرنسية آنذاك (٢٩) .

لقد ازداد هذا التقارب الفرنسي من الباب العالي عندما نشبت حرب الوراثة النمساوية (٣٠) في أوروبا ، وحاولت فرنسا تحريض الباب العالي على محاربة النمسا فعرضت عليه احتلال المجر واسترجاع الأملاك العثمانية لكي تعود الدولة العثمانية الى ما كانت عليه من اتساع في عهد سليمان القانوني ، ولكن السلطان محمود لم يقبل تغيير مسلكه السلمى بل انه استمر متمسكا بمعاهدة الصلح مع النمسا مظهرا حرصه على السلام (٣١) .

(٢٩) محمد فريد - المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٣٠) استمرت هذه الحرب في أوروبا من عام ١٧٤٠ - ١٧٤٨ م .

(٣١) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ص ٢١٢ .

حرصت فرنسا حتى منتصف القرن الثامن عشر على التقرب من الدولة العثمانية لعدة أسباب منها رغبتها في تجديد امتيازاتها التجارية والحصول على المزيد منها ، وكذلك للأفادة من الدولة ودفعها لمحاربة منافسيها خاصة روسيا والنمسا للحيلولة دون توسعهما ، كذلك نلاحظ أن الدولة العثمانية حتى منتصف القرن الثامن عشر ورغم ما منيت به من هزائم إلا أنها واصلت رد ودفع الخطر الأوروبي وعملت على التصدي له . ولئن اختلف الأمر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد تزايد العداء بين الدولة العثمانية وروسيا بصورة خطيرة خاصة بعد تولي كاترين الثانية الحكم والتي عملت على اتباع سياسة بطرس الأكبر التوسعية سارت على نهجه في محاربة الدولة العثمانية فأعلنت الحرب عليها في عام ١٧٦٨ م ، كما عملت على تحريض الرعايا المسيحيين التابعين للدولة العثمانية على الانفصال عنها (٣٢) .

استمرت الحرب بين الطرفين ست سنوات منيت خلالها الدولة العثمانية بالعديد من الهزائم الفادحة واضطرت في النهاية إلى القبول بتوقيع معاهدة كتشك كينارجي Kutchek Kainardji عام ١٧٧٤ م وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية إلى بحيرة روسية وتقرر لروسيا الحق في إنشاء قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل البحر الأسود وبذلك أصبحت روسيا إحدى دول البحر الأسود المعترف بها كما تقرر لها الحق في إنشاء قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل البحر الأسود كما تقرر لها الحق في أن تستخدم سفنها التجارية المضائق للخروج من هذا البحر إلى البحار العامة والدخول منها إليه . وقد ورد في المعاهدة

(٣٢) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٣٤ .

مسألتان الأولى هى الحقوق الملاحية لروسيا فى البحر الأسود والمضايق والثانية هو الوجود العسكرى البحرى والبرى فى البحر الأسود . وقررت المعاهدة السماح للرعايا الروس بممارسة التجارة فى جميع ولايات الدولة العثمانية وأن يطبق عليهم نذبات الامتيازات مثل رعايا بريطانيا وفرنسا ، وقد فاقت معاهدة كينارجى المعاهدات السابقة وشكلت نموذجا للعلاقة بين الدولة العثمانية وروسيا (٢٢) .

ثم دخلت الدولة العثمانية فى حرب جديدة ضد روسيا عام ١٧٨٨ م شاركت فيها النمسا وانتهت بتوقيع معاهدة ياسى Jassy عام ١٧٨٢ م التى حصلت روسيا بمقتضاها على عدد من الموانئ عند مصب نهر الدانوب وكان السبب المباشر لهذه الحرب الأخيرة ان كاترين الثانية دأبت بعد معاهدة كينارجى على اشغال الفتنة بين رعايا الدولة العثمانية من الأرثوذكس فى البلقان وبحر ايجة وامتدتهم بالأسلحة والمال فاضطرت الدولة العثمانية لاعلان الحرب عليها (٢٤) .

وجدير بالذكر ان فرنسا خلال الحرب التركية (١٧٦٨ - ١٧٧٤ م) خشيت سقوط الدولة العثمانية فعمل البارون دى توت على تحصين الدردنيل واصلاح القلاع وامتدادها بالمدافع الضخمة بحيث جعل المرور من المضائق أمرا مستحيلا ثم حول عدة مراكب تجارية الى سفن حربية وأسس مدرسة لتخريج ضباط البحرية واهتم بتدريبهم على أحدث الأسلحة (٢٥) . فقد خشيت فرنسا انهيار الدولة وما يتربص

(٢٣) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ج ١ ص ١٩٦ ، ص ١٩٧ .

(٢٤) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٣٨١ .

(٢٥) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

على ذلك من تصاعد النفوذ الروسى ، كذلك أرادت الحفاظ على
تجارة أسكالات الشرق ومصالحها التجارية فيها ودأب السفير
الفرنسى فرجين على تحريض السلطان العثمانى ضد
روسيا (٣٦) .

لقد تعرضت الدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن
الثامن عشر لتأمر دوائين كبيرتين : روسيا من الشمال والنمسا
من الغرب ودخلت الدولة العثمانية فى عدة حروب أخرى طاحنة
مع روسيا التى اتخذت من حماية المسيحيين الأرثوذكس ذريعة
لمحاربة الدولة العثمانية ولم يوقف من عمليات سحق الدولة
العثمانية والقضاء عليها فى نهاية القرن الثامن عشر سوى قيام
الثورة الفرنسية وانصراف روسيا والنمسا الى مشاكل
أوروبا (٣٧) .

وبذلك يمكننا القول ان الفترة التى أعقبت معاهدة
كتشك كينارجى وحتى نهاية القرن الثامن عشر من أحلك الفترات
التي عانت منها الدولة العثمانية ولا ننسى تشجيع الروس للحركات
الانفصالية عن الدولة فى الولايات العربية خاصة فى الشام
ومصر (٣٨) أى أن دورهم فى تشجيع الولايات على الانفصال عن
الدولة العثمانية لم يقتصر على الولايات والمناطق التى يقطنها
أغلبية مسيحية فقط .

Roux, Charles : Les Origines de L'expédition
d'Egypte Paris 1910 P. ٤2.

(٣٦)

(٣٧) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٣٩ .
Roux, Charles : Les Echelles de Syrie et de Palestine
au XVIII siècle. Paris 1928 tome X. PP. 84 — 85.

(٣٨)

فرنسا وفكرة تقسيم الدولة العثمانية

دافع الساسة الفرنسيون عن فكرة الإبقاء على الدولة العثمانية وعارضوا فكرة تقسيمها ومن أبرز أنصار هذه الفكرة السفير الفرنسي في الأستانة سان برييه Saint Priest الذي مكث فترة طويلة في منصبه مما أتاح له فرصة مراقبة الطامعين في الدولة من جيرانها خاصة النمسا وروسيا . وقد تمتع سان برييه بثقة سلاطين الدولة العثمانية فكلفوه بالوساطة بينهم وبين كاترين الثانية وجوزيف الثاني وقد أرسل دي برييه العديد من التقارير إلى الحكومة الفرنسية منبها ومحذرا من تزايد الخطر النمساوي وموضحا أطماعها في الدانوب كذلك نبه لحالة الضعف الشديدة التي وصلت إليها الدولة العثمانية وأظهر تخوفا كبيرا من أطماع روسيا في ممتلكاتها (٣٩) .

كذلك ناقش الساسة الفرنسيون والقناصل مسألة سقوط الدولة العثمانية فقدم مور القنصل الفرنسي في الإسكندرية

Roux, Ch. : Op. Cit., P. 103.

تقريراً في عام ١٧٨٣ م تنبأ فيه بسقوط الدولة العثمانية ، ولكن الكونت فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لم يتفق معه في الرأي وأكد أن الامبراطورية العثمانية ليست وشيكة الانحلال بالصورة التي تنبأ بها كل من مور أو سان برييه في الاستانة ولكنه في الوقت نفسه نبه على ضرورة المحافظة على علاقات الود والصداقة مع الدولة العثمانية (٤٠) .

وجدير بالذكر أنه على الرغم من مساندة فرنسا للدولة العثمانية ودعوتها للبقاء على الدولة العثمانية ومنع انهيارها ، إلا أن الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية قد نظرت إلى فرنسا باعتبارها المنقذ لها من سيطرة الدولة العثمانية وهيمنتها عليهم وخاصة بعد المساعدات القيمة التي قدمتها الحكومة الفرنسية للثوار الأمريكيين من أجل الحصول على استقلالهم عن بريطانيا ، وندل على ذلك بالرسالة التي أرسلها مواطنو كاندی في ١٢ يونيو عام ١٧٨٥ م إلى الملك لويس السادس عشر يطلبون منه فيها المساعدة والتدخل ومساندتهم ضد الدولة العثمانية كما فعل من قبل مع ثوار أمريكا وقد وجد هذا الاتجاه تشجيعاً من بعض الساسة الفرنسيين فكتب البارون دي برتیه Bertier رسالة يوضح فيها للحكومة الفرنسية أهمية كاندی ومطالباً بتقديم يد المساعدة إلى أهالي الجزيرة للتخلص من السيطرة العثمانية (٤١) .

ولكن فرنسا ظلت على سياستها التي انتهجتها إلا وهي المحافظة والبقاء على الدولة العثمانية وحذر الدوق

(٤٠) عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٠٢ .

Roux. Op. Cit., P. 176.

(٤١)

لوزرن Lauzern الذي أرسل مبعوثا الى كاترين الثانية في روسيا من اطماع الأخيرة في ممتلكات الدولة العثمانية فكتب في تقريره الذي رفعه الى حكومته « ان الامبراطورة تريد طرد الأتراك من أوروبا ، وتريد أن يكون مقر عرشها في القسطنطينية (٤٢) .

وإذا كان السفير الفرنسي سان برييه قد تبني لمدة ستة عشر عاما فكرة المحافظة والابقاء على الدولة العثمانية الا ان خلفه شوازيل جوفيه Choiseul-Gouffier كان له رأى آخر فقد رأى ضرورة تقسيم الامبراطورية العثمانية وان تكون مصر من نصيب فرنسا (٤٣) .

ويمكننا القول انه في القرن الثامن عشر قد ظهرت عدة مشاريع لتقسيم الدولة العثمانية ، فمنها المشروع الروسى الذى يتلخص فى أن يكون لروسيا حق الزعامة على المسيحيين التابعين للدولة العثمانية وهذا بالطبع يعنى احياء الدولة البيزنطية القديمة بزعامة روسيا والعمل على اعادة مجدها القديم (٤٤) . اما المشروع الثانى وهو المشروع اليونانى الذى تضمن استبعاد الدولة العثمانية من أوروبا وتقسيم ممتلكاتها بين روسيا والنمسا على أن يكون البلقان من نصيب النمسا أما استانبول وتراقيا ومقدونيا وبلغاريا واليونان فتكون من نصيب روسيا (٤٥) . ويبدو ان السياسة الفرنسيةين اعجبوا بالمشروع الأخير لانه بمقتضاه تحصل فرنسا على مصر وسوريا وتشارك بريطانيا فى

Ibid P. 87.

(٤٢)

Ibid P. 111.

(٤٣)

(٤٤) جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٨٠٥ ، الاسكندرية

ص ٣٣ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وتأكيدا لهذا المشروع سحبت فرنسا مستشاريها العسكريين من الجيش العثماني عام ١٧٨٦ م ثم ما لبثت أن وقعت معاهدة صداقة وتجارة في عام ١٧٨٧ م مع روسيا (٤٦) .

ولكن رغم هذا التغير في السياسة الفرنسية وبعد قبول فرنسا توقيع معاهدة الصداقة مع روسيا إلا أن الخط العام للدولة ظل قائما على سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية وكذلك المحافظة على الوضع القائم فيها وعدم فتح باب مناقشة تقسيم الدولة لما سيؤدي اليه من قلاقل (٤٧) . ونستدل على ذلك أن فرنسا أعادت خبراءها العسكريين الى الدولة العثمانية فعندما أظهر السلطان العثماني سليم الثالث (٤٨) . ميلا نحو الإصلاح واخراج البلاد من عزلتها والأخذ بأسباب المدنية الأوروبية خاصة من فرنسا استدعى السفير الفرنسي في الاستانة عام ١٧٩٦ ، عددا من المهندسين والضباط الفرنسيين لتدريب فرق الفرسان العثمانية على الطراز الأوروبي فكان من الطبيعي أن ينظر الروس لهذه التجديدات بعين الحسد والحقد (٤٩) .

وسرعان ما تغيرت العلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا وذلك بمجيء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، فأسرعت الدولة العثمانية بإبرام تحالف دفاعي مع روسيا عام ١٧٩٨ م للدفاع عن أستانبول وكانت مدة التحالف هذا ثمانى سنوات ، عقد بين السلطان سليم الثالث والقيصر بول الأول وخرج بذلك

(٤٦) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٤٧) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٤٨) ١٧٨٩ - ١٨٠٧ م .

(٤٩) سرهنك : المرجع السابق ص ٢٤٠ .

السلطان سليم الثالث عن السياسة العليا التي رسمها حكام الدولة العثمانية . ويرجع سبب هذا التحالف الى الذعر الذي أصاب الدولة العثمانية من احتلال فرنسا لمصر لأنه كان اول احتلال عسكري اوروبي مسيحي لولاية عثمانية اسلامية في التاريخ الحديث (٥٠) .

وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر تحولا كبيرا في العلاقات الفرنسية العثمانية .

(٥٠) الشناوى : المرجع السابق ج ١ ص ١٩٦ .

مصر في مخططات السياسة الفرنسية

يرجع اهتمام فرنسا بمصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر الى حرصها على التعرف على امبراطوريات الشرق العظيمة خاصة الامبراطورية العثمانية والفارسية والصينية والهندية فقد كان الاهتمام بمصر في ذلك الوقت جزءا من الاهتمام الأكبر والأهم بالامبراطورية المهيمنة على مصر الا وهى الدولة العثمانية (٥١) . اما في القرن الثامن عشر فقد اختلف الوضع فقد اهتمت فرنسا بمصر لذاتها فقد لفتت ثروات مصر الزراعية ، وموقعها الجغرافى الهام اهتمام السياسة الفرنسية ، ويرجع الفضل في ذلك الى كتابات الرحالة الفرنسيين والقناصل الذين كتبوا بافاضة عنها فلم تعد معرفة الفرنسيين بها قاصرة على مدن مصر السفلى واهم المزارات المسيحية فيها كما كان الحال عليه في القرنين السابقين وانما اكتملت صورة مدن مصر بعد ان جاب هؤلاء الرحالة مدن مصر العليا وتعمقوا فيها مسجلين

(٥١) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ١٣٧ .

مشاهداتهم وملاحظاتهم مؤكدين على ضرورة الاستيلاء على هذا البلد الفنى بموارده ومن هنا ظهرت فكرة غزو مصر لدى السياسة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .

وجدير بالذكر ان فكرة غزو مصر لايمكن ان تنسب الى القرن الثامن عشر فحسب وانما روج لها بعض الرحالة والساسة منذ القرن السابع عشر فدعا الرحالة الفرنسى الأب كوبان فى النصف الاول من القرن السابع عشر الى غزو مصر ونشر رحلته عن مصر فى كتاب عن الحروب الصليبية حرض فيه وعمل على اثاره حماس العالم المسيحى لغزو مصر مذكرا الأوروبين بأمجاد جودفرى بويون وغيره . كذلك دعا الى اتحاد أوروبا ضد الدولة العثمانية وتحرير الشرقى المسيحى منها (٥٢) .

ثم تجددت هذه الفكرة فى عهد لويس الرابع عشر اذ عرض عليه الفيلسوف الألمانى ليبينيه Leibnitz مشروعاً لغزو مصر عام ١٦٧٥ م موضحاً فوائده خاصة وأنه سيمكن فرنسا من احتكار تجارة الهند وجاء رد السفير الفرنسى أرنولد دى بونبون Arnauld De Pomponne بأن الملك اضطلع على المشروع ولكن « مشروعات الحروب المقدسة لم تعد مناسبة منذ عهد لويس التاسع » (٥٣) .

والواقع ان ليبينيه نادى بغزو مصر « لاعلان الحرب ضد الخونة » وعكف على وضع مشروعه بعد نجاح موقعة سلى جوتار عام ١٦٦٤ م فقدمه الى الوزير الفرنسى ورغم ان الأخير اجابه

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٢ .
Clément, R. : Les Français d'Egypte au XVII et XVIII siècles. Le Caire 1960. P. 266.
(٥٣)

برفض المشروع الا ان ليبينييه ظل يرأسل لويس الرابع عشر
موضحا أهمية غزو مصر حتى عام ١٦٧٦ م وما زالت تقاريره
ومذكراته محفوظة في مكتبة هانوفر (٥٤) . وقد حاول ليبينييه
اثارة حماس لويس الرابع عشر فأكد له « ان الغزو سيؤدي
الى القضاء على منافسة هولندا له لأن مصر هي الميدان الذي
من الممكن توجيه ضربة منه الى هولندا ، وانها هي الطريق
الحقيقي الى الهند وباحتلالها سوف يمتلك زمام التجارة
وينتزعها من يد الهولنديين » كذلك أكد له « انه سيتمكن من
بسط ساطان فرنسا وسيادتها في بلاد الشرق وتكسبون عطف
المسيحية وتستحقون ثناءها (٥٥) .

ويمكننا القول ان فكرة غزو مصر في القرن السابع عشر لم
تقتصر على ليبينييه وحده وانما نادى بها سفراء فرنسا في الاستانة
نخص منهم دنيس دي هاى Denis De Haye والماركيز دي
نوانتيل De Nointel وجيردان Girardin وقد
اثرت هذه الفكرة في عهد لويس السادس عشر حيث عكفت
الحكومة الفرنسية على دراسة هذا المشروع دراسة جدية (٥٦) .
وقد وجدت التقارير الخاصة بغزو مصر في المكتبة الوطنية
في باريس ، كذلك وجد مخطوط يناقش هذه الفكرة (٥٧) .

وجدير بالذكر ان السفير الفرنسي في الاستانة سان برييه
الذي دافع عن فكرة الإبقاء على الامبراطورية العثمانية وعدم

Brehier, L. : L'Egypte De 1798 à 1900 Paris 1900 P. 22. (٥٤)

(٥٥) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم

في مصر ، القاهرة في ١٩٨١ م ج ١ ص ٧٦ .
Clement : Op. Cit., P. 266. (٥٦)

Projet de Conquête pour Le règne du roi Louis XV (٥٧)

تقسيمها بين الدول الأوروبية دعا لغزو مصر فكتب في ١٧ يوليو عام ١٧٦٨ م معللا فكرة الغزو « لأن مصر تعتبر دولة ذات طابع مستقل » (٥٨) .

ولاشك ان فكرة الغزو نمت حسب احوال فرنسا الداخلية فعندما هزمت فرنسا في حرب السنوات السبع وفقدت ممتلكاتها في العالم الجديد والهند ظهرت هذه الفكرة بصورة قوية ونستدل على ذلك مما كتبه الدوق شـوازيل الى الكونت فرجين عام ١٧٦٦ م يطالب « بغزو مصر لكي تكون بديلا عن امريكا الضائعة والهند » (٥٩) . وعندما ظهرت مشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين روسيا والنمسا رحب دي شـوازيل بالفكرة عام ١٧٦٩ م على ان تكون مصر من نصيب فرنسا وبعد مضي اكثر من عشرين عاما على كتابات دي شـوازيل ومقترحاته عن غزو مصر نجد ان السياسي الفرنسي الشهير تاليران Talleyrand يثني عليه فيكتب في عام ١٧٩٧ م اي قبيل الحملة الفرنسية « ان الدوق دي شـوازيل كان من القلائل الذين امتازوا بأن لديهم حاسة نحو المستقبل فاقتراحه بغزو مصر كان اقتراحا صائبا من اجل تنمية التجارة ولتعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات في امريكا والهند » (٦٠) .

وكما ذكرنا من قبل ان فكرة الغزو أصبح لها صفة رسمية منذ عهد لويس السادس عشر ففي عام ١٧٧٧ م ارسل البارون دي توت العمل مفتشا لأسكالات الشرق ولكن كانت له

Hanotaux, G. : Histoire de La Nation Egyptienne. (٥٨)

Paris 1931 Tome V P. 202.

Roux : Op. Cit., P. 40. (٥٩)

Ibid P. 40. (٦٠)

مهمة أخرى سرية إلا وهي بحث امكانية غزو مصر فزار المدن الساحلية الهامة في مصر كأبي قير والاسكندرية ودمياط ورشيد فدون ملاحظاته حول تحصينات هذه المدن وأكد أهمية غزو مصر « لأنه مشروع هين » على حد قوله ولكن بعثة دي توت لم تكن لها أية نتائج مباشرة لانشغال فرنسا بتدعيم ثوار أمريكا للاستقلال عن بريطانيا (٦١) .

وخلال عامي ١٧٧٧ - ١٧٧٨ م قدم سان برييه عدة تقارير الى الوزير فرجين (٦٢) تضمنت جميعها غزو مصر موضعا « خصوبة أراضيها حيث ينمو فيها النبات دون زراعة وبذلك نتمكن من تعويض جميع محاصيل مستعمراتنا التي فقدناها في كندا كما أن القوة الحاكمة من السهل القضاء عليها » (٦٣) . وفي عام ١٧٨٠ م وضع القس رينل Raynal (٦٤) كتابا أوضح فيه أهمية الاستيلاء على مصر لتعويض فرنسا عما فقدته بعد هزيمتها في حرب السنوات السبع (٦٥) .

وإثناء حرب الاستقلال الأمريكية وضع البارون ولدنيه Waldner عام ١٧٨٢ م مشروعا بالاستيلاء على مصر واستبعاد تجارة بريطانيا من البحر الأحمر والهند (٦٦) . وفي عام ١٧٨٣ م تخوف مور القنصل الفرنسي في الاسكندرية من

Clement : Op. Cit., P. 269. (٦١)

Mémoire sur Le Commerce et la navigation au Levant (٦٢)

Hanotaux : Op. Cit., P. 204. (٦٣)

L'Abbé Raynal : L'histoire philosophique et Politique (٦٤)

des établissements des Européens dans les deux Indes.

Roux : Op. Cit., P. 99. (٦٥)

Clement : Op. Cit., P. 270. (٦٦)

غزو النمسا لمصر وامكانية تعاونها مع الامبراطورة كاترين الثانية في روسيا فكتب « ان تجارة الشرق خاصة مصر تعطى نشاطا وحيوية كبيرة للبحرية ، وان احتلال مصر يعوضنا عن منتجات امريكا » « ان اسطولا فرنسا مكونا من ١٢ الى ١٥ سفينة في السويس قادر على ان يحول فرنسا الى سيدة الموقف في البحر الأحمر » ، وطالب مور بتدعيم السيطرة الفرنسية على مصر العليا ووضع قوة عسكرية فرنسية عند الشلال الاول لد النفوذ على بلاد النوبة ووضع فصائل من الجنود من القاهرة حتى اسوان ، كذلك توزيع قوات عسكرية في الفيوم ودمهور لمراقبة عرب البحيرة وتركيز قوات بين الاسكندرية وطرابلس (٦٧) .

وفي عام ١٧٨٣ م أرسلت فرنسا بعض ضباط البحرية ليتعرفوا على النقاط الحربية الهامة في مصر فقدمت البعثة برئاسة الكونت بونفال Bonneval ثم تبعه برفاليه La Prevalay الذي حاول عقد اتفاق مع المماليك ولكنه فشل فأرسلت الحكومة الفرنسية تروجييه عام ١٧٨٥ م للتفاوض مع المماليك (٦٨) .

وفي عام ١٧٨٤ م أوضح السفير الفرنسي في الاستانة شوازل جوفيه في مذكرة الى فرجين وزير الخارجية (٦٩) . مدى الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية وأعرب عن تخوفه من تزايد النفوذ الروسي والبريطاني وأعرب عن أسفه من أن الملك لويس السادس عشر لم يكن لديه طموح الامبراطورة كاترين امبراطورة روسيا ولا جوزيف الثاني امبراطور النمسا (٧٠) .

Roux : Op. Cit., P. 125.

(٦٧)

Ibid P. 144.

(٦٨)

Notions sur L'état actuel de l'empire ottoman

(٦٩)

Roux : Op. Cit., P. 118.

(٧٠)

ومن الطريف انه في سنة ١٧٨٦ م استقدم ابراهيم بك
أعدادا كبيرة من المماليك من جورجيا والقوقاز فتخوف شوازل
من ذلك وكتب الى حكومته « لقد أرسلت روسيا الى ابراهيم بك
... جندي واثني أخشى من المد الروسي » (٧١) .

وقبيل نشوب الثورة الفرنسية خرج مشروع غزو مصر
من نطاق السرية وأصبح يناقش علنيا في باريس ففي عام ١٧٨٧ م
قدمت مذكرتان الى الحكومة الفرنسية الأولى مجهولة الكاتب
والثانية كانت بتوقيع ريمون ليبون Raymond Lebon أوضحت
المذكرات أهمية الاستيلاء على رودس « لأنها مدخل أوروبا
وآسيا كما أنها في مواجهة الميناء القديم الشهير الاسكندرية » .
وأكد ريمون ليبون في مذكرته أهمية رودس كطريق تجارى الى
السويس « ان مركز جزيرة رودس كطريق تجارى تسمح بقيام
نشاط تجارى وصناعى سواء مع فارس عن طريق البحر الأسود
سواء مع مصر عن طريق ميناء رشيد » كما أن رودس سوف
تتيح لنا الحصول على منتجات الهند عن طريق البحر الأحمر
وتصل هذه المنتجات الى القاهرة بواسطة القوافل (٧٢) .

اما المذكرة الثانية وكانت عن احتلال رودس ايضا « من
أجل مركزها بين مصر والبحر الأسود » ، « ولو أحكمت فرنسا
السيطرة على رودس فأنها تستطيع أن تكون في طريق البحر
الأحمر تجارة تدر عليهم الأرباح » (٧٣) .

وعندما قامت الثورة الفرنسية عين ماجالون Magallon
قنصلا في مصر عام ١٧٩٣ م ولعب دورا هاما في تنبيه حكومة

Ibid. P. 129.

Roux : Op. Cit., P. 207.

Ibid. P. 208.

(٧١)

(٧٢)

(٧٣)

بلاده الى اهمية الاستيلاء على مصر فكتب يقول « ولا بد من انهاء عبث الحكام المماليك بمصالح فرنسا التجارية ، ولا بد للجمهورية ان تستخدم القوة لغزو مصر للمزايا والفوائد السياسية والاقتصادية التي سوف تجنيها فرنسا من سيطرتها على مصر وعلى البحر الأحمر » (٧٤) . وأوضح تقارير ماجالون مزايا الاستيلاء على مصر لخصوبة أراضيها وتحويلها الى مستعمرة زراعية وسوق لتوزيع السلع (٧٥) . وذكر في احدى تقاريره « ان اجمل هدية تقدم الى الشعب الفرنسي هي غزو مصر » (٧٦) . وأوضح ماجالون في تقرير كتبه في ١٠ أكتوبر عام ١٧٩٥ م « ان الفترة الزمنية التي يمكن للقوات الفرنسية ان تتحرك فيها من فرنسا الى الهند عبر مصر والبحر الأحمر قبل ان تتمكن القوات البريطانية من مطاردتها تستغرق نحو ٤٥ يوما قبل ان يكون لدى بريطانيا فسحة من الوقت لتتخذ اى اجراء مضاد » (٧٧) .

اذا كنا قد استعرضنا موقف فرنسا الرسمي من فكرة غزو مصر فينبغى لنا ان نذكر ما كتبه الرحالة الفرنسيون عن هذه الفكرة نخص بالذكر منهم كلا من سوينى دى مانكور وأوليفيه الأول زار مصر بعد نشوب الثورة الفرنسية والثانى زارها في عهد حكومة الادارة ولنقرأ ما سجله سوينى « لابد من غزو مصر للاستفادة من ثرواتها ، فضلا عن ان بريطانيا استأثرت بالهند واصبحت ممتلكاتها فريسة في يدها ، فمن الأفضل لفرنسا ان

(٧٤) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٧٥) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٣٣٥ .

(٧٦) Roux : Op. Cit., P. 272.

(٧٧) فاروق ابازة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ،

١٨٣٩ - ١٩١٨ ، القاهرة ١٩٨٧ ص ٨٠ .

تستولى على مصر ، فهي تقع على ساحل افريقيا ، وتعتبر همزة الوصل بين آسيا وأوروبا ، ومن الممكن أن تكون مركزا لتجارة العالم لو استولت عليها فرنسا ، فمصر هي مهد العلوم والفنون وسوف تنتعش تجارتها مما يتيح لفرنسا أن تكون أكثر دول العالم ثراء بسبب التجارة » (٧٨) .

أما أوليفيه فقد كتب « مصر هي الانحطاط والجهل والبؤس والطفيلان ، انها تنحني دائما أمام أقدام الأجانب ، طوال تاريخها ، وذلك بسبب موقعها الجغرافي وأراضيها الخصيبة ولا نستطيع أن نعدد الغزوات التي تعرضت لها مصر ، وهي من السهل غزوها » (٧٩) ، كذلك دعا أوليفيه لانفصال مصر عن الباب العالي لأن ذلك « سيؤدي الى استقرار الفرنسيين وتجارتهم ولا سيما ان الممالك لا يكفون عن التطاحن ، والحكومة العثمانية عاجزة عن القضاء على سلالة العبيد الآسيوية بسبب انتشار الفوضى ولا بد من غزو مصر لاعادتها الى عظمتها والافادة من طريق البحر الأحمر ، وفتح الموانئ للملاحة مع الهند ولا بد وأن يعود للاسكندرية مكانتها السابقة » وعدد أوليفيه الفوائد التي سوف تعود على فرنسا من الغزو « ستصبح مصر أغنى دولة في العالم وفي نفس الوقت سيضعف الغزو مجدا عسكريا لفرنسا » (٨٠) . « وينبغي علينا الا ننتظر سقوط الدولة العثمانية لتكون مصر من نصيبنا ان الغزو سيتيح لنا الحصول على المنتجات الفارسية والصينية والحشيشة » « لا بد من جيش

Sonnini, C. : Voyage en Egypte Paris 1793 + 1 P. 265. (٧٨)

Olivier, G. : Voyage dans l'empire ottoman L' Egypte et La Perse + 3 P. 178. (٧٩)

Ibid PP. 220 — 233.

(٨٠)

من العلماء والعسكريين ليصاحبوا الحملة المعدة لاحتلال مصر «
» وسوف ينظر الينا الشعب المصرى على اننا محرروه « » ان
سكان مصر اصابوا بالعمى ولا يعرفون مصالحهم الحقيقية وانه
من مصالحهم ابعاد سلالة المماليك الذين جلبوا عليهم العار ،
لابد من احلال أمة جديدة حرة تفتح ابوابها أمام التجارة وتعمل
على تطوير الصناعة ، يجب الا نترك مصر غارقة في يد
البرابرة « (٨١) .

نلاحظ مما كتبه الرحالة الفرنسيون تركيزهم على مصالح
فرنسا التجارية والفوائد التى ستعود عليها من جراء غزو مصر ،
ولكنهم حرصوا على ان يحيطوا اطماعهم بهالة من المبادئ
الانسانية مثل انقاذ شعب مصر من « الطفلة المماليك » وادخال
المدنية الحديثة فى البلاد . ولاشك ان هذه المبادئ ما كانت تذكر
الا لخدمة اهدافهم السياسية ولا ننسى ان القرن الثامن عشر هو
عصر ظهور الحركة الفكرية فى فرنسا وما استتبع ذلك من نشر
الأفكار الحرة فنادى المفكرون بأن فرنسا عليها التزام حضارى
ازاء الشعوب المتخلفة ، ولكن فى حقيقة الأمر ان فرنسا ارادت
بعد هزيمتها المريرة فى حرب السنوات السبع وانتزاع ممتلكاتها
فى الهند واستبعاد نفوذها من كندا وأمريكا الشمالية أن تعوض
ما فقدته وقد وجدت فرنسا بالفعل البديل عن الهند فسعت فى
أعقاب حرب السنوات السبع فى تكوين امبراطورية استعمارية
كبيرة فى الهند الصينية (٨٢) ، كذلك سعت للبحث عن أماكن
جديدة تعوضها عما فقدته فى أمريكا ولاشك ان مصر بحكم موقعها

Ibid. PP. 316 — 318.

(٨١)

(٨٢) انظر بحث د. الهام ذهنى : فرنسا والهند الصينية ، مجلة كلية

الدراسات الانسانية ، العدد السابع ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

الجغرافى كانت تصلح خير قاعدة لانطلاق النفوذ الفرنسى فى آسيا وافريقيا وتذكرنا هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع وما اعقب ذلك من رغبة ملحة لدى الساسة والمفكرين لبناء امبراطوريات استعمارية جديدة بما حدث لفرنسا بعد ذلك فى فترة متأخرة فى القرن التاسع عشر عندما منيت بهزيمة فادحة من قبل المانيا وفقدت الالزاس واللورين فجند الساسة الفرنسيون طاقتهم لصرف أنظار الشعب الفرنسى عن هذه الهزيمة بالتوسع فيما وراء البحار وتكوين امبراطوريات استعمارية فرنسية وان كانت النزعة الاستعمارية قد ظهرت بصورة أوضح فى القرن التاسع عشر .

ولاشك ان تقارير القناصل الفرنسيين وكتابات الرحالة قد أسهمت بدور كبير فى تأكيد فكرة غزو مصر ولكن ينبغى الا ننكر ان ضعف أحوال مصر الداخلية كان من أهم العوامل التى ساعدت على اتمام هذه الفكرة فقد شهد القرن الثامن عشر ضعف السلطة المركزية ، وانتشار المنازعات بين المماليك بعضهم وبعض وبين الأوجاقات مما أدى الى انتشار المذابح فى الشوارع . مما شجع البدو على الاغارة على القوافل التجارية (٨٣) ، كذلك ساعدت الأحوال الاقتصادية السيئة على تأكيد فكرة الاستيلاء على مصر خاصة بعد تدهور الصناعة والزراعة والتجارة واهمال الجسور والترع وتقلص مساحة الأراضى الزراعية والقحط بسبب انخفاض مياه الفيضان . وعبر المؤرخ المصرى الجبرتى عن تدهور الأحوال الاقتصادية اصدق تعبير « لا يجد الزبال شيئاً يكتسه فى مصر » (٨٤) .

(٨٣) احمد الحنة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ،

القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٣ .

(٨٤) جلال يحيى : المرجع السابق ، ص ٣١٥ - ص ٣١٨ .

وأخيرا في عهد حكومة الادارة تقرر غزو مصر ولاشك أن كتابات تاليران أكدت كلها أهمية مصر لأنها « سوف تحل محل جزر الانتيل ونحولها الى مستعمرة فرنسية » كما أن الأدميرال روزيلي قدم عدة خرائط بحرية الى مونج مفتش العلوم والفنون في ايطاليا عن مصر ، كذلك قدم عدة تقارير عن أوضاع البلاد الاقتصادية ، اصف الى ذلك مذكرات تروجيه عن مصر ورسائل ماجالون وكتابات غيرهم من القناصل والرحالة الفرنسيين تم تجميع كل هذه التقارير في دوسيه كامل عن مصر وضعها مونج أمامه وعرضت على نابليون بصفته القائد الموكل اليه مهمة الغزو (٨٥) .

الفصل الثاني

تعريف بالرحالة والقناصل الفرنسيين

تعريف بالرحالة الفرنسيين

تزايد شغف الفرنسيين تجاه الشرق منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر وحرص الرحالة الفرنسيون على تعريف أبناء بلدهم بامبراطوريات الشرق العظيمة في ذلك الوقت ، خاصة الامبراطورية العثمانية ، والفارسية والصينية والهندية ، وجاء الاهتمام بمصر خلال هذه الفترة باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية . وجاءت كتابات هؤلاء الرحالة عن الشرق ومصر بعد انقطاع طويل عن هذه المناطق فتم تداول كتاباتهم من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة واستقبل الفرنسيون هذه الكتابات بشغف وحماس شديد .

ويلاحظ ان الرحالة الفرنسيين قد تنوعت وظائفهم في تلك الفترة فمنهم رجال الدين المسيحي مثل جريفان افاجار Greffin Affagart ، وفيلامون Villamont ، وكوبان Coppin ومنهم الساسة والسفراء مثل جان تينو Jean Thenaud وشسنو ودي بريف وفرمنال ، ومنهم الطبيب والفيزيائي والجغرافي مثل بيلون وموتكوني وتيفيسه

Thevet . وقد اقتصر وصف هؤلاء الرحالة على مدن مصر السفلى وأهم المزارات المسيحية فيها ولم يحاولوا التعمق في صعيد مصر أما لقصر الفترة التي قضاوها في مصر أو لعدم معرفتهم ودرايتهم بمدن الوجه القبلي وخوفهم من التجول في مناطق مجهولة بالنسبة لهم ، كذلك كان لابد من حصولهم على إذن من السلطات لكي يتمكنوا من زيارة هذه الأماكن .

ويمكن القول أن كتابات هؤلاء الرحالة قد حوت العديد من المبالغات ، كذلك نقل البعض منهم ملاحظات وآراء استرابطون وهيرودوت كما اتسمت كتاباتهم بالسرعة فحباءت في صورة جمل قصيرة وعبارات جافة (٨٦) .

وإذا كانت مصر العليا قد ظلت مجهولة بالنسبة لرحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، إلا أن رحالة القرن الثامن عشر عملوا على كشف هذا الغموض فتوغلوا في صعيد مصر وساعدتهم على ذلك أن الحكومة الفرنسية شجعت مثل هذه الرحلات خاصة في عهد لويس الخامس عشر ويمكننا القول أن الاهتمام بالشرق قد تزايد في القرن الثامن عشر وذلك لرغبة فرنسا في التوسع الاستعماري ونشر مذهبها الكاثوليكي بواسطة بعثاتها التنصيرية التي تدفقت على الشرق خلال هذا القرن . ويتضح لنا مدى هذا الاهتمام في انكبات المستشرقين على ترجمة المؤلفات بالعربية فجددت ترجمة القرآن الكريم (٨٧) في خلال

(٨٦) الهام ذهني : المرجع السابق ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .

(٨٧) ظهرت عدة مؤلفات عربية منذ القرن ١٦ فقد أمر البابا جوليوس الثاني بتأسيس مطبعة عربية نشرت أول كتاب باللغة العربية وهو كتاب صلاة سوامي عام ١٥١٤ م ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوة حيث نشر

أعوام ١٦٩٨ - ١٧٨٣ ، كما ظهرت بعض الدراسات عن تاريخ العرب نخص منها ماشره الكونت بولينفيل Boulainvillies (٨٨) عام ١٧٣١ م ، كذلك ظهرت عدة كتب ودراسات تناولت حياة الرسول منذ مولده وحتى وفاته (٨٩) .

وجدير بالذكر ان آراء الأوروبيين اختلفت تجاه الدين الاسلامي وشهد القرن الثامن عشر جدالا كبيرا حول هذا الموضوع فعقدوا الممارنات بين الديانتين الاسلاميه والمسيحية ، واتسمت معظم الكتابات عن الدين الاسلامي بالتعصب والحقد الشديد خاصة من قبل بعض المفكرين امثال فولتير الذي نشر كتابا في عام ١٧٤٢ م باسم

Remarques sur L'essai sur Les Moeurs

شن فيه هجوما عنيفا على الاسلام ، بينما نجد فريقا آخر اعجب بالدين الاسلامي اعجابا شديدا وبنعاليه السمحة ، ولكن رغم هذا الاعجاب الا انهم لم يعترفوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلا وعلى رأس هذا الفريق ديبرو الذي اكتفى بالاشارة بالرسول الكريم (٩٠) . وانعكس الاهتمام بالشرق على الحياة

عام ١٥١٦ م سفر الزابور باربع لغات ثم انتقلت الى البندقية وطبع القرآن الكريم ١٥٣٠ م وفي عام ١٥٨٤ م طبع في مطبعة الابداء اليسوعيين في روما كتاب « البستان في عجائب الارض والبلدان » وكتاب مبادئ اللغة العربية وكتاب الادريس ١٥٩٢ م « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق » اما المطبعة الملكية ببباريس فطبع بها اول كتاب وهو منامة النحوي لجبرائيل الصهيوني .

L'histoire des Arabes.

(٨٨)

Carré, Jean : Voyageurs et écrivains Français

(٨٩)

en Égypte. Le Caire 1922 + 1 P. 41.

Ibid P. 41.

(٩٠)

الأوروبية في فرنسا فاستوحى الكتاب الفرنسيون الأفكار والقصص منه خاصة ألف ليلة وليلة والتي قام لأكرو بترجمتها (٩١) .

ويمكننا القول ان الشرق بأكمله بديانته وحضارته وآدابه جذب انتباه فرنسا فظهرت العديد من الدراسات عن الامبراطورية العثمانية وكذلك ظهرت دراسات أيضا عن الهند وخصص للامبراطورية الصينية موسوعة ضخمة (٩٢) طبعت في عام ١٧٧٦ م ، ولاشك ان البعثات التنصيرية لعبت دورا كبيرا في تعريف القارئ الفرنسي بالشرق خاصة وانها تمتعت بحماية ملوك فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر . وكان هدفها الرئيسي نشر الكاثوليكية في الشرق (٩٣) .

ويمكننا القول ان الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر قد أفادوا من كتابات من سبقوهم عن مصر وأضافوا عليها ، فجاءت كتاباتهم أعمق وأدق ، فقدّموا وصفا شاملا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر وقد أفاد علماء الحملة الفرنسية من كتابات هؤلاء الرحالة عندما أخرجوا مؤلفهم العظيم « وصف مصر » وقد أوضح فيفيان دنيون المرافق للحملة هذه الحقيقة فذكر انه « لولا كتابات هؤلاء الرحالة لما تمكنا من الكتابة عن مصر ودراستها الدراسة المستفيضة » وعند اطلاعنا على وصف مصر سنجد اشارات الى هؤلاء الرحالة وكتاباتهم بل ان علماء الحملة أشاروا في كثير من المواضع الى صحة المعلومات التي أوردها رحالة القرن الثامن عشر ويكفي ان نعرف ان كتابا

Petits La Croix.

(٩١)

Mémoires concernant L'histoire, Les sciences, Les

(٩٢)

Arts, Les Moeurs et Les usages des chinois par Les Missionnaires De Pekin.

Carré : Op. Cit. P. 41.

(٩٣)

طبع تحت اسم « وصف مصر » قبل مجيء الحملة الفرنسية بأكثر من ستمين عاما وكان مؤلفه هو القنصل الفرنسي بينو دي ميليه الذي انشأ من تواجده في مصر فتجول في مدنها واصفا أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وصفا دقيقا (٩٤) .

إذا استعرضنا أسماء الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر سنجد على رأس هؤلاء الطبيب الفرنسي شارل جاك بونسيه Charles Poncet وكان مقيما في القاهرة بالفعل منذ أواخر القرن السابع عشر وقد كلف من قبل القنصل الفرنسي بينو دي ميليه Benoit De Maillet بالسفر إلى الحبشة لإقامة علاقات تجارية بين فرنسا والحبشة ، كذلك العمل على نشر المذهب الكاثوليكي وتحقيق آمال ومشروعات اليسوعيين (الجزويت) فيها (٩٥) . وقد سئحت الظروف للقنصل الفرنسي لأرسال بعثة بونسيه عندما طلب ملك الحبشة من الحاج علي رئيس قافلة تجارة القاهرة إرسال طبيب فرنسي من مصر لمعالجته من الجدام (٩٦) . وفي عام ١٦٩٨ م توجه بونسيه بصحبة أحد اليسوعيين ويدعى بريدفان Brédevant إلى الحبشة فتوغلا في مدن مصر العليا حيث مكثا فيها ثلاثة أشهر ومنها اتجبا إلى السودان ثم الحبشة وفي جوندار توفي بريدفان عام ١٦٩٩ م فواصل بونسيه رحلته حيث قابل ملك الحبشة واقنعه بإرسال بعثة حبشية إلى باريس ، وقد سافرت البعثة بالفعل بصحبة بونسيه إلى باريس في عام ١٧٠٣ م ولكن القنصل

(٩٤) الهام لعنى : المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٩٥) كلف الأب فانولييه بهذه المهمة في القرن السابع عشر ولكنه لم

يتمكن من إتمامها

Carré : Op. Cit., P. 42.

(٩٦)

Clément : Op. Cit., P. 100.

(٩٧)

الفرنسي ميليه أرسل يشكك الملك لويس الرابع عشر في نوايا البعثة ولذلك أمر الملك بإعادة البعثة إلى القاهرة دون مكافأة بونسيه ودون أن يحقق أية نتائج تذكر وقد أكد هذه الحقيقة القنصل الفرنسي لى مير في عام ١٧٠٧ م عندما أرسل إلى وزير البحرية بونشرتزان يخبره « إلى الرسائل التي وجدت مع بونسيه والموجهة من ملك الحبشة إلى الملك لويس الرابع عشر إنما هي رسائل مزيفة » (٩٧) .

ورغم أن بعثة بونسيه كان هدفها الرئيسي الاتصال بملك الحبشة وإقامة علاقات تجارية بين البلدين ، إلا أن أهميتها ترجع إلى أنه كان من طلائع الفرنسيين الذين تعمقوا وتوغلوا في مصر العليا حيث مكث فيها ثلاثة أشهر ووصل إلى مناطق في جنوب مصر لم يصل إليها فرنسي من قبل خاصة وأن بونسيه حرص على تسجيل رحلته (٩٨) التي قام بها (٩٩) .

و-جدير بالذكر أن بعثة بونسيه إلى ملك الحبشة لم تكن الأولى وإنما سبقتها بعثة الأب فرزيان Verzean عام ١٦٩٧ م وكان من اليسوعيين ، أراد نشر المذهب الكاثوليكي وقد أوضح هذه الحقيقة في كتاباته إلى غرفة التجارة بمارسيليا حيث ذكر « الملك أمرني أن أقيم المنشآت في القاهرة لأسهل الخطوط التي يجب تنفيذها في بلاد بريدة » الحبشة « من أجل نشر المسيحية » . وقد طلب الوزير الفرنسي بونشرتزان من ميليه القنصل الفرنسي في القاهرة ضرورة كتابة التقارير عن بعثة فرزيان والتي لم يقدر لها النجاح وذلك بسبب مقاومة رجال

Relation abrégée des voyages que M. Ch. J. Poncelet fit (٩٨)
en Ethiopie en 1698 — 1699 — 1700.

Clement : Op. Cit., P. 93.

(٩٩)

الدين في الحبشة للبعثات اليسوعية وتمسكهم الشديد بالمذهب الأرثوذكسى ، أضف الى ذلك مقاومة بعثات الفرنسيين للبعثات اليسوعية في مصر خاصة وأن السلطات المصرية قد سمحت لهم بإقامة مستشفى في أخميم وكانت في حقيقة الأمر بمثابة محطة للفرنسيين الى الحبشة وقد أوضح القنصل الفرنسي في القاهرة لحكومة بلاده « صعوبة التواجد في الحبشة ، وإرسال بعثات يسوعية فيها » وأنه يجب أن يقتصر الاتصال بالحبشة على التجارة فقط وبذلك لم تحقق بعثة فريزيان أية نتائج واضحة (١٠٠) .

٢ - وتبع بعثة بونسييه الى الحبشة بعثة أخرى ثانية قام بها لي نوار لي رول Le Noir Le Roule وكان يعمل نائبا للقنصل الفرنسي في طرابلس ثم عمل في دمياط عام ١٧٠١ م ، وقد كلفته الحكومة الفرنسية بالاتصال بالحبشة لإقامة علاقات بين البلدين وفتح أسواق لتصريف المنتجات الفرنسية الصناعية فيها الى جانب نشر المذهب الكاثوليكي كما كلف بجمع المعلومات عن الاستعدادات العسكرية للحبشة (١٠١) . وقد سافر لي نوار قاصدا الحبشة بصحبة الطبيب الفرنسي ليبى Lippi في عام ١٧٠٤ م واتجها في قافلة مؤلفة من ستين جملا الى أسبوط ومنها الى الواحات الخارجة ثم الشلال الثاني جنوب وادي حلفا وعبرا النهر الى دنقلة ومنها الى كورتى ومروى وفي عام ١٧٠٥ م وصلت البعثة الى سنار (١٠٢) . حيث تم إبادة جميع أفرادها

Ibid. PP. 93 — 95.

(١٠٠)

(١٠١) الشاطر بصلي عبد الجليل : معالم تاريخ السودان وادي النيل

من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٥٥ م ص ٨٥ .

Carré : Op. Cit., P. 43.

(١٠٢)

وبتحرير من بعثات الفرنسيين التنصيرية العاملة في الحبشة والتي حرص أفرادها على الدس لدى حكام سنار ضد بعثة لى رول فأشاعوا ان البعثة سوف تعمل على تحويل مجرى نهر النيل الأزرق وسوف تقوم بتحرير النجاشي على احتلال سواكن ومصوع ومن سوء طالع البعثة ان الفيضان في عام ١٧٠٥ م جاء منخفضا فراجت فكرة تحويل النيل وتم الانتقام من دى رول وبعثته وأخذ القنصل الفرنسي ميليه يتخبط في اتهاماته لمقتل رجال البعثة فمرة يقول ان النجاشي حرض سلطان سنار ومرة يطلب من عمر باشا سواكن وعزل سلطان سنار (١٠٣).

والواقع ان البعثات التنصيرية الفرنسية خاصة اليسوعية قد واجهت مصاعب عنيفة من اجل نشر مذهبها في الحبشة وذلك لتمسك الأحباش بمذهبهم الأرثوذكسي كذلك لتواجد البعثات الإيطالية خاصة الفرنسيين في الحبشة منذ فترة طويلة فاعتبرونا أنفسهم أحق من الفرنسيين في مجال التنصير لأنهم سبقوهم في دخول الحبشة والاقامة فيها وقد أوضح لى رول قبل مقتله تلك الحقيقة فكتب الى الوزير بونشتران يوضح له صعوبة العمل في الحبشة فكتب « ان مسألة التنصير اليسوعي في الحبشة أمر شائك مظلم مثل قصر التيه (١٠٤) . وهكذا كان الفرنسيون هم أول من وصل الى هذه المناطق البعيدة حتى اكتشفها البريطاني بروس Bruce ومن بعده فردريك كايو Frederic Caillaud ثم تيبو Thibaut وفاسيير Vassière وأرنوبك Arnaud-bey وسباتيه Sebatier (١٠٥) .

(١٠٣) الشاطر بصلي : المرجع السابق من ٨٧ ، ٨٨ .
Clement : Op. Cit., P. 99. (١٠٤)
Carré : Op. Cit., P. 43. (١٠٥)

رغم اننا تحدثنا عن بعثتى بونسييه ولى نوار لى رول
الا اننا نعتبر ان البداية الحقيقية لتوافد الرحالة الفرنسيين على
مصر تبدأ بمجيء بول لوكا وذلك لأن البعثتين السابقتين كانت
وجهتها الرئيسية هي الحبشة كما أسلفنا .

٣ - تعتبر رحلة بول لوكا Paul Lucas الى مصر من
أهم الرحلات التي تمت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ،
وقد ولد بول لوكا في روان عام ١٦٤٤ م ، وشغف بدراسة
الآثار ولقب « بأثرى لويس الرابع عشر » وكلفه الوزير بوتشرتران
بالسفر الى الشرق « البحث عن النباتات غير الموجودة في فرنسا ،
والبحث عن الأحجار الكريمة » وقام لوكا بعدة رحلات الى
الشرق ، ففي عام ١٧٠٠ م زار مصر وسورية وفارس وفي الفترة
ما بين عام ١٧٠٤ م وعام ١٧٠٨ م زار اليونان وآسيا الصغرى
وأفريقيا ثم قام بعدة رحلات الى آسيا والدولة العثمانية
وسورية وفلسطين ومصر في الفترة ما بين ١٧١٤ - ١٧١٩ م .
وقد سجل لوكا رحلاته ودونها في مذكرات ثم طبعها في عام ١٧٧٢م
باسم Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant . استعان
بول لوكا بأعضاء أكاديمية المخطوطات وعلماء الآثار (١٠٦) . في
تفسير العديد من المخطوطات والنقوش التي أحضرها معه من
مصر (١٠٧) .

سجل لوكا رحلته في مصر خاصة مدن مصر العليا والتي
اتيح له التجول فيها بحرية بفضل المساعدات القيمة التي قدمها
له لى مير القنصل الفرنسى في القاهرة والأموال التي حصل
عليها من غرفة مارسيليا ، وخطابات التوصية التي أمدّه بها

(١٠٦) من أشهر هؤلاء العلماء في تلك الفترة
Fourmont-Bandot — Banier

Clement : Op. Cit., P. 108.

(١٠٧)

ابراهيم بك من كبار ضباط الأوجاق في القاهرة الى زعماء القبائل للسباح له بحرية التجول في صعيد مصر وقد ادعى لوكا انه يعمل طبيباً وأنه يبحث عن الأعشاب الطبية وعلل ذلك في كتابه « لان الأهالي يعتقدون ان الفرنسيين يقدون على بلادهم لانتزاع ثرواتهم وهم يدركون ان بلادهم مليئة بالكنوز وان ملوك مصر القديمة اخفوا ثرواتهم وان الأجانب يستخدمون السحر لاستخلاص هذه الكنوز » (١٠٨) .

اعتمد بول لوكا عند وصفه مصر على كتابات وملاحظات هيرودوت واسترابون كذلك على ما دونه الرحالة الفرنسيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر فاقتبس نفس ملاحظاتهم خاصة ملاحظات تيفنو فيما يتعلق بوصفه لآثار كليوباترة والشجر الذي يعتقد ان راس سانت كاترين قطعت عليه في الاسكندرية . كذلك استعار ملاحظات من سبقوه عند وصف الأهرام في الجيزة . ولجأ بول لوكا الى المبالغة في كثير من ملاحظاته التي سجلها مثل تأكيدات بوجود « فتيات هوى » في ملهطا وهو أمر يتنافى مع تقاليد وعادات المجتمع المصري في ذلك الوقت (١٠٩) . اصف الى ذلك ملاحظات خيالية تعتمد كتابتها وتأكيدهما ربما بدافع اثاره انتباه القارئ الفرنسي وتشويقه مثل « وجود شعبان مسحور في اخميم يتم سلخ جلد فينمو في الحال » كذلك وجود أسماك في نيل مصر « متعلشة دائما للحم البشري » « تهاجم المستحمين » كما يلاحظ في كتابات لوكا عدة اخطاء في تحديد مواقع المدن مثل مدينة الأقصر (١١٠) .

Lucas, P : Voyage du Sieur Lucas au Levant Rouen (١٠٨)

1772 + 1 P. 20.

Carré : Op. Cit., PP. 44 — 45. (١٠٩)

Ibid. P. 46. (١١٠)

ويمكننا القول اننا لا نستطيع أن نعتمد على كتابات بول لوكا كمرشد صادق أمين ولكن لابد من قراءة ما سجله لأنه أول من شاهد آثار مصر العليا وأول من رسمها وهو من الرواد الذين توغلوا في صعيد مصر ولذلك حققت كتاباته رغم ما فيها من مبالغات نجاحا كبيرا (١١١) . أضف الى ذلك الآثار الهامة (١١٢) . التي أحضرها معه الى فرنسا (١١٣) .

٤ - الأب كلود سيكار Claude Sicard (١٦٧٧ - ١٧٢٦) عمل أستاذا للدراسات الانسانية في ليون ثم جاء الى الشرق على رأس بعثة دينية وفي سورية تعلم عدة لغات منها العربية واليونانية والسريانية والعبرية ثم جاء الى القاهرة في عام ١٧٠٧ م ومكث في مصر عشرين عاما حيث توفي عام ١٧١٦ م من جراء الطاعون (١١٤) .

كان الغرض الأساسي لبعثة سيكار هو تحويل « الأقباط - الجهلة الى المذهب اليسوعي بدلا من المذهب الأوثوذكسي » على حد قوله والتعرف على العادات والتقاليد في البلاد والاتصال بالكنيسة القبطية أي أن بعثة سيكار كانت بعثة دينية هدفها نشر

Ibid. P. 46.

(١١١)

(١١٢) أحضر بول لوكا الى الاكاديمية الفرنسية العديد من الميداليات منها ٨ ميداليات ذهبية خاصة بملوك الاغريق و ١٥ ميدالية فضية خاصة بفليب المقدوني و ١٥ ميدالية فضية خاصة بالاسكندر و ١٨ ميدالية فضية لعصر فليب وأعداد كبيرة من الميداليات البرونزية وأحجار مختلفة النقوش و ٢٥ مخطوطا باللغة العربية واليونانية والتركية .

Lucas : Op. Cit., P. 20.

(١١٣)

Carré : Op. Cit., P. 48.

(١١٤)

المذهب اليسوعي ولكنها لم تكن لها صفة رسمية أى أنه لم يكن مكلفا من قبل ملك فرنسا رسميا (١١٥) .

والواقع ان ما دونه سيكار عن مصر ظل مخطوطا لم يطبع ولكننا استطعنا التعرف على أعمال ضمن رسائله الى جمعية اليسوعيين والتي تحدث فيها عن مصر ، فكانت هذه الرسائل هي المصدر الرئيسى لرحلات سيكار وقد وجه مجموعة رسائله الى الكونت تولوز Comte de Toulouse م ١٧١٦ م شرح فيها الرحلات التي قام بها خلال عامي ١٧١٢ - ١٧١٤ م أما رحلته الى الدلتا والشلالات فخصص لها رسالة منفردة كذلك وجه اهداء رحلته الى سيناء الى الأب فلريو Fleuriau أحد رجال الدين ، وحرص سيكار على تزويد رسائله بالخرائط عن مصر وآثارها وعززها بخريطة للآثار المصرية ما زالت في المكتبة الوطنية بباريس (١١٦) .

كان من الطبيعي أن يبدأ الأب سيكار بزيارة المزارات المسيحية في مصر ولذلك ركز رحلاته على الكهوف والأديرة القبطية فزار دير وادى النطرون ومكث مع الرهبان حوالى خمسين يوما قرأ خلالها مؤلفاتهم التي أطلق عليها « أساطير القديسين الأقباط » وتعتمد في كتاباته السخرية من الكنيسة القبطية فالمدح الأرثوذكسى على حد قوله « يحوى الكثير من الخرافات » والأقباط في نظره « جهلة » ويمكن تعليل ذلك ان سيكار كان مكلفا بمهمة محددة الا وهى نشر المذهب اليسوعي

Sicard, Claude : Nouveaux Mémoires des missions (١١٥)

de La Compagnie de Jésus dans Le Levant. Paris 1723 + 1 P. 6.

Carré : Op. Cit., P. 49.

(١١٦)

وقد فشل كغيره في هذه المهمة نظرا لتمسك اقباط مصر بمذهبهم ،
ولذلك نجد أن الأوصاف التي أطلقت على الأقباط والرهبان من
قبل رحالة القرن الثامن عشر كانت كلها متشابهة تدور حول
الجهل والخرافة حتى علماء الحملة الفرنسية اقتبسوا واستعاروا
كثيرا من مصطلحات هؤلاء الرحالة عند حديثهم عن الأقباط .

اهتم الأب سيكار بزيارة دير سانت بول القريب من البحر
الأحمر ووصف رهبانه « ان عقولهم فارغة » ولكنه أبدى إعجابه
بما وجد في الدير « من مخطوطات جميلة وكتب قيمة » كذلك
وصف مكتبة دير سانت كاترين « بأنها عامرة بالكتب القيمة
والمخطوطات السريانية واليونانية والروسية والعربية ولكن يلزمها
التنسيق فهي مهملة والفوضى تدب في كل مكان » (١١٧) .

اهتم الأب سيكار بزيارة الكهوف القبطية خاصة كهوف
مصر الوسطى والعليا حتى وصل الأشمونيين فكان أول فرنسي
يصل الى هذه المنطقة وسرعان ما جذبت الحضارة المصرية القديمة
انتباه سيكار فبدأ في البحث عن الموميات وزيارة الآثار القديمة
فوصل في تجواله الى مناطق لم يصل اليها أوروبي من قبل وهي
مناطق وصل اليها فيما بعد علماء الحملة الفرنسية خاصة
فيفان دينون Vivant Denon فقد نجح سيكار في التوغل
في مصر العليا . وكتب عن آثارها خاصة معبد آمون ، الكرنك ،
تمثال ممنون وكان أول أوروبي يصل الى الأقصر قبل غيره من
الرحالة حتى قبل وصول الرحالة البريطاني الشهير
بوكوك Pocoke وقد نجح سيكار في الوصول الى النوبة ويبدو
أن الأهالي لم يحسنوا استقباله « وهددوه برماحهم » على حد

تعبيره « فعرض عليهم الهدايا من الطباقي فسمحوا له بالتجول في منطقة الشلالات فوصل جزيرة فيلة (١١٨) .

ويمكن القول ان سيكار بدأ رحلته من أجل هدف تنصيري لتحويل الأقباط الأرثوذكس الى الكاثوليكية ولكنه سرعان ما جذبته الحضارة المصرية القديمة ففاص في جنوب مصر مشاهدا متأملا حتى بلغ حصيلة ما زاره ٢٥ معبدا و ٥ كهفا ووصف ١٨ مسلة و ٢٠ هرما كبيرا و ٨٠ ديرا فكان أول فرنسي يكتشف آثار مصر العليا قبل وصول الحملة الفرنسية وهو أول من أعطى وصفا علميا دقيقا لما شاهده (١١٩) .

٥ - الطبيب جرانجيه Granger : ولد في ديجون ودرس الجراحة وذاعت شهرته في مارسيليا وطولون ، في عام ١٧٢١ م سافر الى تونس حيث عمل جراحا في مستشفى رجال الدين الأسبان والتقى بعد عودته الى باريس بالقنصل الفرنسي بينون Pignon الذي عرض عليه السفر الى القاهرة . وزار مصر عام ١٧٣٠ م ثم عاد الى فرنسا ومنها سافر الى اليونان وفي عام ١٧٣٤ م عاد الى مصر مرة ثانية ولكن في هذه المرة كان مكلفا بمهمة رسمية من قبل ملك فرنسا الا وهي « البحث عما يخدم التاريخ الطبيعى » وبعد زيارته لمصر واصل رحلاته الى فلسطين وفارس والبصرة حيث توفي فيها عام ١٧٣٨ م (١٢٠) .

نشرت رحلات جرانجيه عام ١٧٤٥ م ولكنها كتبت بأسلوب

Carré : Op. Cit., P. 48.

(١١٨)

Ibid, P. 48.

(١١٩)

Clement : Op. Cit., P. 185.

(١٢٠)

غير أدبى ، زار جرانجيه فى رحلته الأولى الى مصر الأديرة القبطية وتوغل فى مدن مصر العليا فوصل الى أخميم ثم أكمل رحلته الى العرابة المدفونة فى ابيدوس وكتب عن الكرنك فوصفها « انها أجمل معابد العالم » كذلك زار أديرة البحر الأحمر ودير سانت انطوان وسانت بول كما زار الكهوف القبطية وأديره الكابوسين .

لم تقتصر جولات جرانجيه على مدن مصر العليا فحسب وإنما زار مدن مصر السفلى ولذلك فهو يعتبر من الرحالة الذين جابوا مدن مصر كلها وحرص على تقديم وصف لها وان كان هذا الوصف يتسم بالسرعة . وترجع أهمية مؤلفه (١٢١) . انه خصص الفصول الأخيرة لتقديم دراسة عامة عن مصر وعن السلطات الحاكمة (١٢٢) .

٦ - الأب دورفال D'Orvalle زار مصر فى عام ١٧٤٧ م وكان الغرض الرئيسى من رحلته هو الحصول على المخطوطات العربية ، وفى التشجيع والمساعدة من الكاردينال روشفوكول Rouchefoucauld المشرف على الفاتيكان ، وكذلك مداه القنصل الفرنسى فى القاهرة يد المساعدة بحكم اتصالاته ونفوذه وسهل له مقابلة كبار علماء الأزهر والتعرف بهم . وقد نجح الأب دورفال بالفعل فى الحصول على عدة مخطوطات من الأزهر الشريف ونجح فى عقد الصداقات مع شيوخ الأزهر فأشاد بهم وبأخلاقهم الكريمة وكتب عنهم « هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة ولديهم أعظم الأبناء (يقصد التلاميذ) فى العالم ولا أدري اذا كانت

Granger, Le Sieur : Relation du Voyage fait en (١٢١)

Egypte par Le Sieur Granger de L'année 1730. Paris 1765.

Carré : Op. Cit., P. 55.

(١٢٢)

هذه الخصال بسبب غزارة علمهم ومعارفهم ، وهم يمتازون بالجد والاستقامة » » ومكتبة الأزهر معروفة لدى كل علماء المسلمين يدرسون فيها ، وهى تحوى العديد من الكتب الشهينة فى الشرق وفى آسيا » وذكر دورفال انه علم بوجود قائمة بها اسماء مائة من علماء الأزهر فطلب الاذن والسماح له بطبعها (١٢٣) .

ويعتبر الأب دورفال من القلائل الذين أثنوا على علماء الأزهر فأوفاهم حقهم من التكريم والتبجيل لأن كتابات غيره من الرحالة اتسمت بالتعصب الى حد كبير ويمكننا القول أن الغرض الرئيسى من رحلة دورفال كان الحصول على المخطوطات العربية ولذلك ركز اهتمامه فيما حضر من أجله .

٧ - الراهب كلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont

انتمى هذا الراهب لأسرة اهتمت بالآثار الشرقية اهتماما كبيرا فنجد ان عمه ايتيان فورمون (١٦٨٣ - ١٧٤٥ م) كان مستشرقاً وعمل أستاذاً للغة العربية فى كلية فرنسا و ألف كتاباً عن الشعوب القديمة نشر عام ١٧٣٥ م (١٢٤) . أما شقيقه وهو ميشيل فورمون (١٦٩٠ - ١٧٤٦) فقد كانت له اهتماماته بالآثار القديمة خاصة الآثار الاغريقية القديمة قام بعدة رحلات الى اليونان والدولة العثمانية . أما رحالتنا الراهب كلود فورمون فقد زار مصر فى عام ١٧٤٧ م حيث مكث فى القاهرة لمدة أربعة أعوام ثم عاد الى مصر فى عام ١٧٥٤ م فزار مدن مصر العليا وقد قدم فورمون فى كتابه (١٢٥) . وصفاً للقاهرة تعدادها ، آثارها ،

Clement : Op. Cit., P. 189.

(١٢٣)

Reflexions Critiques sur Les histolres des Anciens

(١٢٤)

peuples jusqu'au temps de Crees.

Fourmont, claudé : Descriptions Historique et

(١٢٥)

Géographique des plaines D'Héliopjolis et de Memphis. Paris 1755.

المارستان المخصص للمجانين ، الوكالات ، الحمامات العامة
كذلك قدم وصفا للاضطرابات السياسية التي عانت منها مصر
خلال تلك الفترة ، وقدم وصفا عن تجارة مصر واقترح حفر
قناة تمتد من السويس حتى البحر المتوسط وقد أشاد فورمون
من اجادته للغة العربية واطلاعه على كتب المقریزی وابن دقماق
فنقل عنهم الكثير من المعلومات . كذلك أشاد فورمون بمكتبة
الأزهر وركز جهوده خلال فترة تواجده في مصر على شراء
المخطوطات لتزويد المكتبة الملكية في باريس وحرص فورمون عند
تأليف كتابه على تزويده بخريطة عن سهول منطقة منف
وعين شمس وهي خريطة طبوغرافية وفيها شرح جغرافي للأماكن
القديمة وقد أعجب فورمون بحضارة مصر اعجابا كبيرا نستدل
على ذلك مما كتبه « ان مصر قد ملأت العالم فخرا ومجدا
بحضاراتها وآثارها » (١٢٦) .

تميز النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى مجيء
الحملة الفرنسية بظهور كتابات علمية دقيقة عن مصر اطلق عليها
كاريه Carré « التحقيقات العلمية عن مصر » وكانت هذه
الكتابات هي نواة « المعهد العلمى المصرى » في عهد الحملة
الفرنسية ، ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر لم تعد مصر
مجهولة أو غامضة أو مأهولة بالمتوحشين والأفاعى السحرية
والحيوانات المتوحشة كما كان يظن لبعض الرحالة السابقين
وصفها مثل بول لوكا وإنما ازدادت المعرفة عنها ولذلك اتسمت
كتابات الرحالة في هذه الفترة بالدقة (١٢٧) .

٨ - كلود ايتيان سافارى Claude Etienne Savary

Ibid, PP. 23 — 54.

Carré : Op. Cit., P. 79.

(١٢٦)

(١٢٧)

ويعتبر سافارى (١٧٥٠ - ١٧٨٥ م) من أهم الرحالة الذين زاروا مصر فى تلك الفترة وقد درس سافارى فى كلية الراين وسافر الى مصر عام ١٧٧٧ م حيث مكث فيها ثلاث سنوات وقد مد له لى مونيه Le Monnier عضو الأكاديمية العلمية فى باريس يد المساعدة فى كتابة رحلاته التى طبعت بتوصية من شقيق الملك لويس الخامس فى عام ١٧٨٦ م (١٢٨) . وقد ساعد سافارى دراسته اللغة العربية والقرآن وقام فى عام ١٧٨٤ م بطبع كتاب عن شمائل محمد ١٧٨٤ م وله مؤلفات عن النحو العربى وقد طبع بعد وفاته فى عام ١٨١٣ م ويمكننا القول ان سافارى أعجب بالحضارة الاسلامية اعجابا كبيرا (١٢٩) .

ذكر سافارى انه قام برحلته عام ١٧٧٧ م وان الغرض منها كان تدوين ملاحظاته عن الامبراطوريات والديانات ووطنولات الشعوب والاتصال بالأتراك والعرب واليونانيين وقد اتسمت كتاباته بالرومانسية الشديدة فله روح شاعر وهو يعتبر نموذجا للشباب الفرنسى المثقف وساعدته نشأته على صبغ كتاباته بالصيغة الرومانسية لأنه نشأ فى مقاطعة بريتانى حيث يقطن النبلاء والاقطاعيون الذين يهتمون بتثقيف اولادهم وكانت المنطقة قديما مقرا للقبائل الكلتية الوثنية فشاعت فيها قصص الأساطير والسحرة (١٣٠) .

وترجع أهمية كتابات سافارى انه جاء الى مصر فى الوقت الذى استشرت فيها الفوضى وقبض المماليك على زمام الحكم

Savary, Claude : Lettres sur L'Egypte. Paris 1786 (١٢٨)

Carré : Op. Cit., P. 79. (١٢٩)

(١٣٠) ثروت عكاشة : مصر فى عيون الغرباء الرحالة والفنانين والادباء القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨١ م ج ١ ص ٨٧ .

وانتشرت المكائد والدسائس فيما بينهم واشتعلت الحروب الأهلية
مما مهد فيما بعد للحملة الفرنسية في نهاية القرن . وقد اهتم
سافارى بمناقشة الأوضاع السياسية في مصر كما اهتم بتقديم
وصف للمدن المصرية وقد امتاز وصفه بالرقّة وكأنه فنان يرسم
بريشته المناظر الجميلة التي شاهدها خاصة في مصر السفلى
« ان الدلتا حديقة كبيرة ارضها لا تكل عن العطاء » « ان انتاج
الدلتا يسر القلب والعين » « ان جمال الطبيعة في مصر تسر الناظر
اليها فلا بد للمريض ان يشفى عندما ينعم بأشعة الشمس » كذلك
عند وصفه لليالى الصيف القمرية يقترب في وصفه من الأديب
شنتو بريان « اسدل الليل ظلاله على الأرض ولكن الظل لا يخترق
الأرض وانما هو حجاب شفاف ان الليل في مصر له ألف سحر قلما
نجدّه في أوروبا » (١٣١) .

وضع سافارى مؤلفه في ثلاثة أجزاء خصص الأول عن مصر
السفلى وفيه ملاحظات عن قدامى الرحالة والمحدثين وخصص
الجزء الثانى عن مصر العليا ، أما الجزء الثالث فهو دراسة للمناخ
والتجارة المصرية الحديثة والحروب الأهلية وقد ركز سافارى
على الأحداث التي شاهدها في مصر بالفعل واصفا أحوالها
السياسية والاقتصادية ولم يهتم بوصف مصر الفرعونية . وقد
ترجم كتاب سافارى الى الألمانية ثم الانجليزية وحقق نجاحا
كبيرا (١٣٢) .

وجهت الانتقادات لسافارى من الرحالة الفرنسيين خاصة
قولنى الذى عاب عليه شاعريته وأسلوبه الرقيق فى الكتابة ، كذلك
وجه اليه النقد لأنه ركز كتابته على مصر السفلى وهناك رأى

(١٣١) المرجع السابق : ص ٦٨ .
Clement : Op. Cit., PP. 242 — 243.

(١٣٢)

إن « سافارى لم يطلأ بتقديمه مصر العليا » وصاحب هذا الرأى هو الرحالة سوينى دى مانكور الذى أكد أن سافارى لم يزر مدن مصر العليا وأنه اعتمد على كتابات القدماء ونقل عن هيرودوت وسترابون ثم جرانجيد وأكد سوينى أن ضابطا فرنسيا زار مصر قادما من البنغال تجول فى مدن مصر العليا والتقى بسافارى وقص عليه ما شاهده فيها فنقل سافارى عنه ما سمعه ونسبه الى نفسه (١٢٣) .

ورغم الانتقادات التى وجهت الى سافارى خاصة من قبل فولنى والمعروف بتعصبه ضد مصر يمكننا القول انه يكفى للدلالة على أهمية رحلة سافارى أن ضباط الحملة الفرنسية قد اصطحبوا معهم مؤلف سافارى عن مصر بينما كانت السفن الفرنسية تمخر عباب البحر الى الاسكندرية حتى أن نابليون لم ينس أن يحمل هذا المؤلف بين متاعه (١٢٤) .

ولكن على الرغم من أهمية مؤلف سافارى واعادة طبعه عدة مرات إلا أن رحلة فولنى طغت على شهرة مؤلف سافارى فبرى كاريه « أنها انست الفرنسيين كتابات سافارى وإن الأخير ظلم وإن رحلته كانت جديرة بأن تحتفظ بشهرتها » (١٢٥) .

٩ - البارون دى توت De Tott : وهو نبيل من المجر عمل فى خدمة فرنسا حين مفتشا لاسكالة الشرق وبعد عودته الى أوروبا نشر مذكراته منها سبعون صفحة خاصة بمصر وصف فيها الاضطرابات التى شاهدها أثناء تفقده للمدن المصرية

Carré : Op. Cit., PP. 88 — 89.

(١٢٣)

(١٢٤) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٦٩ .

Carré : Op. Cit., P. 79.

(١٢٥)

عام ١٧٧٧ م (١٢٦) . ولكنه لم يتمكن من زيارة جميع المدن بسبب هذه الاضطرابات ولذلك فإن مذكراته عن مصر مأخوذة من كتابات الرحالة السابقين (١٢٧) .

١٠ - الأب لاشانيوان دي بينو Chanoine De Binos
زار مصر عام ١٧٧٧ م وكان يعمل في كاتدرائية بيرنيه و وضع مؤلفا (١٢٨) . عن مصر نشر عام ١٧٨٧ م نشرته شقيقة الملك اليزابيث دي فرانس ولكن كتابه موجز اعترف هو نفسه في مقدمته بأن معرفته محدودة عن مصر وموجزة لأنه لم يمكث فيها سوى شهر ونصف ولم يتخط الدلتا وانما اكتفى بزيارة الإسكندرية ، رشيد ، القاهرة ، دمياط ولكن أهمية كتابه أنه عاصر وشاهد الاضطرابات السياسية في القاهرة بين المماليك وتجدت عن الفوضى السائدة في البلاد حتى ان التجار الفرنسيين اضطروا لغلاق الخان المخصص لهم في القاهرة (١٢٩) .

١١ - العالم الطبيعي سسونيني دي ماننكور
Sonnini De Manoncours (١٧٥١ - ١٨١٢) ولد
سونيني في اللورين عمل محاميا ومهندسا بحريا زار امريكا خلال (١٧٧٢ - ١٧٧٥ م) وافريقيا الغربية ، اهتم بالتاريخ الطبيعي والطبي سافر الى مصر خلال (١٧٧٧ - ١٧٨٠ م) ذكر في كتابه « سافرنا الى مصر بتكليف من الكونت بوفون للقيام بغدة أبحاث

De tott : Mémoires Du Baron De tott sur Les turcs (١٢٦)
et Les tartares. Paris 1875 + 2.

Clement : Op. Cit., FF. 239 — 240. (١٢٧)

Voyage par L'Italie en Egypte, au mont Liban et en (١٢٨)
Palestine ou terre Sainte.

Carvé : Op. Cit., P. 106. (١٢٩)

لتقديمها الى الوزير برتان « اذن كانت رحلته الى مصر رسمية ولذلك ساعدته غرفة تجارة مارسيليا بالأموال وقد زار مصر وقت زيارة البارون دي توت لها ونشر كتابه (١٤٠) . من ثلاثة أجزاء مصحوبا بالرسومات عن مصر وآثارها وثرواتها الزراعية ولكن رغم أهمية كتاب سونيني الا انه فقد أهميته بعد نشر وصف مصر (١٤١) .

ويعتبر مؤلف سونيني من أهم المؤلفات التي كان لها تأثيرها بعد كتاب سافاري وفولني وعمله يعتبر سكملا لعمل سافاري وفولني وباعتباره طبيبا كانت ملاحظاته أعمق من سافاري وفولني فيما يتعلق بالحياة الطبيعية والأمراض ولكن كان من الطبيعي أيضا أن تجيء كتاباته عن الآثار سريعة وقد التقى سافاري بمراد بك وزاره في معسكره وأشاد بفخامة المعسكر وحاول مراد بك اقناعه بالعمل في خدمته كطبيب ومهندس ولكنه رفض ذلك (١٤٢) .

١٢ - الكونت دانتريج : هو ابن شقيق سان برييه السفير الفرنسي في استانبول سافر الى مصر بصحبة المترجم الفرنسي ادنسون ومؤلفه عن مصر ما زال مخطوطا في مكتبة ديجون . كتب رحلاته على شكل رسائل ويقال ان السبب في ارساله الى مصر انه أحب احدي الأميرات في بيرا (١٤٣) . فابعد عمله سان برييه من الاستانة وأرسله الى مصر فوصلها عام ١٧٧٩ م ومعه توصيه من أحد ضباط الاستانة ومنها الى باريس وكتب

Sonnini, C. : Voyage eu Egypte. Paris 1793.

(١٤٠)

Clement : Op. Cit., PP. 244 — 245.

(١٤١)

Carré : Op. Cit., P. 115.

(١٤٢)

Alexandrine Ghika

(١٤٣) تدمي : الكسندرين جيكا .

رسائله الى السيدة التي احبها ذكر فيها انطباعاته عن مصر ولكنه لم ينشرها وانما نشر أوريان ما يخص مصر من هذه الرسائل والتي ترجع اهميتها انها ألقت الضوء على احوال مصر السياسية في أواخر القرن الثامن عشر ويمكن القول ان رسائله عن مصر كتبت باختصار شديد خاصة فيما يتعلق بالآثار والأديرة القبطية . فكتاباتنه عنها مختصرة الى حد كبير (١٤٤) .

١٣ - فولنى : ولد في عام ١٧٥٧ م في مدينة صغيرة في مين بفرنسا ، عمل محاميا وأعجب بالفكر الفرنسى فولتير ، فأخذ منه المقطع الأول من اسمه والمقطع الأخير من اسم المقاطعة التي ولد فيها وهي فيرنى ليصبح اسمه فولنى . وقد اتقن اللغات القديمة وعكف على دراسة التاريخ والطب وذكر في كتاباته انه ورث مالا من والدته فتملكته الحيرة في استعماله واقترح عليه البعض الاستمتاع به وانفاقه بينما اقترح عليه البعض الآخر استغلاله والاستفادة من ريعه ولكن فولنى فضل على حد قوله « ارضاء نزعتى الثقافية وقد سمعت ان السفر من انجح الوسائل لتجميل العقل وتهذيبه » (١٤٥) . وفكر فولنى في السفر الى أمريكا الناشئة ولكن فضل السفر الى سورية ومصر ولكن فولنى على حد قول سانت بريف احب مصر قليلا واحب سورية كثيرا حتى ان عمله تجاه مصر اتسم بالتعصب وقد مكث فولنى في سورية ثمانية اشهر أمضاها لدى الدروز في دير عربى حيث تعلم العربية ثم جاء الى مصر فوصل القاهرة ١٧٨٢ م حيث قام بزيارة مدن

Aurlant : Un Français d'Autre fois en Egypte. Paris. (١٤٤)

1935. P. 277.

(١٤٥) فولنى : ثلاثة أعوام في مصر وبعبر الشام ، القاهرة ١٩٤٩ ج ١ ،

نقلها الى العربية ادوارد البستاني ص ٧ .

الوجه البحرى فقط ولم يزر مدن الوجه القبلى ولكن ترجع أهمية رحلاته انه قدم مشاهداته عن مصر بطريقة مركزة .

ينقسم كتاب فولنى الى قسمين الأول تعريف بطبيعة مصر ، النيل ، الدلتا ، الهواء ، الطقس والقسم الثانى يتناول فيه الوضع السياسى والحكومة الفعلية للمماليك والنشاط التجارى وترجع أهمية كتاباته الى أنها ليست عن مصر الفرعونية أو القبطية وإنما هى تتناول أحوال مصر العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ولذلك فقد أهتم علماء الحملة الفرنسية بملاحظاته ولم يهملوها خاصة ما ذكره عن ربط السويس بالبحر المتوسط ، كذلك وصفه الاستحكامات العسكرية فى الاسكندرية ومصر وايضا مدى التدهور السياسى والعسكرى والاجتماعى لمصر حتى أنه كتب « لا يمكن انقاذ مصر الا بتدخل أجنبى ويمكن أن تكون فرنسا هذا البلد » (١٤٦) .

ولكن فولنى كان شديد القسوة على مصر كرهها حتى عند وصفه للمماليك فاستعرض العسكرية المملوكية المأجنة ملمحا الى العادة المخزية المأثورة عند اليونانيين والتتار على أنها أولى الدروس التى يتلقاها فرسان المماليك على أيدي مدرب السلاح ومعظم كتابات فولنى عن مصر خالية من أى أطراء (١٤٧) .

ولكن رغم تعصب فولنى الا انه قدم ملاحظات قيمة فلم يكن يسرد مشاهدات فحسب وإنما كان موسوعى النظرة قدم سجلا شاملا من خلال منهج علمى دقيق التبويب ومنهجه أقرب الى منهج كتاب القرن الثامن عشر الكلاسيكيين منه الى منهج

Carré : Op. Cit., PP. 97 — 101.

(١٤٦)

(١٤٧) ثروت مكاشة : المرجع السابق ص ٧٢ ، ص ٧٣ .

الرحالة السابقين مباشرة فلم يجنح الى الخيال وهو يقدم صورة مصر الى قراء أوروبا رغم أنه كان يدرك أهمية الخيال وجاذبيته للقارىء وذلك لأنه كان يؤمن ان فن الرحلات ينتمى الى علم التاريخ لا الى الفن القصصى وذكر انه « لم يصور البلدان بأجمل مما رآها كما لم يصف الناس بأفضل ولا بأسوء مما شاهدهم » (١٤٨) .

وعند مقارنة سافارى وقولنى نجد أن الأول أحب مصر بينما قولنى ورغم منهجه العلمي إلا انه تغلبت عليه روح الكراهية لمصر بل انه وجه النقد الى سافارى لأن كتاباته غلبت عليها الشاعرية والحب لمصر وأكد ان سافارى لم يزر مصر العليا « فهو لم يتخط الجزيرة » (١٤٩) ، كذلك انتقد قولنى الرحالة الذين أشادوا بمصر ووصفوها بأنها من أجمل مناطق العالم فرد قائلا « أفهم أن تكون مصر من أجمل مناطق العالم في عين المصرى لأنه لم يعرف غيرها » وكتب أيضا معربا عن دهشته لأن الأوروبيين رأوا مصر جميلة فهي في نظره « ليست سوى أرض مسطحة وأشجار نخيل تقوم على مسافة هزيلة وأكواخ من الطين لا ترى في مصر شئ من السحر ولا الغنى » (١٥٠) .

نشر قولنى كتابه عام ١٧٩٢ م فحقق نجاحا كبيرا وقد زوده بالخرائط عن سورية ومصر والدلتا وسيناء (١٥١) . وبعد ظهور كتابه عينته حكومة الادارة أستاذا للتاريخ الطبيعى بمعهد المعلمين العالى وقد تأثر نابليون بمؤلف قولنى عن مصر وما أن استقر رأى نابليون على غزو مصر حتى عرض على قولنى اصطحابه

(١٤٨) المرجع السابق : ص ٧٣ .

Carré : Op. Cit., P. 98.

(١٤٩)

(١٥٠) قولنى : المرجع السابق ص ١٦٧ .

Carré : Op. Cit. P. 101.

(١٥١)

ولكنه اعتذر (١٥٢) . وفي حين كان صفار ضباط الحملة الفرنسية على مصر يأنسون بقراءة سافاري كان كتاب فولني هو الأثر لدى قادة الجيش والعلماء اذ كان لهم دليلا ممتاز موجزا نفيسا فيه الجغرافية الاقتصادية والسياسية ويمكننا أن نقول ان فولني كان جاسوسا بلغة العصر الحديث وكتابه مدعم بالحجج والبراهين بعيد عن أي زخرفة جامد صريح (١٥٣) . ويتضح ذلك لنا مما كتبه عن مصر « ان الرحالة يميلون الى المبالغة في الوصف والتصوير وتغلب عليهم الحماسة وعلل ذلك ان ابتعاد الرحالة عن مصر يجعلهم ينسون انهم وقت اقامتهم فيها كانوا يتمنون الرحيل عنها » (١٥٤) .

واخيرا ان كلا من سافاري وفولني اسهما بكتائيهما في جعل حضارة مصر يتسابق اليها الرحالة والمفكرون والأدباء والفنانون والرأي العام الفرنسي أصبح شغوبا بالتعرف عليها ولذلك أيد الجميع حملة بوناپرت على مصر تلك الحملة التي صورت في فرنسا وكان الغرض الرئيسي منها هو اكتشاف الحضارة التي طالما قرأ عنها الفرنسيون وأعجبوا بها من خلال كتابات الرحالة (١٥٥) .

١٤- وأخيرا أوليقيه : كان عضوا في الجمعية الجغرافية في السين وطيبا زار مصر واستانبول وفارس بتكليف من حكومة الإدارة عام ١٧٩٦ م ويعتبر كتابه (١٥٦) سجلا لأوضاع الفوضى

(١٥٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٧٤ .

(١٥٣) المرجع السابق : ص ٧٤ .

(١٥٤) فولني : المرجع السابق ص ١٧٠ .

(١٥٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٧٤ .

(١٥٦) Olivier : G. : Voges dans l'empire ottoman L'Egypte et La Perse fait par ordre du gouvernement de La République

السياسية في مصر قبيل الحملة الفرنسية مباشرة خاصة النزاع بين مراد بك وإبراهيم بك ولاشك ان كتابه مهد لمجيء الحملة الفرنسية على مصر فقد أوضح فيه مدى سهولة الاستيلاء على الاستحكامات والقلاع والحصون العسكرية « لأن مصر بلا دفاع » فمصر هي الفوضى والجهل والفقر والطغيان » ولم يهتم أوليفيه بتسجيل الأوضاع السياسية فحسب وإنما قدم وصفا للحياة الطبيعية في مصر فوصف مناخ مصر وثرواتها الزراعية والحيوانية وسخر أوليفيه مثل زميله فولني من وصف سافاري لمصر فكتب « ان منظر الحدائق المزروعة بالنخيل والبرتقال لم يشغل لهيب خيالي » (١٥٧) .

تحدثنا عن الرحالة الفرنسيين الذين وفدوا على مصر منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م باعتبار ان حملة نابليون مثلت مرحلة جديدة في تاريخ مصر اذ جاءت بحشد من العلماء انكبوا على دراسة مصر . ولكنني رأيت وأنا بصدد الحديث عن الرحالة ضرورة الإشارة الى فنان له صفة الرحالة صاحب الحملة الفرنسية وكلف من قبل نابليون بالتجول في مدن مصر لوصفها ورسم آثارها العظيمة هذا الفنان هو فيفان دينون Vivant Denon الذي رأيت الإشارة اليه رغم انه جاء مصاحباً للحملة وذلك لأن كتابه عن مصر (١٥٨) نشر في عام ١٨٠٩ م أي قبل ظهور « وصف مصر » بعدة سنوات ولتأثره بكتابات كل من سافاري وفولني .

ولد دينون في عام ١٧٤٧ م وكان من طبقة النبلاء اشتهر

Carré : Op. Cit., P. 115.

Voyage, dans La basse et La Haute Egypte Pendant (١٥٧)

Les campagnes du général Bonaparte. (١٥٨)

بفنه ولوحاته الجديدة كلف في عهد الملك الخامس عشر بالعمل
سكرتيرا في السفارات الفرنسية في بطرسنبورج واستكهولم ونابولي
وفي عهد حكومة المؤتمر الوطني كلف بالعديد من المهام الدبلوماسية
التقى بنابليون في عام ١٧٩٧ م في حفل اقامه تاليران فعرض عليه
مرافقته الى مصر لرسم آثارها العظيمة خاصة وأنه كان عضوا
في أكاديمية الفنون (١٥٩) .

وافق دينون على مرافقة الحملة الفرنسية الى مصر فجاء
اليها وسط حشد من العلماء الفيزياء والرياضة والطبوغرافية
ورغم عمله كرسام إلا أن مهمته لم تكن هينة اذا كان يقوم برسم
لوحاته سريعا خوفا من مهاجمة الأتالي وعمل في كثير من الأحيان
وسط المعارك وطلقات المدافع فبينما كانت قوات نابليون تتقدم
غازية مصر السفلى والعليا كان دينون يرافقها فكانت رسوماته
شاهدا على المعارك التي خاضتها القوات الفرنسية ضد المصريين
حتى انه كاد أن يقتل في احد المعارك الدائرة في بني سنويف (١٦٠) .

استمرت رحلة دينون في مصر منذ عام ١٧٩٨ م وحتى
يوليو ١٧٩٩ م قدم خلالها عدة رسومات عن مصر الفرعونية
والقبطية والاسلامية رسم الأهرامات - مساجد الماليك - رجال
الدين المسلمين - رسم آثار مصر العليا - الأديرة القبطية -
المعابد . وقد نشر كتابه وطبع أربعين طبعة (١٦١) ترجمت الى

Goby, Jean : Les quarantes éditions traductions (١٥٩)
et adaptations «Du voyage dans La basse et La Haute Egypte
De vivant Denon. Le Caire 1952. P. 140.
Ibid. P. 140.

(١٦٠)
(١٦١) كلف الأمير ابراهيم حلمي جان ادوارد جوبى بنشر رحلة دينون
فنشرت عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ وادفق جوبى بيانا بالأربعين طبعة وأماكن
طباعتها .

الانجليزية والايطالية والألمانية . قدم فيه دينون صورة صادقة عن مصر وجمع فيه بين جدية فولنى وشاعرية سافارى وكانت لوحاته الأدبية أكثر شمولاً وموضوعية من فولنى الذى سجل العادات والتقاليد ، أما لوحاته الفنية فتعتبر أشهر حصيلة من الصور المحفورة عن مصر عرفت أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر . وقد خلفه شامبليون فى الاهتمام بالآثار المصرية وفك رموزها لأن دينون كان عاجزاً بالطبع عن قراءة الهيروغليفية . وقد أعجب دينون بالآثار المصرية أعجاباً شديداً فكتب مبهوراً « ما أظن أن الأغريق أتوا بجديد فليس ثمة إبداع مما أراه ، كما أنه ليس ثمة أبسط ولا أدق من تلك الخطوط القليلة التى يتألف منها هذا المعمار فيما أخذ المصريون شيئاً عن غيرهم من الأمم وما زحموا خطوطهم الأساسية بزخاف لا ضرورة لها بالغين فى ذلك ذروة الدقة والبساطة فالخطوط لها قدسيتهما وما يبدو لنا عن قرب افراطاً فى الزخاف سرعان ما يتلاشى على البعد » (١٦٢) .

وأخيراً يمكن القول إن الرحالة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر قدموا وصفاً شاملاً للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر وأمتازت كتاباتهم بالعمق والتحليل بالقياس لمن سبقوهم من الرحالة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وإن كان معظمهم لا تخلو كتاباتهم من روح التعصب والتعالي فكانت هذه الكتابات حافزاً قوياً لفرنسا لوضع يدها على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر خاصة وإن هؤلاء الرحالة مهدوا لها الطريق وأوضحوا مدى ضعف وسائل الدفاع بل انعدامها واقنعوا حكامهم بسهولة الاستيلاء على مصر .

وما دمتنا قد تحدثنا عن الرحالة الفرنسيين فينبغى لنا أن

(١٦٢) ثروت مكاشة : المرجع السابق ص ٧٦ ، ص ٧٩ .

نلقى نظرة سريعة على أهم الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر ولنبدأ بالرحالة البريطانيين ونخصص منهم بالذكر بوكوك Pocoke (١٦٣) الذي زار مصر في الفترة من عام ١٧٣٧ إلى ١٧٤٢ م وتجول في المدن المصرية ووصل جنوباً إلى أسوان ، كما تجول في منطقة البحر الأحمر وتفقد الأديرة القبطية وزار شبه جزيرة سيناء ويرجع إليه الفضل في تحديد موقع مدينة في الجيزة (١٦٤) . أما جيمس بروس فهو رحالة اسكتلندي ومكتشف كان الغرض الرئيسي من رحلته زيارة الحبشة والتعرف على منابع النيل فوصل الاسكندرية عام ١٧٦٨ م ثم تجول في المدن المصرية عام ١٧٦٩ م خاصة في قنا والقصر ومنها عبر البحر الأحمر إلى جدة حيث استعد لرحلته إلى الحبشة ونشر رحلاته (١٦٥) . في سبعة مجلدات واصفاً جميع البلاد التي سار فيها ، وصحح الكثير من أخطاء الرحالة الدنمركي نوردن (١٦٦) .

وخلال فترة الاضطرابات التي مرت بها مصر في عهد علي بك قام لوزينيان بزيارتها (١٦٧) ولكنه لم يكن دقيقاً لأنه

-
- (١٦٣) وضع مؤلفاً بعنوان : Pocoke, R. : A Description of the east and some Countries. London 1763 Vol. 5.
- (١٦٤) Carré : Op. Cit., P. 76.
- (١٦٥) Bruce, James : + Travels to discover the source of the Nile in the years 1768 — 1769 — 1670 — 1761 — 1672 — 1673 London 1804.
- (١٦٦) شوقي الجمل : تاريخ افريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٧٢ م ص ٧٣ ، ص ٧٤ .
- (١٦٧) Lusignan : A History of the revolt of Ali Bey Against ottoman porte. London 1783.

نشر كتابه بعد عودته بعشر سنوات فخازته ذاكرته في كثير من
أسماء الشخصيات والبلدان (١٦٨) .

كذلك شهدت مصر مجيء رجال الدين البريطانيين لنشر
مذهب بلادهم كما عمل الرحالة الفرنسيون من قبل فجاء
أنث Antes من لندن الى القاهرة في عام ١٧٧٠ م. وتبع
آثار بروس في الحبشة ثم استقر في مصر ولكنه فشل في تحويل
أقباط مصر خاصة في البهنسا عن مذهبهم فترك مصر
عام ١٧٨١ م (١٦٩) .

أما بلدوين فقد انحصرت كتاباته عن تجارة الرقيق في
مصر والاسكندرية وكتب عن أوضاع مصر السياسية ونشر الكتاب
الأول في عام ١٧٩٠ م وكان تقريراً صغيراً عن أحوال تجارة
الرقيق الأبيض (الممالك) (١٧٠) . أما كتابه الثاني (١٧١) فقد
نشر في لندن عام ١٨٠١ م (١٧٢) .

كذلك وفد براون على مصر عام ١٧٩٢ م في طريقه الى
الحبشة وسجل مشاهداته عن مصر (١٧٣) وفي عام ١٧٩٥ م زار

(١٦٨) محمد أنيس : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد
الثاني في ١٩٤٩ ، مقالة للدكتور محمد أنيس « النشاط الأوروبي بمصر وجيرانها
في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي » ص ٧٥ .
A Description of the Maners (١٦٩) وله مؤلف، بعنوان :

محمد أنيس ص ١٢٥ .
Slave trade in Egypt and Alexandria 1790. (١٧٠)
Political recollections relative to Egypt London 1801. (١٧١)
محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .
Browne Travels in Africa, Egypt and Syria (١٧٢)
London 1799. (١٧٣)

مصر جيلجهورن وكان أستاذًا للتاريخ في جامعة سانت أندروز
وكان في طريقه إلى سيلان وكانت له اتصالاته مع بلديين
وروزيني وقدم عدة مقترحات (١٧٤) بشأن مواصلات بريطانيا
بين الهند ولندن عن طريق البحر الأحمر ومصر (١٧٥) .

أما كابر فقد عمل في خدمة شركة الهند الشرقية وله
دراسه (١٧٦) عن طريق المواصلات عبر مصر وكانت له خبرة
بالطرق البحرية الموصلة بين أوروبا والهند (١٧٧) .

ودون فاي وهو في طريقه من بريطانيا إلى الهند عن طريق
مصر ١٧٧٨ م مشاهداته عن الإسكندرية - القاهرة -
السويس (١٧٨) ، كذلك دون التاجر برسون وهو في طريقه
إلى الهند ١٧٧٨ م ملاحظات عن المصريين وعاداتهم
وتقاليدهم (١٧٩) .

نلاحظ مما سبق أنه رغم كثرة أعداد الرحالة البريطانيين
الذين زاروا مصر ، إلا أن إقامتهم بها كانت قصيرة فقد وفدوا
عليها أثناء ذهابهم إلى الهند أو الحبشة فلم تكن مصر هي
المقصودة كما كان الحال بالنسبة لمعظم الرحالة الفرنسيين الذين
قصدوا مصر لوصفها ومشاهداتها . فمعظم هؤلاء الرحالة

Cleghorn, H. : Cleghorn Papers. London 1925. (١٧٤)

(١٧٥) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

Capper, J. : observations on the passage to India (١٧٦)

through Egypt. London 1783.

(١٧٧) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

Fay; Letters from India (١٧٨)

Parsons, A. : Travels in Asia and Africa. London (١٧٩)

1808.

البريطانيين كانوا اما تابعين لشركة الهند الشرقية او تجاراً يعملون بترخيص من الشركة ولذلك يمكن أن نطلق عليهم اسم « الرحالة العابرون » وقد انصب اهتمامهم بالنواحي المتعلقة بالبحر الأحمر فقط ولكن منهم ايضا الجغرافيون المستكشفون مثل بروس الذى خصص رحلته لاكتشاف منابع النيل فى الحبشة . ومنهم رحالة مستقرون اما تجار شركة الليفانت أو أصحاب مناصب رسمية ولكن تناقصت أعدادهم بعد إغلاق الشركة لقنصليتها فى القاهرة ١٧٦٧ م (١٨٠) .

شهدت مصر ايضا قدوم رحالة من المانيا والدانمرك وروسيا ومن أشهر هؤلاء المكتشف الألماني هورنمان (١٨١) الذى زار مصر أثناء توجهه الى سنار وله العديد من الاكتشافات ١٧٩٨ - ١٨٠٠ م . أما الرحالة الدانمركى فردريك نوردن (١٨٢) فقد زار مصر والنوبة ١٧٥١ - ١٧٥٥ م ووصف اضطرابات البدو فيها (١٨٢) .

أما أشهر الرحالة الروس الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر فنخص بالذكر منهم هيبوليت فيكنسكى وكان من رجال الدين ، ترك روسيا لزيارة الأماكن المقدسة فمر على مصر وبقي فيها حوالى اسبوعين من ٤ الى ٢٠ يونيو عام ١٧٠٨م زار خلالها دير سانت كاترين ودمياط والاسكندرية والقاهرة

(١٨٠) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

Hornemann, H. : The Journal of Hornemann's travel (١٨١)
in 1797 — 1798. London 1808.

Norden, F. : Voyage d'Egypte et de Nubie, Paris (١٨٢)
1798.

(١٨٣) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٧ .

ورغم أنه من رجال الدين إلا أنه قدم فصلين في كتابه خصصهما للحديث عن الطيور في مصر وقد نشرت الجمعية الملكية للتاريخ والآثار الروسية التابعة لجامعة موسكو رحلة هيبوليت في عام ١٨٧٧ م (١٨٤) .

كذلك زار مصر الراهب بارسكى (١٨٥) وقد نشرت الأكاديمية الملكية للعلوم في سانت بطرسبورج رحلته التي تجول فيها في الاستانة وكورفو وسالونيك والجزيرة العربية والقدس وسورية وزار مصر عام ١٧٢٦ م وفي عام ١٧٢٨ م اتجه الى سيناء ثم عاد الى مصر عام ١٧٢٩ م وقدم وصفا عن الاسكندرية والقلعة وبولاق والسويس ولكنه أخطأ في تحديد بعض المواقع فلم يتعرف على طيبة وذكر انها فوة كما اعتقد أن قناة الاسكندرية تمثل فرعاً رئيسياً من فروع النيل (١٨٦) .

أما عن أشهر الرحالة المسلمين المغاربة الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر فهو أبو القاسم الزياني ولم مؤلف عنها باسم « الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا » (١٨٧) وقد قام أبو القاسم بثلاث رحلات الى بلدان الشرق الأولى لأداء فريضة الحج والثانية كان ضمن سفارة مغربية أرسلها مولاي محمد بن عبد الله الى استانبول عام ١٧٨٥ م ثم الأخيرة

Volkoff, Oleg : Voyageurs Russes en Egypte Le Caire (١٨٤)

1972. PP. 51 — 61.

Vassily Grigorovitch Baroky.

(١٨٥)

(١٨٦)

(١٨٧) يونان لبيب ، محمد مزين : تاريخ العلاقات المصرية المغربية

منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٩٠ م ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٧ .

في عهد مولاى سليمان عام ١٧٩١ م . ارتبطت نظرتة الى مصر واقتصادها بحاجته اثناء سفره للمؤنة والمواصلات والأسواق ولذلك كان كتابه مفيدا للحجاج المغاربة المارين بمصر فتحدث عن المواصلات بين برقة والاسكندرية والقاهرة وهو لا يضيف شيئاً جديدا عما ذكره ليو الافريقى فى القرن السادس عشر وقد نقل كثيرا عن سبقوه (١٨٨) .

يتضح لنا مما سبق ان الرحالة الفرنسيين كانوا سلسلة متعددة الحلقات يتم كل منها الآخر ، فلا نجد هذه الأعداد من الرحالة لدى دولة أوروبية أخرى سوى فرنسا ، كما ان كتاباتهم ورسومهم وخرائطهم كانت ادق وافضل بكثير من غيرهم من الرحالة .

(١٨٨) المرجع السابق : ص ١٢٧ .

القناصل الفرنسيون

اتسم القرن الثامن عشر باهتمام القناصل الفرنسيين بالوثائق والمخطوطات وقد أفاد هؤلاء من وظائفهم فتجولوا بحرية في البلاد مسجلين ومدونين ما شاهدوه وقد رأيت الاعتماد على ما سجله هؤلاء القناصل سواء كانت في صورة تقارير الى الحكومة الفرنسية تعكس أحوال مصر السياسية أو كانت مذكرات طبعت ونشرت بالفعل .

وفي مقدمة أسماء القناصل الفرنسيين الذين ينبغي الإشارة اليهم القنصل الفرنسي بينو دي ميليه الذي مكث في مصر حوالي ستة عشر عاما من ١٦٩٢ حتى ١٧٠٨ م وكان حريصا على تدوين مشاهداته عن مصر وقد قام الراهب لى ماسكريه بنشر مذكرات وملاحظات ميليه عن مصر عام ١٧٣٥ م باسم « وصف مصر » وهو الاسم الذي اقتبسه نابليون وعلماء الحملة عندما وضعوا العمل العظيم « وصف مصر » فكانت الأخيرة هي التسمية الثانية وليست الأولى (١٨٩) .

Clement : Op. Cit., P. 82.

(١٨٩)

ولد بينو دى ميليه فى اللورين (١٦٥٦ - ١٧٣٨) وعين قنصلا فى القاهرة فى عام ١٦٩٢ م ثم عين عام ١٧١٥ م مفتشا عاما لأسكالات الشرق وأقام فى أواخر أيامه فى مارسيليا وقد ظهرت له عدة كتب بعد وفاته وفى عام ١٧٤٣ م ظهر له كتاب عن حكومات مصر القديمة والحديثة (١٩٠) كذلك نشر بعد وفاته كتابا فى عام ١٨٥٥ م يحوى محادثات بين فليسوف هندى وقسيس فرنسى (١٩١) .

أما مذكرات ميليه التى نشرت باسم « وصف مصر » (١٩٢) فكانت حصيلة لمشاهداته واكتشافاته للآثار المصرية القديمة والموميات والمخطوطات القبطية وقد أعجب ميليه بآثار مصر وحضارتها يتضح لنا ذلك مما كتبه فى عام ١٧٩٣ م الى ريجور Rigord مفتش البحرية الفرنسية فى مارسيليا أوضح فيها أهمية الآثار فى مصر العليا « ان المعابد المذهبة الجميلة ذات الألوان الزرقاء فى مصر العليا تحتاج الى كشف علمى بواسطة علماء لديهم حب الاستطلاع والمعرفة » (١٩٣) . وبذلك يكون ميليه هو أول من نبه لدراسة آثار مصر دراسة علمية دقيقة متأنية بواسطة علماء متخصصين « فلابد للعلماء ان يتوفر لديهم الوقت الكافى للدراسة لى يعطوا المكان حقه المناسب من الوصف

Idée du gouvernement Ancienne et Moderne de L'Egypte. (١٩٠)

Entretiens d'un philosophe Indien avec un missionnaire Français. (١٩١)

Maillet, Benoît : Description de L'Egypte L'abbé Le (١٩٢)

Mascrier composée sur Les mémoires de M. Maillet ancien consul de France au Caire. Paris 1735.

Clement : Op. Cit., P. 106. (١٩٣)

والدراسة « على حد قوله ولكي تكون الدراسة على أكمل وجه « لابد من عمل خريطة كاملة لمصر » . كذلك أولى ميليه اهتمامه بالتاريخ القبطي فكتب انه « لابد من الكشف عن المخطوطات الهامة في الأديرة القبطية خاصة في دير أبي مقار وسانت انطوان وجبل سيناء » ويعزى اليه فكرة نقل المسلة المصرية الى فرنسا قبل أن يقدم ديزيه على هذه الخطوة أثناء حملة نابليون فمليه هو صاحب الفكرة كذلك أراد نقل عمود السواري من الاسكندرية الى باريس ورأى انه « يصلح لوضع تمثال لويس الرابع عشر فوق قمته » وقد قدم ميليه اقتراحه بالفعل الى الوزير الفرنسي بونشر تران ولكنه رفض نظرا لتكلفة المشروع وعندما عاد ميليه الى فرنسا جدد العرض للوزير الفرنسي موروبا فلم يقتنع بجدوى المشروع (١٩٤) .

أما كتاب ميليه « وصف مصر » فهو من أهم المؤلفات التي ظهرت عن مصر أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر وقبل ظهور مؤلف فولني وقد سجل ميليه مشاهداته عن مصر أثناء تجوله في البلاد على ظهر حمار يتبعه الجنود الانكشارية فسجل الاحتفالات والأعياد والعديد من المظاهر الاجتماعية . ولكن هذا لا يعنى خلو وصفه من المبالغة مثل قوله « في مصر يتم صيد سمك له وجه انثى وله ذراعان ويدان وعند صيده يطلق أصواتا تشبه أصوات النساء » كذلك تأكيده أن المصريين يقصدون المعابد للجلال فيمكثون عشرة أيام « لا يأكلون سوى الخبز والعسل ومسحوق السحالي وبيض العصفير » (١٩٥) .

كتب ميليه مذكراته وملاحظاته حول مصر على هيئة رسائل

Ibid. P. 107.

Carré : Op. Cit., P. 57.

(١٩٤)

(١٩٥)

بلغ عددها ثلاث عشرة رسالة خصص الرسالة الأولى عن جغرافية مصر والثانية عن نهر النيل مجراه ومصبه ، وخصص الرسالة الثالثة لوصف الدلتا في مصر ومدن رشيد ودمياط ، وخصص الرابعة عن مدينة الاسكندرية وآثارها القديمة أما الرسالة الخامسة فكانت عن القاهرة وآثارها والرسالة السادسة عن الأهرامات والسابعة عن موميات منف والثامنة عن مصر العليا ومدنها وثرواتها ودير سانت انطوان والتاسعة عن التاريخ الطبيعي وخصوبة اراضي مصر وثرواتها الزراعية والحيوانية والعاشرة عن ديانة الفراعنة والاحتفالات ، والحادية عشرة عن عادات السكان ومقارنتها بالعادات القديمة والثانية عشرة عن تجارة مصر ومشروع ربط تجارتها مع أوروبا وآسيا بواسطة البحر الأحمر أما الرسالة الثالثة عشرة والأخيرة فكانت عن القوافل في مصر خاصة قافلة الحجاج (١٩٦) .

يتضح لنا أهمية كتابات ميليه لأنها تناولت تاريخ مصر في مختلف المراحل كما أنه من الرواد الذين اهتموا بالعمارة الإسلامية والحضارة الإسلامية فوصف مسجد السلطان حسن وتحدث عن الفن في العصر الفاطمي والأيوبي والملوكي كما أنه بعد وفاته ترك مجموعة من المخطوطات العربية قام الوزير موروبا بشرائها لحساب المكتبة الملكية (١٩٧) . كذلك اهتم بالمزارات المسيحية والأديرة والكنائس وعندما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر استطاع جيمار Guemard ان يرفع اسم ميليه من سجلات كنيسة مسيحية في الموسكى (١٩٨) .

Mallet : Op. Cit., P. 175.

(١٩٦)

Carré : Op. Cit., P. 57.

(١٩٧)

Ibid. P. 56.

(١٩٨)

تولى القنصلية في القرن الثامن عشر عدد من القناصل لم يتركوا مؤلفات هامة عن مصر مثلما فعل ميليه وانما استطعنا أن نتعرف على أحوال مصر السياسية من خلال تقاريرهم ومذكراتهم الى غرفة تجارة مارسيليا والى الحكومة الفرنسية ويمكن أن نذكر بايجاز شديد أسماء هؤلاء القناصل .

تولى بيلرون Peleran شئون القنصلية في مصر بعد رحيل ميليه (١٧٠٨ - ١٧١١) وقد ألقت كتاباته وتقاريره الضوء على الصراع الدائر بينه وبين التجار الفرنسيين الذين كانوا يرفضون اتباع أوامره فكتب « يمضى أحيانا يوما بأكمله لا يزورنى أحد في الصباح » (١٩٩) .

عمل لى مير Le Maire في مصر فترة طويلة (١٧١١ - ١٧٢٢) وهو ينتمى لعائلة يعمل جميع أفرادها في القنصليات فله أقارب في اسكالات الشرق المختلفة ومن خلال مراسلاته مع غرفة تجارة مارسيليا استطعنا أن نتعرف على النزاع الدائر بينه وبين التجار الفرنسيين الذين أرسلوا العديد من الشكاوى ضده لأنه ألزمهم بتقديم الهدايا لابنته عند زواجها ، كذلك أحاط نفسه بأقاربه فكتب التجار يشكون « ان جميع عائلته في القاهرة وضواحيها » ومن خلال مراسلات لى مير أيضا تعرفنا على اهتمامه بالكشف عن الآثار المصرية والكتابة عنها من القناصل الذين أولوا الآثار اهتماما كبيرا (٢٠٠) .

وبعد وفاة لى مير لم يتم تعيين قنصل في القاهرة لفترة من الوقت الى أن تم تعيين بينون Pignon الذي وصل الى مصر

Clement : Op. Cit. P. 89.

Ibid. P. 107.

(١٩٩)

(٢٠٠)

عام ١٧٣٠ م فدار صراع بينه وبين التجار الفرنسيين كما حدث مع القناصل السابقين فشكا بينون من تصرفات التجار وكتب « ان فرنسا في حاجة الى قنصل لعلاج ما اصاب التجارة من تدهور » ويبدو أن شخصية بينون كانت اقوى من غيره من القناصل فعمل على اصلاح احوال التجار وأعلن ضرورة عودة التجار الفرنسيين الذين يخالفون النظام والقوانين فوجهت اليه غرفة التجارة بمارساليا الاتهامات ووصفته بالقسوة وسوء معاملة التجار فرد الوزير موروبا في عام ١٧٣١ م « ان الهدف هو صالح التجارة ولا مجال للعواطف فالقنصل يبحث عن الصالح العام » وكان بينون قد اقترح ترحيل التجار الفرنسيين من القاهرة واحلال تجار غيرهم واقترح وقف التجارة لمدة ستة أشهر وقد كتب الى غرفة تجارة مارساليا « ان القنصل في هذا البلد لا سلطة له على الفرنسيين » (٢٠١) .

كذلك كشفت لنا التقارير ومراسلات القنصل دامير D'Amirat (١٧٣٦ - ١٧٤٧) عن التنافس ايضا بين القنصل ونوابه حتى اضطر القاضي الفرنسي الى تهديدهم بأن يتولى امور القنصلية ابن شقيق القنصل البريطاني (٢٠٢) .

وقد وجدنا ان بعض القناصل لم تطب لهم الاقامة في مصر خاصة ليريكور Li Roncourt (١٧٤٧ - ١٧٥٠) الذي كتب « لقد أرسلت الى بلد لا يعرف المبادئ ولا المثل » وأعرب عن استيائه لارتفاع الأسعار في القاهرة « فالحياة فيها أغلى من باريس » وكتب يرجو صديقه السفير في روما أن يتوسط له ويتدخل لدى المسؤولين لارساله الى بلد آخر غير مصر (٢٠٣) .

Clement : Op. Cit., PP. 144 — 145.

Ibid P. 145.

Ibid P. 147.

(٢٠١)

(٢٠٢)

(٢٠٣)

وهكذا نلاحظ ان كتابات القناصل وتقاريرهم ألقت الضوء على أوضاع الجالية الفرنسية في مصر وعلى أوضاع التجارة كذلك الأوضاع السياسية في مصر من اضطرابات وتنافس وحروب أهلية كما سيجيء الحديث عنه .

ويعتبر القنصل الفرنسي مور (٢٠٤) من أهم القناصل بعد ميليه فقد تولى شئون القنصلية في مصر في فترة حرجية من تاريخها (١٧٧٤ - ١٧٨٩) وترجع أهميته الى الرسائل التي أرسلها الى السفير الفرنسي في الاستانة شوازيل جوفيه والتي تعتبر مصدرا هاما لأحوال مصر في تلك الفترة وهي محفوظة في أرشيف الخارجية الفرنسية وقد تم نشرها بواسطة إتيان كومب عام ١٩٢٧ م ويبلغ عدد هذه الرسائل ثمانية تناول فيها شئون التجارة وتكشف عن دور مور في تسهيل عقد معاهدات تجارية بين فرنسا وبكوات الممالك بواسطة تروجه ، وتضمنت آراؤه أهمية طريق البحر الأحمر وضرورة استخدامه لخدمة مصالح فرنسا التجارية كذلك كشفت رسائله عن الصراع بين مراد وإبراهيم بك من جانب وإسماعيل بك من جانب آخر وآثاره على أحوال البلاد الاقتصادية (٢٠٥) .

واذا كان بداية القرن الثامن عشر قد شهد ظهور القنصل الفرنسي ميليه الذي سجل مشاهداته عن مصر في كتابه « وصف

(٢٠٤) تولى قبله جوانفيل ١٧٥٢ - ١٧٥٨ م ثم داميرا فترة ثانية

١٧٥٩ - ١٧٧٤ م ثم مور .

Lettres De Mure Consul De France à Alexandrie à .

(٢٠٥)

M. G.R. Le Conte De choiseul-Gouffier Ambassade de France à La Sublime porte publiées par Etienne combe. Le Caire 1927 P. 192.

مصر « وهو يعتبر من أهم القناصل الذين تولوا خلال هذه الفترة فان السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر شهدت أخطر القناصل الا وهو ماجلون الذي دعى الى غزو مصر وكان لكتاباتة اثر واضح على قرار الحكومة الفرنسية .

وقد عمل ماجالون عند قدومه الى مصر في بداية الأمر وكيلا لأحد البيوت التجارية ١٧٦٨ م ثم تزوج من أرملة أحد التجار البنادقة الأثرياء (٢٠٦) وكانت تنتمى الى عائلة كبيرة تتاجر في الأنمشة وكان لزوجة ماجالون علاقات وطيدة مع نساء الممالك خاصة مراد بك وابراهيم بك مما مكنها من خدمة أهداف وأغراض زوجها . وقد تم تعيين ماجالون قنصلا عاما في الاسكندرية في عام ١٧٩٣ م وترجع خطورة ماجالون في الرسائل والتقارير التي أرسلها الى حكومة المؤتمر الوطنى والى لجنة الأمن العام ١٧٠٥ م أوضح فيها مدى ضعف مصر وضرورة الاستيلاء على السويس والبحر الأحمر ولاقناع الحكومة بأرائه طلب الاذن للسفر الى فرنسا فوصل باريس في عهد حكومة الادارة عام ١٧٩٧ م وأوضح أهمية احتلال مصر وقدم تقريره المشهور عن الأوضاع السياسية في مصر منذ العهد العثماني موضحا مساوىء الممالك وقد اتفقت وجهة النظر لماجالون مع الوزير تاليران وقرر المسئولون ارسال الحملة الفرنسية على مصر وأكد لهم ماجالون سهولة الاستيلاء عليها وان الخسائر الفرنسية ستكون طفيفة وان الغزو سيكون ضربة كبيرة ضد بريطانيا (٢٠٧) .

باستعراض اسماء القناصل الفرنسيين سنجد ان ميليه

Bernadi. (٢٠٦) يدعى :

Carré : Op. Cit., P. 83.

(٢٠٧)

هو الوحيد الذى نشر كتاباً باسمه حوى ملاحظاته القيمة عن مصر. فترك عملاً متكاملًا أما غيره من القناصل فلا نتعرف على آرائهم إلا من خلال التقارير والرسائل التى كانوا يتبادلونها مع السفراء الفرنسيين فى الأستانة أو غرفة تجارة مارسيليا وقد نشرت رسائل القنصل الفرنسى مور فى عام ١٩٢٧ م نشرها ايتيان كومب فألقت الضوء على أفكاره ودعوته لاستغلال البحر الأحمر وفتحه أمام الملاحة الفرنسية ، واتصالاته مع المماليك ولعل اخطر القناصل وأكثرهم شراً هو القنصل ماجالون ويمكن وصفه بالجاسوس فهو من أشد المحرضين على غزو مصر ، عاش فيها وتوثقت صلاته بمراد بك وإبراهيم بك وأفاد من تناحر القوى السياسية فحث بلاده على ضرورة غزو مصر . أما من ذكرنا أسماءهم من القناصل فقد تعرفنا من خلال تقاريرهم على أحوال الجالية الفرنسية وعلى أحوال مصر السياسية ولكن هذا لايعنى أن معظم القناصل كان لهم أثرهم الواضح بل على العكس نجد أن بعضهم قضى فترة عمله فى منازعات بينه وبين التجار الفرنسيين كما أسلفنا من قبل .

الفصل الثالث

أحوال مصر السياسية كما صورها القناصل والرحالة الفرنسيون

- أحوال مصر السياسية في النصف الأول من القرن
الثامن عشر *
- أحوال مصر السياسية في النصف الثاني من القرن
الثامن عشر *

ظل نظام الحكم العثماني يسير طبقا للأسس التي وضعت في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولكن ابتداء من الثلث الأخير من القرن السابع عشر بدأت الحكومة تفقد سلطاتها وسيطرتها على الولايات التابعة لها وذلك بسبب كثرة الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد دول أوروبا خاصة روسيا والنمسا ، أضف الى ذلك تدهور أوضاع الدولة الداخلية وانتشار الفساد في ادارتها المختلفة فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على مصر وهي من الولايات التابعة للدولة فبدأ الوالي العثماني يفقد سلطته تدريجيا بينما تزايدت وتصاعدت قوة الفرق العسكرية من أنكشارية وعزب (١) .

وبرز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عدة شخصيات قوية من المماليك مثلت الصفوة العسكرية في البلاد مثل على بك ومحمد بك أبو الذهب ومراد بك وإبراهيم بك فأصبح لهؤلاء النفوذ والسلطان بلا منازع (٢) .

وقد سجل الرحالة والقناصل الفرنسيون في كتاباتهم وتقاريرهم أحوال مصر السياسية في القرن الثامن عشر فلقوا

(١) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٢) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٦٣ .

الضوء على المنازعات بين الفرق العسكرية المختلفة خاصة في النصف الأول من هذا القرن كما سجلوا تصاعد نفوذ البيوتات المملوكية والتي قدر لزعمائها التحكم في مصر مصر السياسي حتى مجيء الحملة الفرنسية .

أجمع الرحالة والقناصل الفرنسيون على أن مصر حكمت وأديرت بواسطة ثلاث قوى رئيسية ألا وهي قوة الباشا والبكوات والأوجاقات العسكرية .

الباشا :

الواقع ان ما ذكره الرحالة عن سلطات الباشا العثماني تقترب كثيرا مما ذكره الرحالة الذين وفدوا على مصر في القرنين السابقين ولكن يمكننا القول بأن كتاباتهم في القرن الثامن عشر كانت أعمق وأكثر اسهابا ، واتفق رحالة وقناصل القرن الثامن عشر على ضعف سلطة الباشا في مصر بينما تزايدت قوة الانكشارية والماليك وقد فند هؤلاء الرحالة في كتاباتهم مهام الباشا على النحو التالي :

ذكر فورمون « ان الباشا هو حاكم البلاد نيابة عن السلطان ، له سلطة كبيرة وتمتد فترة حكمه الى ثلاثة أعوام وأحيانا أربعة ، وتعتبر هذه الوظيفة أى وظيفة « باشا مصر » من أهم الوظائف في الامبراطورية العثمانية ، ولا يحصل عليها الا من يمتلك ثروة كافية لرشوة رجال الدولة ، ويتراوح ما ينفقه المرء للحصول على هذه الوظيفة ما بين « ٤٠٠ ألف ايكو و ٥٠٠ ألف ايكو » (٣) وقد أكد القنصل الفرنسي ماجالون هذه

Fourmont : Op. Cit., P. 70.

(٣)

الحقيقة فذكر « ان اسماعيل باشا دفع أموالا طائلة في الاستانة للحصول على منصبه » (٤) .

ومن مهام الباشا كما أوضح جرانجيه « عقد الديوان ثلاث مرات أسبوعيا أيام الثلاثاء ، الخميس ، الأحد بحضور البكوات والأغوات ورؤساء الفرق العسكرية » (٥) . وقد أتيح للقنصل الفرنسي ميليه حضور إحدى جلسات الديوان وذلك بشأن شكوى قدمها التجار الفرنسيون الذين صودرت بضائعهم في جمر ك الاسكندرية فكتب معربا عن سروره « أتيح لي مشاهدة انعقاد الديوان وهو أمر لا ييسر للقناصل الا نادرا » (٦) .

ويعتبر ارسال كسوة الكعبة الى مكة من أهم مسئوليات الباشا ومن الطبيعي الا يدرك الرحالة وصف كلمة « كسوة » قوصفها فورمون بقوله « على الباشا ارسال العلم الى الكعبة سنويا » (٧) وتكون مصحوبة بالغذاء والحبوب (٨) .

ومن أهم واجبات الباشا ارسال الخزنة الى الاستانة التي قدرها القنصل الفرنسي ميليه « بستمائة ألف ريال سنويا » وتكون مصحوبة بهدايا من الحبوب والسكر (٩) وفي عام ١٧٨٩ م عدد ماجالون الهدايا التي أرسلها اسماعيل باشا الى الاستانة فذكر « الأرز والقهوة والسكر والبلح والزعفران والعاج والبندق

(٤) جلال يحيى : المرجع السابق ، ص ١٤٣ . Granger : Op. Cit., P. 25.

(٥) Maillet : Op. Cit., P. 157.

(٦) Fourmont : Op. Cit., P. 71.

(٧) Maillet : Op. Cit., P. 157.

(٨) Ibid. P. 157.

(٩)

والقمح وغير ذلك من الحبوب » وكان ارسال الخزنة يتم بطريقة منتظمة سنويا حتى تولى على بك الكبير فمنع ارسالها تعبيرا عن عدم تبعيته للدولة العثمانية ولكن محمد بك أبو الذهب انتظم في ارسالها ولكن بعد عودة مراد بك وابراهيم بك الى القاهرة في عام ١٧٩١ م انقطع من جديد وصولها الى الاستانة (١٠) .

واكد فولنى ان « الممالك كانوا يسقطون من الخزنة مقدار نفقات شق وتنظيف الترع ونقل أوساخ القاهرة الى البحر ومرتبات الجنود وترميم الجوامع ولكن جميعها على حد قول فولنى نفقات وهمية كاذبة والباب العالي يغش النظر الطرف » (١١) .

ومن مهام الباشا « تبليغ أوامر الباب العالي وحماية مصر والحرص على أمنها من الاخطار الخارجية والحيولة دون وجود أحزاب فيها ، وقد أعطى أعضاء الديوان الحق في رفض أوامر الباشا على أن يعللوا سبب رفضهم » (١٢) ولكن « بمرور الوقت ضعفت سلطة الباشا بينما قويت سلطة الزعماء العسكريين » (١٣) وقد عبر فولنى عن تدهور سلطة الباشا حتى انه أصبح محصورا في القلعة مقيدا مراقبا فهو سجين الممالك أكثر مما هو ممثل السلطان وهو معرض للخطر والطرود في أى وقت (١٤) وقد أكد سافارى على هذا الضعف في كتاباته « ان منصب الباشا هو من أنواع النفي فهو لا يستطيع ان يخرج من القلعة الا بأذن من شيخ البلد ، وهو سجين يرى نفسه وقد أحيط بمظاهر

Hanotaux : Op. Cit., P. 157.

(١٠)

(١١) فولنى : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(١٢) المرجع السابق : ص ٧٥ .

Olivier : Op. Cit., P. 186.

(١٣)

(١٤) فولنى : المرجع السابق ص ١٠٨ .

الأبهة ومن خلال هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التي يرسف فيها فهو لا يد له في شئون الحكومة ومرتبته محدود بما يدخل من رسوم جمرك السويس والمتاجر التي ترد من البحر الأحمر على أن البكوات يبذلون له أكثر من ذلك فالباشا الحاذق يستطيع بمهارته ودسائسه أن يستجلب عطف الحزب الغالب من الممالك فيدر عليه الشروة ، وللباشا منبع آخر للمال فان الممالك الذين يعينهم الديوان سناجق يدفعون الى الباشا اتاوة لاقرار هذا التعيين ، واليه يؤول ميراث الملاك الذين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر في منصبه أو مركزه ويجد منه الغنى في سنوات قليلة ولكنه في حاجة الى الحذر الشديد في كل ما يأتي وما يدع لأن أصغر هفوة تورث موارد الحنف ، وقد يحدث أحيانا انه مع حذره ودهائه ينقلب عليه قصده وذلك اذا طفى بعض السناجق على الحزب الغالب من البكوات الذي ينتمى اليه الباشا فيسلبه السلطة ويرتفع الى مشيخة البلد ، ومن ثم لا يكون الا أن يطرد الباشا فيخرج منها مذبذوبا مدحورا (١٥) .

أورد القناصل والرحالة أسماء العديد من ولاية مصر مؤكدين بأن من مهامهم الرئيسية « العمل على حماية الفرنسيين وتوفير الأمان لهم » على حد قول جرانجيه (١٦) .

وقد رجعت الى كتابات المؤرخين المسلمين في ذلك الوقت أو العصر لمقارنتها بما كتبه الرحالة والقناصل الفرنسيون على أساس أن كتابات هؤلاء المؤرخين تمثل مصدرا هاما لتلك الفترة

(١٥) عبد الرحمن الراقى : المرجع السابق ص ٤١ .
Grauger : Op. Cit., P. 222.

(١٦)

فوجدت تطابقا كبيرا ودقة في التواريخ التي أوردها الفرنسيون خاصة ما ذكره الأمير أحمد الدمرداشي (١٧) في « الدرة المصانة » .

ومن أهم الأسماء التي حرص الفرنسيون على تسجيلها اسماعيل باشا (١٦٩٥ - ١٦٩٧) الذي وصفه ميليه « بأنه يمتاز بجمال الهيئة وهو أفضل وأقوى من قابلت » (١٨) .

أما أحمد الدمرداشي فقد ذكر تاريخ تولية اسماعيل باشا من ١٧ صفر عام ١١٠٧ هـ حتى ١٩ صفر عام ١١٠٩ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٦٩٥ م حتى ١٦٩٧ م وقد وصف اسماعيل باشا وصفا يقترب من وصف ميليه فأكد على قوة شخصيته وحرصه الدائم على استتباب الأمن في البلاد (١٩) .

ويبدو ان اسماعيل باشا كان على علاقة طيبة مع الفرنسيين فقد اثنى عليه ميليه ثناء كبيرا ووصفه بأنه « من أكفأ حكام الامبراطورية العثمانية » وقد اشتهر بالشجاعة والعدل « وأكد ميليه « أن الفرنسيين في عهده تمتعوا بالحماية والصداقة » (٢٠) .

(١٧) كنى بالدمرداشي نسبة الى الطريقة الصوفية التي انتمى اليها - التحق بأوجاق العرب وتدرج في المناصب حتى وصل منصب كتخدا أوجاق العزب وعن طريق المناصب التي تولاها عمل على رصد احداث مصر في تلك الفترة منذ أواخر القرن ١٧ حتى منتصف القرن ١٨ فعمل على تسجيل الملاحظات السياسية والأزمات الاقتصادية وأوضح اتصالات المالك وضرعاتهم . // Hanotaux : Op. Cit., P. 19. (١٨)

(١٩) الأمير أحمد الدمرداشي : كتاب الدرة المصانة تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد العلمى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٩ م ص ٢٦ ، ص ٢٩ . (٢٠) Mallet : Op. Cit., P. 17.

كذلك أعرب ميليه عن سروره عندما عين قره محمد باشا (٢١) مؤكدا أن الفرنسيين نعموا بالأمان في عهده « فهو صديق للفرنسيين » (٢٢) .

ولا جدال أن المدح أو الذم في حكام مصر من الباشوات توقف على نوعية علاقتهم مع القنصل الفرنسي فإذا قويت العلاقة نجد المدح والشكر وإذا ساءت بين الطرفين نجد الذم والنقد ، فنجد ميليه يكتب متحسرا على عزل قره محمد باشا باعتباره صديقا للفرنسيين ويرى « أن عزله تم غدرا » وقد تأكدنا من حادثة عزل قره محمد باشا فقد ذكرها الدمرداشي بقوله « نزل محمد باشا حاسبوه غلق ما عليه من مال وغلل وتراقى سفر ومعتاد وفرش قايمقام أوضة شهر حواله ، وعين له تعيين لما يجي الباشا » (٢٣) .

أما محمد باشا رامى فقد تولى الحكم في (٦ شعبان ١١١٦ - ٧ شوال ١١١٨ هـ) الموافق ٤ ديسمبر ١٧٠٤ - ١٢ يناير ١٧٠٧ م وقد اثنى عليه القنصل الفرنسي ميليه مؤكدا « أن لديه معرفة بالعلوم والفنون والطب والفلسفة » وذكر ميليه أن الباشا كان على درجة كبيرة من الثقافة تحدث معه لفترات طويلة عن أوروبا وعلومها كما أنه أبدى إعجابه بتقدم فرنسا العلمى وانتشار اللغة الفرنسية في أوروبا وأشاد بعظمة ملوك فرنسا وخروبهم وفزواتهم » وقد وصفه ميليه بأنه سياسى كبير فى الامبراطورية العثمانية وأبدى أسفه لعزله (٢٤) .

(٢١) تولى فى ٢٤ ربيع الثانى ١١١١ هـ الى غرة رجب ١١١٦ هـ الموافق ١٩ اكتوبر ١٦٩٩ حتى ٣٠ اكتوبر ١٧٠٤ م .
Mallet : Op. Cit., P. 17. (٢٢)

(٢٣) أحمد الدمرداشي : المرجع لسابق ص ٦٩ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 19. (٢٤)

ومن الأسماء التي ورد ذكرها أيضا ابراهيم بك (٢٠ يناير عام ١٧١٠ - ٩ سبتمبر ١٧١٠ م) الموافق ١٩ ذى القعدة عام ١١٢١ هـ - ١٥ رجب ١١٣٣ هـ وأكد القنصل الفرنسي بأن ابراهيم باشا كان يعمل في البحرية وهو قائد بحري (٢٥) « وقد ذكر أحمد شلبي ان ابراهيم باشا قبودان وفد الى مصر في زمن فتنة افرنج أحمد » التي سيرد ذكرها (٢٦) .

أما علي باشا الحكيم فكانت مدة ولايته ١١٥٣ - ١١٥٤ هـ (١٧٤٠ - ١٧٤١ م) وقد أشاد القنصل الفرنسي به فوصفه بالعدل والادارة الحازمة كما انه كان من أهم المفاوضين في معاهدة بلجراد (٢٧) وبالإطلاع على ما كتبه أحمد الدمرداشي نجد انه أورد بالفعل أمثلة على عدالة علي باشا فكتب انه « اهتم بمعاينة الباعة والتشدد في الموازين » كما ذكر حديثا له في إحدى جلسات انعقاد الديوان ينم عن رغبته في تحقيق العدل « أنا ما أتيت الا الى خلاص المال نقد في الديوان ، ومال صرة الحرمين ، والخزينة العامرة ثانی يوم في توت ، واصرف الجوامك الشهرية ثالث يوم في الملوك ، والغلال كذلك ندخل الشون العامر ، وارسل غلال الحرمين ، ومن له شيء يأخذه من الشون » (٢٨) .

كذلك اثنى القنصل الفرنسي ليرنكور على أحمد باشا الذي تولى من (١٧٤٨ - ١٧٤٩ م) الموافق ١١٦٢ - ١١٦٣ هـ فكتب يصفه « بالأدب الشديد حتى انه في أخلاقه يماثل أخلاق النبلاء مهتم بالعلوم الرياضية » (٢٩) .

Ibid. P. 17.

(٢٥)

(٢٦) انظر أحمد الدمرداشي : المرجع السابق ص ٧٩ - ص ٨٣ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 17.

(٢٧)

(٢٨) أحمد الدمرداشي : المرجع السابق ص ٢٢٥ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 18.

(٢٩)

اما مؤرخنا العظيم الجبرتي (٣٠) فقد اطلعت على ما ذكره عن أحمد باشا فوجدت تقريبا وصفا يماثل وصف القنصل الفرنسي فقد كتب بأنه يميل الى الرياضيات ، درس مع الشيخ حسن الجبرتي يقضي اوقات فراغه في عمل المزاويل التي زود بها الجامع الأزهر (٣١) .

وهكذا أمدنا القناصل الفرنسيون بأسماء عدد من باشوات مصر في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، أوردنا بعضا منها والتي يتضح لنا اختلاف اهتمامات وأعمال أصحابها فنجد ان من بينها السياسي مثل رامى محمد باشا ومنها القائد البحرى مثل ابراهيم باشا قبودان والدبلوماسى مثل على باشا وغيرهم .

وبمقارنة ما كتبه هؤلاء القناصل مع ما كتبه المؤرخون المعاصرون وجدنا صدقا كبيرا في كتابات هؤلاء القناصل خاصة تجاه الحكام الذين كانوا على صلة طيبة معهم . وكان من الطبيعى أن يجيء وصف القناصل عن الباشوات وحديثهم عن علومهم واهتماماتهم أكثر مما كتبه الرحالة الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة وذلك بحكم عمل القناصل واحتكاكهم وقربهم من السلطات الحاكمة في مصر وبقائهم في مصر عدة سنوات فمعرفتهم بالباشوات كانت أوثق لأنهم كانوا الأكثر قربا كما اننا نلاحظ ان الحديث عن الباشوات اقتصر على النصف الأول فقط من القرن الثامن عشر لأنه كما هو معروف ان النصف الثانى من هذا القرن شهد نمو قوة المماليك وظهور شخصيات قوية منهم سيطرت وهيمنت على الحياة السياسية في مصر .

(٣٠) أثنى الجبرتي على العديد من باشوات مصر مثل عبد الله باشا ١٧٢٩ - ١٧٣١ م وذكر انه ملما بالقرآن والفلسفة وكتب التوحيد .
(٣١) جلال يحيى : المرجع السابق ص ١٢١ .

يعتبر الممالك القوة السياسية الثانية التي تحدث عنها الرحالة الفرنسيون فهم « حكام مصر الحقيقيين » على حد قول البارون دي توت (٣٢) وقد وكل الى البكوات الممالك مهمة ادارة الولايات الخمس الكبرى في مصر وهي جرجا - الغربية - المنوفية - الشرقية - البحيرة (٣٣) كذلك وكل اليهم ادارة ولحكم اقاليم مصر فذكر جرانجيه « ان مصر قسمت الى اربع وعشرين سنجقية يحكم كل منها سنجق أو بك (٣٤) . وكانت مهمة البكوات الدفاع عن السناجق التي يتولون ادارتها (٣٥) وقد شبههم اوليفيه بأنهم يشكلون « البوليس الداخلى لمصر » كما أكد فورمون أن من أهم مهامهم « الدفاع عن سناجقهم ضد هجمات العرب والبدو (٣٦) أى أن مهمتهم واضحة وهى المحافظة على الأمن الداخلى » على حد قول فولنى (٣٧) .

ولا تقتصر مهمة البكوات على الدفاع عن سناجقهم فحسب وإنما « عليهم جمع الضرائب » (٣٨) وارسال كمية من الحبوب الى الباشا خاصة القمح والشعير (٣٩) كذلك الاشراف على الجسور وتطهير الترع والاهتمام برى الأراضى وذكر اوليفيه أن بك البحيرة كان يتولى الاشراف على القناة التى تمتد الاسكندرية بمياه النيل وأنه كان يضع عليها حراسا لمنع العرب من استخدامها

De tott : Op. Cit., P. 12.

(٣٢)

فولنى : المرجع السابق ص ٧٥ .

Granger : Op. Cit., P. 24.

(٣٣)

Olivier : Op. Cit., P. 184.

(٣٤)

Fourmont : Op. Cit., P. 74.

(٣٥)

(٣٦)

فولنى : المرجع السابق ص ٧٥ .

Olivier : Op. Cit., P. 184.

(٣٧)

Fourmont : Op. Cit., P. 77.

(٣٨)

(٣٩)

حتى تمتلىء صحاريج مدينة الاسكندرية بالمياه وذكر أوليفيه أنه في مقابل هذه المهمة كان يحصل على راتب قدره ٢٣٧٥ قرشا (٤٠).

وجدير بالذكر أن الرحالة الفرنسيين اجمعوا على وصف البكوات المماليك « بالطغيان » فما من أحد منهم زار مصر في القرن الثامن عشر إلا وأضفى هذه الصفة عليهم فكتب سونيني عنهم « أن مصر يحكمها أربعة وعشرون طاغية يتحكمون في مقدرات مصر » ولا يعملون لصالحها ولا يهتمون إلا بتنمية ثرواتهم « وهؤلاء الطغاة يحكمون بلا قوانين ، لقد قضوا على آمال وطموح الشعب المصري فالسلطة كلها في أيديهم » (٤١) .

والحقيقة أن الصفاق صفات الطغيان والقسوة والظلم بامماليك وظهورهم بهذا المظهر السيئ ترجع إلى الفترة التي امتدت للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ولكن هذا لا يمنع من وجود بكوات اتصفوا بصفات حميدة وحسنت سيرتهم وقد زودنا الجبرتي بأستثناء العديد منهم فمنهم من اتصف بالمطف (٤٢) والبر (٤٣) والأمانة (٤٤) والصرامة (٤٥) والزوجة (٤٦) والعلم (٤٧) الخ .

Olivier : Op. Cit., P. 60.

(٤٠)

Sonpini : Op. Cit., + 2 P. 315.

(٤١)

(٤٢) مثل إبراهيم بك أبو شنب .

(٤٣) حسن كتحدا .

(٤٤) عثمان بك ذو الفقار أنشأ في بيته دواوين لإقامة العدل وانصاف

المظلوم .

(٤٥) على أغا الذي تشدد مع المطففين .

(٤٦) ابن أيوظ .

(٤٧) على بك الدفتردار الذي كان يجمع العلماء في بيته للمناظرة

ودراسة الفقه وعلوم اللغة .

وقد عمل المماليك كشافا ومنهم من ارتقى بعد ذلك الى بك والكشافون يعاونون البكوات في الادارة « وتعتبر وظيفة الكاشف من اهم الوظائف » على حد قول لوكا (٤٨) . فقد كان لهم نفوذ كبير في البلاد وقد ذكر المترجم الفرنسى ديجون في عام ١٧٧٨ م « انه كان لبعضهم نفوذ اكثر من البكوات » ومن الطريف ان سيكار وصف أحد كشافى مصر العليا عام ١٧١٤ م « بأنه ادميرال يتجول وسط النيل بمركبه ويسير بصحبته عشرة مراكب » وتعزف الموسيقى له طوال الوقت « (٤٩) .

وقد عمل بعض الكشافين في القاهرة خاصة في حلوان ، وكان على الكشاف البقاء في القاهرة خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ، كما عمل البعض منهم مندوبين عن البكوات ففي عام ١٧٦٣ م أرسل ابراهيم بك كاشفا الى مانجالون للتفاوض مع الحكومة الفرنسية على بعض الأمور (٥٠) .

أما شيخ البلد فقد عاون البكوات والكشافين في الادارة (٥١) وقد وصفه فولنى بأنه حاكم مدنى دون سلطة عسكرية (٥٢) - وقد فند أوليفيه المهام التى عمل بها المماليك جملة واحدة منهم « بكوات السناجق - حكام المديريات - كبار الموظفين - كخيا الوالى - دفتر دار - أمير الحج - الخازندار - قبودنات ثفور دمياط ، السويس ، الاسكندرية - بكوات الولايات الخمس الهامة (٥٣) .

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 151.

(٤٨)

Hanotaux : Op. Cit., P. 62.

(٤٩)

Ibid, P. 62.

(٥٠)

De tott : Op. Cit., P. 7.

(٥١)

(٥٢) فولنى : المرجع السابق ص ٧٥ .

Ollivier : Op. Cit., P. 184.

(٥٣)

أما عن أعداد المماليك فقد ذكر فولنى أن « أعدادهم تضاعفت في آواخر القرن الثامن عشر وقد عددهم بثمانية آلاف رجل بين بكوات وكشافين ومعتقين وأعظم البيوتات إبراهيم بك الذي يتألف من ستمائة مملوك ثم مراد بك وله أربعمائة وهناك نفر من المماليك ينحدرون من بيوت منقرضة وهم على استعداد للانضمام لمن يزيدهم عطاء ويوجد منهم السراجون من خدم الجياد ينقلون أوامر البكوات وعددهم عشرة آلاف فارس (٥٤) .

وقد أفاض الرحالة الفرنسيون في الحديث عن أصول المماليك وطريقة جلبهم من القوقاز وغيرها من المناطق الأوروبية وأفاضوا في الحديث عن علاقة المملوك بسيده ومدى ارتباطه به ، وأعجبوا إعجابا شديدا بملابسهم وأسلحتهم وتدريباتهم المختلفة حتى أن سافاري كتب « لو أن المماليك تم تدريبهم على النمط الأوروبي بواسطة ضباطنا الفرنسيين لأصبحوا أشجع المقاتلين من بين أمم الصالم » . ولكنهم « يقاتلون دون خطة محددة أو مدفعية تحميهم » (٥٥) .

عاش المماليك في مصر حياة مترفة فذكر لوكا أنهم « امتلكوا أفخم وأجمل المنازل في القاهرة وسكنوا في الأحياء الراقية مثل السيدة زينب وبركة الفيل والأزبكية منازلهم تحيط بها الحدائق مثل منزل مصطفى الكاشف وإبراهيم السناري لديهم أجمل وأفخم اصطبلات الخيل تسع من أربعين إلى خمسين حصانا (٥٦) . وهم يتمتعون بالثراء يملكون الأراضي وقد ذكر القنصل الفرنسي لى مير أن المماليك اعتادوا شراء العديد من

(٥٤) فولنى : المرجع السابق ص ١١٠ .
Savary : Op. Cit., + 2 P. 196.

(٥٥)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 82.

(٥٦)

الأراضي وان إبراهيم بك اشترى مائتي قرية وأصبح سيدا على مصر العليا وأمتلك اسماعيل بك خمسا وأربعين قرية تدر عليه مليون قرش كل عام (٥٧) .

ورغم ثراء الممالك والحياة الراغبة التي كانوا يحيونها « إلا أنهم كانوا لا يفكرون في مصلحة مصر فكل ما يتطلعون اليه هو تنمية ثرواتهم وان أصغر ضابط فيهم يمكن أن يصبح طاغية وكل ما يفعلونه هو القتال فيما بينهم ، أنهم طغاة مثل الحيوانات المتوحشة يتقاتلون على الفريسة الا وهي الشعب المصري الذي لم يعرف الراحة أبدا ولم يستمتع بخيرات بلاده » على حد قول أوليفيه (٥٨) .

Hanotaux : Op. Cit., P. 72.

Ollvier : Op. Cit., P. 178.

(٥٧)

(٥٨)

أما القوة الثالثة التي هيمنت على البلاد وكان لها دورها
الفعال خاصة في النصف الأول من القرن الثامن عشر فهي قوة
الأوجاقات العسكرية التي أصبحت تدور في فلك البيوت المملوكية
وقد بلغ عدد الأوجاقات في مصر سبع أوجاقات ونظم وضعها كما
ذكر سافاري وفقا لقانون نامة الصادر في عام ١٥٢٥ م
(٩٣١ هـ) (٥٩) . وتميز أوجاق الانكشارية عن باقي الأوجاقات
بتزعم قائدها أغا الانكشارية القوات العسكرية في مصر فكانت
له الكلمة العليا في البلاد وقد ذكر ميليه « ان السلطة كلها في يد
الانكشارية لا يستطيع الباشا تعيين قائد لهم دون أخذ موافقتهم »
وهم أقوى الفرق ، ينتخبون قائدهم ، ويحضرون الديوان ،
يتولون حراسة القنصليات الأجنبية ومنهم من يتولى حراسة
القلعة يسمون أوجاق المستحفظان « وقد اهتموا بجمع الأموال
من أثرياء القاهرة واشتروا بها قرى بأكملها كما انهم كانوا يجبرون
التجار الأجانب على دفع مبالغ طائلة لهم . وكان للانكشارية
نفوذ كبير على التجار الفرنسيين فتعددت الشكاوى منهم وقد
كتب القنصل الفرنسي ميليه بالفعل الى غرفة تجارة مارسيليا
يشكو من قوتهم وقسوتهم مع التجار الفرنسيين وعبر عن ذلك
بقوله « لا أحد يجهل نفوذهم في هذا البلد (١٠) . ولكن رغم

Savary : Op. Cit., + 2 P. 196.

Maillet : Op. Cit., P. 16.

(٥٩)

(١٠)

تعدد الشكاوى من الفرنسيين من المبالغ التى كانوا يضطرون لدفعها للانكشارية الا انهم كانوا يلجأون اليهم لحمايتهم خاصة ابان فترات الاضطرابات والفتن التى تسود القاهرة ، وذكر القنصل الفرنسى بيلرون عام ١٧١١ م « انه اضطر الى طلب الحماية من الانكشارية اثناء فتنة افرنج أحمد خوفا على حياة وتجارة الفرنسيين » وأكد هذه الحقيقة القنصل بينون فكتب عام ١٧٣٠ م « ان مصالحنا مع الانكشارية فلهم نفوذ يتميزون . » عن باقى الأوجاقات « (٦١) .

واذا كان النصف الأول من القرن الثامن عشر قد شهد تصاعد نفوذ الانكشارية ووكل الى اغيا المستحفظات العمل مع المحتسب للاشراف على المين المختلفة وتفقد الأسعار الا انه فى أواخر القرن الثامن عشر ضعفت سلطتهم بسبب اشتغالهم بالتجارة « حتى أصبحوا تجارا أثرياء وأصحاب حرف » فكتب فولنى « أصبح الانكشارية اليوم خليطا من الصناعيين والمرزقة المتشردين الذين يرتضون حراسة أى باب لقاء أجر يومية يتقاضونه ويرتجفون أمام المماليك (٦٢) . وقد قدر جرانجيه أعدادهم بنحو اثنى عشر ألفا (٦٣) .

أوجاق العزبان : مشاة مسلحون بالبنادق يتولون اداء خدمات التشريف للباشا وحراسة القلعة بالاشتراك مع الانكشارية وكان سردار العزبان يشرف فى الاسكندرية على الجلود الواردة الى مصر (٦٤) وقد قدر جرانجيه أعدادهم بنحو

Raymond, André : Artisans et Commerçants au Caire (٦١)
au XVIII Siècle Damas 1974. P. 006.

(٦٢) فولنى : المرجع السابق ص ١١٠ .

Granger : Op. Cit., P. 325. (٦٣)

Olivier : Op. Cit., P. 19. (٦٤)

ثمانية آلاف (٦٥) وقد لمعت عدة شخصيات منهم ، ذكر منها ميليه الشوربجي والصابونجي اللذين تمتعا بالهيبة والنفوذ في البلاد (٦٦) ويعتبر الكخيا هو رئيس الحزب وذكر أوليفيه « انه كان له نفوذ كبير في القاهرة ولا بد لأى أوروبى عند زيارته للقاهرة ان يحصل على اذن من كخيا الحزب » (٦٧) .

أوجاق المتفرقة : تكون من أفراد جلبوا الاستانة الى جانب نفر من المماليك دخلوا في خدمة الدولة وهم الحرس الخاص للبasha وحراس القلاع والثغور خصصوا لحماية قلاع وثغور مصر البحرية في الاسكندرية - رشيد - دمياط - السويس ومن الطريف ان ميليه كتب عنهم « انهم لا قيمة لهم » (٦٨) أما فورمون مدحهم قائلا « انهم من أنبل الفرق يتولون حراسة قلاع مصر كلها فيما عدا القلعة وتقدر أعدادهم بنحو ألفين » (٦٩) وعلى رأسهم اغا يعتبر زعيمهم (٧٠) .

أوجاق الجاويشية : يتكون من بقايا المماليك الذين أعلنوا ولاءهم للدولة العثمانية وعملوا فرسانا مهنتهم خدمة الديوان وتنفيذ أوامر البasha وهم يتجولون على ظهور الخيل لتفقد أحوال البلاد (٧١) .

أما السباهية : فمعناها راكبو الخيول وتشمل ثلاث

Granger : Op. Cit., P, 225.	(٦٥)
Maillet : Op. Cit., P. 10.	(٦٦)
Ollvier : Op. Cit. P. 18.	(٦٧)
Hanotaux : Op. Cit. P. 39.	(٦٨)
Fourmont : Op. Cit., P. 80.	(٦٩)
Granger : Op. Cit., P. 225.	(٧٠)
Ibid, P. 226.	(٧١)

أوجاقات وهم . أوجاق الجوميلية الذين يحافظون على الأمن ،
وأوجاق التفنكجية وهم فرسان يحملون البنادق ويتولون الحراسة
في الريف ، وأوجاق الجراكسة وهم أصلا من المماليك الجراكسة
وهذه الفرق الثلاث متشابهة وزعت للعمل في خدمة البكوات
وحكام الأقاليم (٧٢) .

وكل أوجاق له قائد وكخيا ، وجميع الأوجاقات من الفرسان
فيما عدا العزب والانكشارية فكانا من المشاة ولهذه الأوجاقات
السبع خزانات مشتركة ويملكون العقارات والأراضي والقرى
وكانوا يحتقرون البكوات (٧٣) وهم يمثلون جزءا أساسيا من
النظام الحاكم في مصر (٧٤) .

وقد قدر جرانجيه عدد فرسان الأوجاقات الخمسة بنحو
عشرين ألفا أى مجموع أفراد أوجاقات السباهية قدر بنحو
أربعين ألفا « ١٢ ألفا من الانكشارية وثمانية آلاف من العزب
وعشرون ألفا من الفرسان » (٧٥) وتحصل هذه الفرق على
راتبها من القلعة كل ثلاثة أشهر ولم يعد للبasha سلطة عليها (٧٦) .
وقد أثارت هذه الفرق الاضطرابات في البلاد بسبب المنازعات
فيما بينها حتى أن الجبرتي ذكر أن أى حادث في مصر لا يكتمل
بدون تدخل الأوجاق (٧٧) .

Ibid, P. 226.

(٧٢)

(٧٣) قولنى : المرجع السابق ص ٧٨ .

Matillet : Op. Cit., P. 16.

(٧٤)

Granger : Op. Cit., P, 225.

(٧٥)

Fourmont : Op. Cit., P. 82.

(٧٦)

Hanotaux : Op. Cit., P. 41.

(٧٧)

أحوال مصر السياسية في النصف الأول من القرن الثامن عشر

عانت مصر في النصف الأول من القرن الثامن عشر من تأزم العلاقات بين أوجاق الانكشارية وباقي الأوجاقات العسكرية الستة كما شهدت نزاعا طاحنا بين رؤساء البيوتات العسكرية وبين الباشا الحاكم وأصبحت مصر مرتعا للحروب الأهلية والمنازعات بين القرى المختلفة (٧٨) وقد عبر القناصل الفرنسيون عن أوضاع مصر السياسية خلال هذه الفترة أصدق تعبير وبمقارنة ما دون مع ما كتبه مؤرخو مصر المعاصرون للأحداث في تلك الفترة خاصة كل من أحمد الدمرداشي وأحمد شلبي (٧٩) وجدنا تطابقا كبيرا .

في النصف الأول من القرن الثامن عشر وبالتحديد حتى

(٧٨) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٧٩) أحمد شلبي عبيد الغنى : أوضح الاشارات فيمن تولى مصر ، القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني تقديم وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة ١٩٧٨ م .

سيطرة على بك الكبير على الحكم في مصر انتشرت الاضطرابات وتكرر عزل الباشوات وتآزمت العلاقات بين الأوجاقات العسكرية السبعة خاصة بين الانكشارية والعزب ولنقرأ سويا ما كتبه القنصل الفرنسي ميليه في ٢٩ أكتوبر عام ١٦٩٧ م الى الوزير الفرنسي بونشتران « لقد تزايد نفوذ الانكشارية بصورة واضحة وهم يحاولون الاستيلاء على ايرادات الجمارك وقد طلب منهم اسماعيل باشا تسليم الأموال لخزانة الدولة فرفضوا فاشتعلت النار بين الطرفين واستمر النزاع ثلاثة أشهر أسفر عن عزل الباشا (٨٠) .

ولنقرأ ما سجله أحمد الدمرداشي بشأن عزل اسماعيل باشا من قبل الانكشارية « أرسلوا للباشا من كل بلوك اثنين اختيارية ، يقول له ان المساكر قامت على اختيارتها ، والاختيارية قامت على اغواتها ، والأغوات قامت على السناجق ، ولم يرضوك حاكم مصر » (٨١) .

ويستمر ميليه مؤكدا في كتاباته تصاعد ونمو قوة الانكشارية فكتب في ١٧٠٣ م « لقد تزايدت قوة الانكشارية ، فلم يعد الباشا قادرا على تعيين أى شخص دون أخذ موافقتهم لقد أصبحت السلطة في أيديهم » (٨٢) ، وبزغ نجم على اغا في ذلك الوقت ومثل أكبر قوة للانكشارية فعمل التجار الفرنسيون على التقرب والتودد اليه وأهداه ميليه سترة من فرو الثعلب ولكن يبدو أن على اغا كان يريد المزيد فطلب من القنصل تقديم هدية مالية له حتى يسمح للتجار الفرنسيين بالاتجار في البن فرفض التجار

Hanotaux : Op. Cit., P. 91.

(٨٠)

(٨١) الأمير أحمد الدمرداشي : المرجع السابق ص ٢٧ .
Clement : Op. Cit., P. 193.

(٨٢)

ولكن على بك، عمل على التنكيل بهم وألقى القبض على التاجر الفرنسي لازار بلان وكان شقيق القنصل الفرنسي في حلب لأنه كان مرتديا غطاء رأس لونه أبيض (٨٢) وأمر بضربه بالعصى والسياط فتدخل ميايه طالبا من الباشا عزل على أغا لأنه « رجل لا خير فيه » ولكن كان من الصعب تنفيذ ذلك خاصة وان الانكشارية « تمسكوا به » (٨٤) .

وفي عام ١٧٠٣ م قتل على أغا فبزغ نجم جديد هو اسماعيل بك الذي جذب الانتباه في البلاد ووصفه ميايه « انه حقا ملك مصر » (٨٥) .

وفي عام ١٧٠٩ م نشب صراع بين الانكشارية والجاويزية سرعان ما استدار الى باقى الأوجاقات فاندلعت الحرب الأهلية فكتب بليرون « ان الانكشارية يريدون الاستيلاء على القوة والنفوذ في مصر » (٨٦) كذلك تدهورت الأحوال عندما طالب أصحاب النفوذ في البلاد من الباشا منع بيع البن للفرنسيين واحتج الأوجاق بانهم لا يحققون أية أرباح من البن الذى يباع للتجار الفرنسيين فاضطر الباشا لاطلاع القنصل الفرنسي بليرون على حقيقة الموقف (٨٧) . وقد سجل الجبرتي هذه الحادثة في حوادث ذى الحجة عام ١١٢٠ هـ الموافق ١٧٠٩ م « ثم ان اهل الأوجاقات الستة اجتمعوا واتفقوا على ابطال المظالم المتجددة بمصر

(٨٢) كان يحرم على الأوروبيين واهل الذمة ارتداء اللونين الأخضر

والأبيض .

Clement : Op. Cit., P. 198.

(٨٤)

Hanotaux : Op. Cit., P. 95.

(٨٥)

Raymond : Op. Cit., P. 754.

(٨٦)

Ibid. P. 754.

(٨٧)

وضواحيها وكتبوا ذلك في قائمة واتفقوا أيضا ان من كان له وظيفة بدار الضرب والآباء والتعريض بالبحرين !و المذبح لا يكون له جامكية في الديوان ولا ينتسب لوجاق من الوجاقات وان لا يحتسب أحد من أهل الأسواق في الوجاقات وان ينظر المحتسب في أمورهم ويحرر موازينهم على العادة وان يركب معه نائب من باب القاضي مباشرا معه وان لا يتعرض أحد للمراكب التي ببحر النيل التي تحمل غلال الأبقار وان يحمل الغلال المذكور جميع المراكب التي ببحر النيل ولا تختص مركب منها بباب من ابواب الوجاقات وان ما يدخل مصر من بلاد الأمناء باسم الأكل لا يؤخذ عليه عشر وان لا يباع شيء من قسم الحيوانات والقهوة الى جنس الافرنج « (٨٨) » .

أدرك الفرنسيون في مصر مدى قوة ونفوذ الانتكشارية فسعوا لارضائهم والتودد اليهم فعندما عين افرنج أحمد زعيما للانتكشارية أسرع القنصل الفرنسي بيلرون بتقديم التهنئة والهدايا له (٨٩) . ولكن الفرنسيين لم يتمتعوا طويلا بصداقة افرنج أحمد اذ نشبت الحرب الأهلية في البلاد واستمرت لعدة سنوات بين الانتكشارية والعزب كان النصر فيها من نصيب العزب بقيادة ابراهيم بك رغم ان افرنج أحمد انحاز اليه الباشا وبعض بكوات الصعيد وأمدوه بالأسلحة وأرسلوا البدو لمساعدته وسجل بيلرون قنصل فرنسا في القاهرة خلال هذه الفترة أنباء الفتنة وكتب الى حكومته يشكو سوء حالة الجالية الفرنسية « لقد عانينا من الحرب الأهلية وتعرض الحي للهجوم عدة مرات » (٩٠) .

(٨٨) عبد العزيز الشناوى ، جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ

الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٦٩ م ص ٤٤٩ ، ص ٤٥٠ .

Hanotaux : Op. Cit., P. 97.

(٨٩)

Ibid. P. 96.

(٩٠)

وجدير بالذكر انه اثناء اندلاع هذه الحرب اتهم الفرنسيين بمساعدة الانكشارية واعتقد العزب انهم يمدون الانكشارية بالأسلحة فقد حدث ان أطلق الانكشارية نيران المدافع من القلعة على العزب فقتلوا ثلاثا منهم واعتقد العزب ان الفرنسيين امدوا الانكشارية بالأسلحة فهاجموا الحي الفرنسى واضطر الفرنسيون لاجلاق أبواب الحي وتحصنوا فيه اما العزب فقد نجحوا في حصار مسجد السلطان حسن وطلبوا من الفرنسيين امدادهم بالبارود فحاول بليرون اقناعهم بأنهم لا يملكون أية ذخائر « وانهم يقفون على الحياد في الصراع الدائر بينهم وبين الانكشارية » ولكنه في نهاية الأمر اضطر الى دفع مبلغ من المال وحوالى ٤٥٠ سكيينا الى ابراهيم بك زعيم العزب وطالبه في مقابل ذلك بالتدخل لحماية الفرنسيين وتأمين ممتلكاتهم « (٩١) » .

وسجل احمد شلبي هذه الحادثة فكتب يصف التحصينات التى اتخذها العزب في مسجد السلطان حسن وقرسوا بمتاريس من جهة سوق السلاح ووضعوا المتاريس في باب الجامع والشبابيك التى للجامع « وحصل الخوف الشديد لأهل مصر ، لكونهم لم يروا شيئا من هذا قبل الآن ، ولا سمعوا به ، وقفلت أسواقها ، وحوانياتها ، وخاناتها ، ورحل غالب السكان الذين يسكنون بجوار القلعة ، وبقربها الى داخل القاهرة » (٩٢) .

وقد انتهت تلك الفتنة بمقتل افرنج احمد عام ١٧١١ م كما ذكر بليرون « بعد ان تخلى الانكشارية عنه فذبحه أعداؤه على سلالم القلعة وعزلوا خليل باشا لمناصرته » (٩٣) .

Clement : Op. Cit., P. 194.

(٩١)

(٩٢) احمد شلبي : المرجع السابق ص ٢٢٣ ، ص ٢٢٤ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 96.

(٩٣)

ورغم انتهاء فتنة افرنج احمد الا ان الهدوء لم يخيم على العاصمة فاستمرت الاضطرابات واستاء القنصل الفرنسي لى مير من ذلك فكتب الى حكومته في ٢٦ ديسمبر ١٧١١ م « من الصعب على المرء السير في الطرقات خوفا من أن يفقد رأسه » لقد فقد الباشا نفوذه ولم يعد له سلطة في البلاد « (٩٤) .

تم خيم الهدوء على القاهرة لفترة قصيرة استمرت حوالى أربع سنوات ولكن سرعان ما اندلعت الفتنة من جديد عام ١٧١٥م بين القاسمية والفقارية. اى بين قاسم بك الدفتردار ومنافسه ذو الفقار بك وحدثت مذابح كثيرة في البلاد ولكن الفرنسيين كعادتهم وكما لاحظنا اجأوا الى الاحتماء بشخصية قوية في البلاد وهو ابراهيم بك وكتب لى مير في ٢٤ سبتمبر ١٧١٥ م « ما زالت الفوضى تعم البلاد ولكن ابراهيم بك ما زالت له السيادة انه صديق للفرنسيين وهو حاميها والمدافع عنا » وقد أرسل ابراهيم بك ملك فرنسا وأرسل له جوادين هدية فرد عليه الملك (٩٥) وأرسل بدوره عدة لوحات من الجوبلان (٩٦) .

وعندما زار الرحالة بول لوكا مصر حصل من ابراهيم بك على تصريح بالتجول في البلاد مع توفير الحماية والأمان له وقد وصفه بول لوكا « أنه أمير البلاد ، وأكثر الأمراء قوة ، لديه أجمل القصور في القاهرة ويبدو ان لوكا أراد تملق ابراهيم بك ليسمح له بحرية التجول في مصر فقال له « لقد رجوت القنصل لى مير ليسمح لى بمقابلتك فأنال شرف حمايتك » وبالفعل حصل لوكا

Ibid. P. 98.

(٩٤)

(٩٥) كان لويس الخامس عشر صغيرا في السن في ذلك الوقت فرد الوصي

على الملك على هدايا ابراهيم بك .

Clement : Op. Cit., P. 195.

(٩٦)

على تصريح بحرية التجول في مصر العليا وأكد لوكا في كتابه ان « ابراهيم كان صديقا للفرنسيين يحتسى القهوة معهم » وقد اكرم ابراهيم لوكا فاستدعى ضابطا لمصاحبته في رحلاته كما عمل على توفير كاتب له ليعاونه « في تدوين الملاحظات » وزوده بخطابات توصية الى البكوات والكشاف وشيوخ القبائل لاکرام لوكا الذي كتب عنه « ان النفوذ في مصر كلها لابراهيم بك لم يعد للباشا اية سلطة ولا نفوذ. » (٩٧) .

بعد وفاة ابراهيم بك عام ١٧١٩ م ظهر نفوذ اسماعيل بن ايواظ ويبدو انه كان وسيما الى حد كبير لأن القنصل الفرنسي لى مير ذكر ان « النساء اطلقن عليه قشطة بك » (٩٨) .

وقد ذكر الجبرتي وصفا شبيها بذلك « ان اسماعيل بن ايواظ لفرط جماله سمته النساء قشطة بك » (٩٩) .

وفي عام ١٧١٩ م اندلعت الحرب الأهلية من جديد بين اسماعيل بك وجركس محمد استمرت احد عشر يوما كتب له مير في ٢٧ يونيو ١٧١٩ م عن خسائر هذه الحرب « قتل في هذه الحرب ألف رجل » وتوقفت التجارة أكثر من اسبوعين وأغلقت الحوانيت ونهبت المتاجر في الشوارع « ولكن اسماعيل بك نجح في الحاق الهزيمة بجركس وطلب منه جنوده قتله ولكنه رفض واكتفى بنفى جركس الى قبرص ولكن الأخير نجح في العودة الى القاهرة فكتب لى مير في ٢٠ سبتمبر ١٧١٩ م « رشا جركس

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 89.

(٩٧)

Hanotaux : Op. Cit., P. 102.

(٩٨)

(٩٩) محمود الشرقاوى : دراسات في تاريخ الجبرتي « مصر في القرن

الثامن عشر » ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

السلطات العثمانية ضد اسماعيل واتصل برجب باشا من مصر الذى عينه اميرا للحج منتهزا فرصة سفر اسماعيل » وقد حاول جركس مهاجمة اسماعيل ولكن البدو حذروا الأخير الذى دخل القاهرة متنكرا في زى امرأة وجمع البكوات حوله وقاموا بعزل رجب باشا (١٠٠) .

وقد ذكر الجبرتي بأن « جركس تهيأ للحرب والقتال فتوكل وهزم وخرج هاربا عن مصر ، فقبض عليه العربان وأحضره أسيرا الى اسماعيل بك فأشاروا عليه بقتله فأبى » (١٠١) . ورغم عزل رجب باشا الا أن جركس محمد نجح في تدبير مؤامرة ضد اسماعيل بك الذى ذبح على سلالمة القلعة كما ذكر لى مير (١٠٢) .

وقد شكى القنصل الفرنسى من سيطرة جركس على البلاد « لأنه في عهده توقفت التجارة ولم ترد البضائع لمدة تسعة أشهر ، وكسدت الأسواق حتى ان التجار الفرنسيين عجزوا عن تصريف بالات الأقمشة فبقيت لا تجد من يشتريها وقام جنوده بنهب المتاجر واقتحموا الحمامات حتى في الساعات المخصصة للنساء ، واستولوا على ملابسهن وسبوا النساء والأطفال في الطرقات » (١٠٣) .

اما ما ذكره الجبرتي عن جركس فهو لا يختلف كثيرا عما ذكره القنصل الفرنسى « كان من أظلم خلق الله واتباعه كذلك

Hanotaux : Op. Cit., P. 102.

(١٠٠)

(١٠١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ، ج ١ ص ١٨٩ .

Hanotaux : Op. Cit., P. 102.

(١٠٢)

Clement : Op. Cit., P. 196.

(١٠٣)

وخصوصا سراجہ المعروف بالصيفى وطائفته وكانت ايامه شر
الايام وحصل منهم من انواع الفساد والافساد ما لا يمكن
ضبطه « (١٠٤) .

وسرعان ما ناصب ذو الفقار بك جركس العداء فكون الأخير
جيشا من المغاربة لمحاربته وكتب القنصل الفرنسى
دكسبيلى Déxpilly عام ١٧٢٩ م لقد « عادت الحرب
الأهلية من جديد ولكن جركس رغم انتصاره لم ينجح فى دخول
القاهرة واعد له ذو الفقار جيشا عظيما فى دهشور واحاط به
اعداؤه فنزل بفرسه الى النيل ولم يستطع ان يخلص فرسه
ففرت الى جانبها وأحضر اثنان من الفلاحين جثمانه فقطع خصومه
رأسه وأرسلوها الى القاهرة فى عام ١٧٣٠ م (١٠٥) .

لم يهنا الفرنسيون بعد مقتل جركس فقد فرض الباشا
غرامة كبيرة عليهم بحجة ان جركس أعطى مبلغا كبيرا من المال
للقنصل الفرنسى دكسبيلى وقام الباشا بسجن المترجم الفرنسى
لاجبار الفرنسيين على الدفع واضطر القنصل الفرنسى الجديد
بينون الى اغداق الهدايا على الباشا ولارضائه ونجح فى جمع
مبلغ الغرامة من اسكالات مصر الثلاثة (١٠٦) .

تقاسم السلطة فى مصر فى الفترة ما بين عام ١٧٣٠
الى ١٧٣٦ م أربع قوى رئيسية كان لها النفوذ والسلطة فلمعت
اسماء كل من عثمان كتحدا الانكشارية الى جانب محمد بك
قطماشى وعلى بك ويوسف بك كخيا « تقاسم هؤلاء الأربعة

(١٠٤) الجبرى : المرجع السابق ، ج ١ ص ١٩٦ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 105.

(١٠٥)

Clement : Op. Cit., P. 196.

(١٠٦)

السلطة فيما بينهم » كما ذكر أخيرا القنصل الفرنسي ولكن يبدو أن عثمان كخيا كان على علاقة طيبة مع التجار الفرنسيين فذكر القنصل الفرنسي بينون عام ١٧٣١ « أن مصالحنا اليوم مع عثمان تتخذ الانكشارية » ولكن سرعان ما تم التخلص من هذه القوى الأربع بواسطة مذبحة دبرها محمد بك الدفتردار (١٠٧) .

وفي الفترة ما بين ١٧٤٤ م وحتى ١٧٥٤ م سيطر ابراهيم كخيا الانكشارية على البلاد وقد سجل القنصل الفرنسي ليرنكور النزاع بينه وبين منافسه حسين بك والذي انتهى بفرار الأخير الى الوجه القبلي فأصبح ابراهيم بك على حد قول ليرنكور « سيدا على البلاد والحاكم المطلق في مصر » (١٠٨) وظل ابراهيم كخيا مهيمنا على الأمور في مصر وأكد هذه الحقيقة جوفانفيل في ٢٣ مايو ١٧٥٢ م عندما كتب « ان ابراهيم بك هو الوحيد صاحب القوة والنفوذ وهو القسار على احداث التوازن بين القوى المتصارعة المختلفة » (١٠٩) . « لقد نجح ابراهيم في الحفاظ على قوته لعدة سنوات ولم يعد للبasha الجديد رغم أخلاقه الرفيعة أية سلطة (١١٠) . ويبدو أن ابراهيم كخيا كان يخشى على نفسه من الاغتيال كما هو متبع في ذلك الوقت فذكر جوفانفيل « انه كان يسير يوميا في شوارع القاهرة تحيط به الجنود والعساكر وقد حرص على عدم الاستقرار في مكان واحد فهو يتوجه يوميا الى جهة من جهات القاهرة فخصص يوما للتجول في بولاق ويوما للتجول في شوارع القاهرة ويوما في مصر القديمة ويوما لتفقد العزب فقد كان يخشى على نفسه من الخيانة أو الموت

Raymond : Op. Cit., P 713.

(١٠٧)

Hanotaux : Op. Cit., P. 106.

(١٠٨)

Ibid. P. 113.

(١٠٩)

Clement : Op. Cit., P. 197.

(١١٠)

مسموما « (١١١) وقد توفي في عام ١٧٥٤ م في قصره بعد أن اتخذ العديد من الاحتياطات خوفا على نفسه من القتل فكان من الزعماء القلائل الذين ماتوا ميتة طبيعية « على حد قول ليرنكور (١١٢) .

وقد اهتم ابراهيم ببناء المنازل في مختلف أحياء القاهرة وأيدت كتابات الجبرتي ما ذكره ليرنكور فكتب « أن منزله في الأزبكية جنة ، يقتنى غزالة » (١١٢) . وكان على علاقة طيبة ، مع الفرنسيين في بداية الأمر فأهدوه مرايا كبيرة وأقمشة من القطيفة وأقمشة متنوعة من ليون ولكن سرعان ما توترت العلاقة بينه وبين الفرنسيين عندما شكوا اليهود من الفرنسيين لتوقفهم عن شراء السنا لأنه لم يعد مطلوباً في مارسيليا فاستدعى ابراهيم بك القنصل الفرنسي وأجبره على شراء السنا من اليهود وحاول الفرنسيون الاعتراض لدى الباشا ولكنه « كان عاجزاً يبدو حزينا كالسجين في القلعة لا حول له » (١١٤) .

وهكذا ألفت كتابات القناصل الفرنسيين الضوء على الخلافات والصراعات المستمرة والحروب الأهلية بين القوى السياسية المختلفة في مصر في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

Hanotaux : Op. Cit., P. 114.

(١١١)

Clement : Op. Cit., P. 200.

(١١٢)

(١١٣) الجبرتي : المرجع السابق ج ١ .
Clement : Op. Cit., P. 200.

(١١٤)

أحوال مصر السياسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر انفصلت مصر عن الدولة العثمانية فلم يعد يربطها بها سوى الجزية السنوية والسيادة الاسمية وبرز على الساحة عدد من آراء المماليك واستطاع اقوامهم نفوذا تولى السلطة في البلاد وقد عبر الرحالة الفرنسيون عن ذلك الوضع السياسي المضطرب وانعدام سلطة الباشا في البلاد اصدق تعبير فاجمعوا في كتاباتهم « بانهم لم يجدوا من يعتمدون عليه رسميا في مصر » (١١٥) حتى ظهر على بك الكبير (١١٦) الذي قدر له تولى زمام السلطة في البلاد وقد القي

Clement : Op. Cit., P. 209.

(١١٥)

(١١٦) عرف على بك بلوقبطان او على بك القازدقلى ثم على بك الكبير بعد فتوحاته وغزواته ، انظر محمود الشرقاوى ص ٦٨ ، وقد تولى الصنجقية في عام ١٧٥٤ م باسم على بك مير اللوقاز طاغلى ، انظر جلال يحيى ص ٢٣٤ .

سافارى الضوء على نشأته . فذكر انه ولد فى الأناضول فى عام ١٧٢٨ م واسمه الحقيقى يوسف داود كان والده قسيسا يونانيا من عائلة معروفة اهتمت بالتعليم وقد سرقة اللصوص أثناء تنزهه فى احدى الغابات مع أصدقائه وكان يبلغ الثالثة عشرة عندما بيع فى القاهرة لابراهيم بك الذى سماء عليا والبسه ملابس المماليك بعد أن تم ختانه وعلمه العربية والتركية وعلل سافارى كراهية على بك للأتراك عندما تولى الحكم « لأنهم أجبروه على تغيير دينه وحرموه من أهله » ولكننا نعتقد أن هذا التعليل غير صحيح لأن معظم المماليك عرف عنهم الولاء لأمرائهم وتمسكهم بالدين الاسلامى ثم ناقض سافارى نفسه فأكد « ان ابراهيم بك قربه اليه وأحسن معاملته فاتقن فنون الفروسية وغيرها من مراحل التعليم اللازمة لكل مملوك » حتى انه لم يعد يوجد مملوك واحد اشجع منه ولا أبرع منه فى ركوب الخيل ولا التصويب بالأسلحة النارية وقد اعتز به ابراهيم بك فعينه سلحدار أغا ثم خزندار ثم كاشف وهو فى سن الثانية والعشرين (١١٧) .

ويقص لنا سافارى بشاعريته المعروفة قصة التقاء على بك بوالده بعد ان ازداد نفوذه فى مصر فيذكر انه أمر طنطاوى المشرف على ارسال الخزنة الى الاستانة بالمرور على الأناضول واحضار والده الى مصر ثم يصف استقبال على بك لأبيه « ركع أمامه وقبل أقدامه وبكى الوالد المعجوز عند رؤية ابنه الذى احسن اكرامه » فأسكنه فى قصره فى الأربكية وعرفه بزوجته ومكث داود فى مصر سبعة أشهر استقبله خلالها كبار الشخصيات وعندما أراد العودة الى بلاده « أرسله على بك على ظهر سفينة محملة بالهدايا وأبقى أخته فى مصر » (١١٨) .

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 208 — 212.

(١١٧)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 221.

(١١٨)

ثم يمضى سافارى فى وصف تصاعد نفوذ على بك خاصة بعد ان تولى الصنجدية فيذكر « انه كان على علاقة طيبة مع الباشا حتى انه وسطه للتوقيع بينه وبين الممالك المتنازعين فى القاهرة » (١١٩) . ثم بدا على بك فى التخلص من كبار الشخصيات حتى خلت له الساحة ؛ وقد سجل القنصل الفرنسى مارتان التنافس بينه وبين غيره من الممالك خاصة الأمير « رضوان بك الذى نجح فى القضاء على نفوذه » ولم تكن له نفس قوة وشعبية على بك » (١٢٠) وبالرجوع الى مصدرنا الجبرتي نجده بالفعل يصف رضوان بك الجلفى « انه كان يتجاهر بالمعاصى والراح ، والوجوه الملاح » فأخذ الناس فى تقليده حتى تبرمت النساء و « مخاليع اولاد البلد » (١٢١) .

واذا كان على بك قد نجح فى التخلص من رضوان بك الا ان القنصل جوانفيل اكد لنا وجود منافسين جدد اقوياء خاصة خلال عامى ١٧٥٦ - ١٧٥٧ م وهم « عثمان بك وعبد الرحمن كخيا وحسين بك الصابونجى وحسين بك كشكشى » ولكن « على بك كان اقواهم نفوذا » . « فضل عبد الرحمن بك فى عام ١٧٥٦ م الانسحاب من الميدان فمكث فى منزله ينعم بالشراء وسط حريمه » (١٢٢) .

ثم خدمت الظروف على بك بمقتل منافس آخر وهو حسين الصابونجى فى عام ١٧٥٧ م فذكر جوانفيل « ان القتلة انتهزوا فرصة وجود حسين الصابونجى شيخ البلد بمفرده فى

Ibid. P. 212.

(١١٩)

Hanotaux : Op. Cit., P. 123.

(١٢٠)

(١٢١) محمود الشرقاوى : المرجع السابق ص ٦٦ .

Hanotaux : Op. Cit., P. 123.

(١٢٢)

منزله فدخلوا عليه وطعنوه بالخنجر وقيل ان أحد مدبري الجريمة هو حسين بك كشكش ولكن المستفيد الأول منها هو على بك « (١٢٣) » .

وهكذا احتدم الصراع على السلطة في مصر بينما على بك يراقب الموقف ونفوذه في ازدياد وسجل نائب القنصل في عام ١٧٥٨ م هذه الحقيقة « ان على بك هو القائد الأول في مصر سلطاته مطلقة ولكنه مكروه بسبب ظلمه وهو يكره المسيحيين وهو عدونا لا يتوقف عن سب المترجمين الفرنسيين « (١٢٤) » ، وكان على بك بالفعل يتدخل دوما في شئون الفرنسيين فعندما أراد القنصل جوانفيل بناء باب الحي الفرنسي « امره على بك بنزعه وارسل قواته لتنفيذ ذلك » ويتولى القنصل الفرنسي داميرا الذي عمل على التقرب منه « فأغدق عليه الهدايا واهداه ساعة ولكن على بك طلب ساعتين بدلا من واحدة » فاضطر الفرنسيون الى اهدائه ساعة مزينة بالماس قيمتها ٥٢ سكين « وحرص الفرنسيون على اغداق الهدايا عليه كل عام لارضائه » وتجنب الغرامات التي يفرضها عليهم « (١٢٥) » .

وفي عام ١٧٦٠ م نجح على بك في الوصول الى مشيخة البلد بعد منازعات مع منافسيه وأكد قولني انه كان شديد الطموح وصل الى مشيخة البلد بعد ان نفى عبد الرحمن بك وغيره من المنافسين ولكنه لم يهنأ بمنصبه الجديد على حد قول فولني « اذ دخل في صراع مع منافسيه الذين نجحوا في نفيه الى غزة ولكنه لم يمكث فيها طويلا اذ اتجه الى الصعيد واقام عامين في

Ibid. P. 123.

Clement : Op. Cit., P. 211.

Ibid. P. 213.

(١٢٣)

(١٢٤)

(١٢٥)

جرجا حيث لحق به أنصاره » وقد نجح على بك في دخول القاهرة عام ١٧٦٦ م « وفي ليلة واحدة قتل أربعة بكوات ونفى أربعة آخرين وأصبح رئيسا على الغالبية ودخل القاهرة من باب النصر حاملا رؤوس منافسيه على صوان من الفضة » (١٢٦) وقد أكد الجبرتي هذه الحقيقة فذكر انه قطع عشرة رؤوس من بينها رأس كشكش بك وأمرائه الخمسة (١٢٧) . وفي عام ١٧٦٨ م جلس على بك في الديوان ووزع السلطات على حكام الأقاليم وكتب داميرا الى حكومته « لقد أصبح على بك سيدا على مصر (١٢٨) وقد عاون على بك في تثبيت نفوذه محمد بك أبو الذهب الذي زوجه من شقيقته وأقام الاحتفالات في القاهرة لمدة ثلاثة أيام احتفالا بهذا الزواج » وقد أفاض سافاري في وصف مظاهر هذا الاحتفال (١٢٩) .

بعد أن استتب الأمر لعلى بك لم يكتف بالقضاء على منافسيه من البكوات وإنما أراد أن يكون له النفوذ والسلطة في جميع أنحاء البلاد . فعمل على القضاء على زعماء الصعيد البارزين خاصة ممن كان لهم شأن عظيم ونفوذ كبير ونخص بالذكر الشيخ همام (١٣٠) الذي أفاض الرحالة الفرنسيون وغيرهم في مدحه والثناء عليه وقد ذكر فولني « ان همام كان يتمتع بنفوذ كبير يدعو الى القلق فأراد على بك التخلص منه وكان يأوى الفارين والعصاة فوجه اليه على بك قوة كبيرة من المماليك بقيادة

(١٢٦) فولني : المرجع السابق ص ٨٣ .

(١٢٧) الجبرتي : المرجع السابق ج ٣ .

Hanotaux : Op. Cit., P. 128.

(١٢٨)

Savary : Op. Cit., + 2 P, 223.

(١٢٩)

(١٣٠) انظر ليلي عبد اللطيف : الصعيد في عهد شيخ العرب همام ،

القاهرة ، ١٩٨٧ م .

محمد بك أبو الذهب أبادت قوات همام في عام ١٧٦٩ م « (١٣١) .
وقد امدتنا تقارير القناصل بما يؤكد مدى انتشار وامتداد
نفوذ الشيخ همام فذكروا انه مد نفوذه من أسيوط حتى اسوان
وكان على جانب كبير من الثراء وهو ينتمى الى قبيلة الهواره
التي هاجرت من تونس واستقرت في الصعيد ما بين جرجا
وفرشوط فتملكت الأراضي والقرى (١٣٢) .

وقد أكد الجبرتي ثراء الشيخ همام فذكر ان في منزله
صوامع لتخزين الحبوب والسكر والبلح وعددا لا يحصى من
المواشى والسواقي والعبيد السود والبيض وعددا لا يحصى من
الأقباط يعملون في خدمته « وقد توفى في منفاه بأسيوط فمات
مكمودا مقهورا » (١٣٣) .

اصبح على بك في عام ١٧٦٩ م سيدا حاكما فعليا على
مصر ، ساعده على ذلك انشغال الدولة العثمانية بحربها مع
روسيا في عام ١٧٦٨ م فانتهاز هذه الفرصة للانفصال عنها خاصة
بعد ان تخلص من منافسيه وقد علل فولني رغبة على بك
في الاستقلال بمصر تعليلا مبالغا فيه فذكر « انه رأى في سيادة
الدولة العثمانية وتبعيته للاستانة امرا يجرح كبريائه » ولذلك
قام « بطرد الباشا ورفض دفع الجزية وأمر بسك النقود
باسمه » ثم يوضح لنا فولني موقف الدولة العثمانية من على بك
بأنها حاولت القضاء عليه رغم انشغالها بحربها ضد روسيا
« فأرسلت القبوجين يعملون مرسنة المشنقة ولكن على بك كان
يقابلهم بالسهم والخفر فيحبط مساعيهم » (١٣٤) .

Hanotaux : Op. Cit., P. 129.

(١٣٢)

(١٣٣) الجبرتي : المرجع السابق ط ١ ص ٤٣٠ .

(١٣٤) فولني : المرجع السابق ص ٨٤ .

وجدير بالذكر ان الدولة العثمانية طلبت من على بك مساعدتها في حربها ضد روسيا وذلك قبل ان تسوء العلاقات بين الطرفين فأبدى استعداداه وجاءت السفن العثمانية لنقل الجنود من مصر ولكن أبو الذهب دس لعل على بك لدى السلطان وأكد له ان القوات المرسلة الى الاستانة انما هي لمساعدة الروس ولذلك أرسل السلطان أمرا بقطع رقبة على بك أي ان خيانة أبو الذهب لسيدته كانت قبل النزاع بينهما بفترة طويلة على النحو الذي ذكره سافاري (١٣٥) .

ولاشك ان على بك قد افاد من هذه الحرب الروسية التركية للتخلص من منافسيه وأكد القنصل الفرنسي بوييه هذه الحقيقة « انفرد على بك بالحكم منتهزا فرصة هذه الحرب » (١٣٦) .

وما ان انفرد على بك بالحكم حتى عمل على الحصول على الأموال بكل الطرق ونكل بأثرياء القاهرة ووضعهم على الخوازيق وضربهم بالعصى وقتل كبير المشرفين على الجمارك وشنق اثنين من اتباعه واضطهد اليهود للحصول على أموالهم وقد ذكر المترجم الفرنسي ديجون (١٣٧) « انه استبعد اليهود من الجمارك وكانت في أيديهم لفترة طويلة وأبعدهم عن الادارة ، ووضعها في يد مسيحي الشام وطلب منهم حسن معاملة التجار الأجانب من أجل انعاش تجارة مصر » (١٣٨) .

Savary : Op. Cit., + 2 P, 227.

(١٣٥)

Hanptaux : Op. Cit., P. 127.

(١٣٦)

Ibid. P. 127.

(١٣٧)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 229.

(١٣٨)

وقد ساق الجبرتي في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة
والف أمثلة على اضطهاده لليهود « قبض على بك على المعلم
اسحق اليهودي معلم الديوان ببولاق واخذ منه اربعين ألف
محبوب ذهب وضربه حتى مات ، كذلك صادر اناسا كثيرة من
أموالهم من التجار مثل العشوبي والكميني وغيرهما وهو الذي
ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادئ ظهوره واقتدى به
من بعده » (١٣٩) .

ولكن رغم ما ذكر عن قسوة على بك الا اننا نجد من بين
الرحالة من يثنى عليه رغم جوره فذكر سافاري « انه عمل على
سن القوانين وحماية التجارة ومعاقبة اللصوص ومحاربة البدو
الذين يغرون على القوافل فعين سليمان كخيا وسليم أغا
لحماية التجار حرصا منه على اقرار العدالة كما حرص على
انعاش تجارة مصر وفتح أبواب الاتصالات مع كل الدول » (١٤٠) .

وقد أكد الجبرتي هذه الحقيقة فكتب انتشر الأمن في عهده
حتى كاد المسافر يسير بمفرده ليلا « راكبا أو ماشيا ومعه حمل
الدراهم والدنانير الى أي جهة ويبيت في الغيط أو البرية » (١٤١) .

افاض الرحالة الفرنسيون في وصف فتوحات على بك
الخارجية خاصة في الحجاز وبلاد الشام وقد اثنى الرحالة على
فتح بلاد الحجاز « لأنه بهذا الفتح أعاد الأهمية التجارية لطريق
البحر الأبيض والبحر الأحمر » على حد قول فولني ، ففي
عام ١٧٦٩ م أرسل على بك حملة الى جدة بقيادة حسن بك

(١٣٩) الجبرتي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
Savary : Op Cit., + 2 P. 229.

(١٤٠)

(١٤١) محمود الشرقاوي : المرجع السابق ص ٧٤ ، ص ٧٥ .

خرجت من ميناء السويس وعهد الى محمد بك بقيادة الفرسان للاستيلاء على مكة وكان الهدف الرئيسى لعلى بك « ان يجعل من جدة مستودعا لتجارة الهند وقد أوعز له بهذه الفكرة روزيتى أحد تجار البندقية » (١٤٢) .

وقد كتب القنصل الفرنسى داميرا في ٢٤ أكتوبر عام ١٧٧٠ م « ان استيلاء على بك على الحجاز من أكبر الحروب التى خاضها » وان ما فعله هو الصواب لأن جدة ميناء تجارى هام بين الهند ومصر » ، « وقد حقق بهذا العمل نجاحا سياسيا وتجاريا لأنه سيطر على البحر الأحمر وعلى التجارة والجمارك فى جدة والسويس وأقام علاقات تجارية مع الهند مباشرة » ولكن وأخيرا تخوف من اتصالات البريطانيين بعلى بك فكتب فى تقرير له عام ١٧٧٣ م معربا عن مخاوفه من « ارتفاع العلم البريطانى فى السويس » (١٤٢) كما أكد سافارى وصول السفن البريطانية الى السويس « محملة بأقمشة من البنغال وأثنى على الخطوة التى أقدم عليها على بك بفتح الحجاز وعلل ذلك » لأنه يريد مجد مصر التجارى وفتح البلاد أمام التجار الأجانب فمصر رغم تدهورها قادرة على استعادة مجدها التجارى وثرواتها ولكن مصر فى حاجة الى من ينظمها ولو امتلكت أسطولا كبيرا لامتلكت ثروات كبيرة .

وجدير بالذكر ان مخاوف الفرنسيين من توافد التجار البريطانيين على ميناء السويس لم يكن أمرا مبالغا فيه فقد اتفق على بك بالفعل مع شركة أوروبية لتحويل البحر الأحمر الى بحيرة

(١٤٢) فولنى : المرجع السابق ص ٨٤ .

Savary : Op. Cit., + 3 PP. 87 — 88,

(١٤٣)

مصرية وكتب أحد التجار البريطانيين الى على بك يقترح فتح طريق تجارى مباشر بين الهند والسويس وراسل على بك حاكم البنغال ١٧٧١ م وطلب معاونته ثم تكونت في كلكتا شركة بريطانية صغيرة للمتاجرة مع مصر ولما تولى وارن هاسنجر حاكم البنغال الجديد رحب بهذه الخطوة وبدأت السفن البريطانية تفد بالفعل على السويس قادمة من الهند ، كما أن الرحالة البريطاني بروس ناقش على بك في فتح الطريق التجارى عبر مصر من الهند الى أوروبا وأكد له ان ذلك يتطلب فتح الحجاز وجعل جدة قاعدة للسفن والتجارة وهى نفس فكرة روزينى (١٤٤) .

اما بلاد الشام فقد تطلع على بك للاستيلاء عليها وأكد داميرا لحكومته « ان نظر على بك لا ينصرف عن سورية » وانه يعد العدة لهذا اليوم فهو يجمع الأموال اللازمة لتسليح الجيش أى جيشه (١٤٥) ، وبالرجوع الى ما ذكره الجبرتي نجد أن على بك عمل على جمع الأموال اللازمة من الناس « اضطر على بك الى فرض مبالغ على كل مدينة في مصر ففرض أموالا على اليهود ، والأقباط حتى يتمكن من تجهيز هذه الحملة » (١٤٦) . وقد ساعدت الظروف الدولية على بك في تحقيق هدفه وذلك لانشغال تركيا بالحرب مع روسيا في الشمال كذلك تمرد ضاهر العمر ضد الدولة العثمانية في جنوب بلاد الشام وصادقته مع على بك خاصة عندما نفى الى بلاد الشام ولذلك وجه على بك قواته الى غزة فأسرع عثمان باشا الحاكم العثماني في دمشق لصدها « فارتعدت فرائص الممالك من سرعة جنوده وغددها واستعدوا للفرار »

(١٤٤)

Hanotaux : Op. Cit., P. 130.

(١٤٥)

(١٤٦) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

ولكن ضاهر العمر أرسل لقوات على بك التجيدات فانقلدهم من الهزيمة (١٤٧) . ثم يصف لنا سافارى استيلاء قوات على بك على باقى مدن بلاد الشام وعندما رفض أهالى نابلس التسليم حاصرها محمد بك أبو الذهب لكى يجبر السكان على الاستسلام خاصة بعد أن قطعت عنهم الامدادات وهددتهم المجاعة ، ثم تمكنت قوات على بك من الاستيلاء على القدس ويافا وصور (١٤٨) ، أما دمشق فقد أكد فولنى انه تم فتحها بمساعدة ضاهر العمر وأطلق فولنى لفظ « الحلفاء » على ضاهر العمر وعلى بك فكتب « سيطر الحلفاء على دمشق الخالية من الجنود ومن المدافع وأمعنوا فى التقتيل » (١٤٩) ، أما حلب فلم يستول عليها محمد أبو الذهب وعلل ذلك سافارى « لأنه كان ينوى الاحتفاظ بها لنفسه » (١٥٠) ، وأكد سافارى على اتصالات على بك بالروس فقد أرسل عام ١٧٧١ م محمد أبو الذهب الى بلاد الشام وتحالف مع الكونت الكسيس أورلوف الذى أكد رغبة روسيا فى معاونة على بك كذلك حاول مخالفة البنادقة عن طريق التاجر روزينى ولكنهم وعدوه بمساعدته فى إعادة مجد مصر التجارى القديم (١٥١) .

وقد أفاض الرحالة فى وصف الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة لمدة ثلاثة أيام بمناسبة انتصارات قوات على بك فى بلاد الشام وقد ذكر الجبرتى « وردت البشائر بذلك فنودى

(١٤٧) فولنى : المرجع السابق ص ٨٦ .
Savary : Op. Cit. + 2 P. 232.

(١٤٨)

(١٤٩) فولنى : المرجع السابق ص ٨٨ .
Savary : Op. Cit. + 2 P. 232,

(١٥٠)

Ibid. P. 231.

(١٥١)

بالزينة ، فزيت مصر وبولاق ومصر القديمة زينة عظيمة
ثلاثة أيام بلياليها » (١٥٢) .

ضاعت انتصارات على بك في بلاد الشام اذ قام محمد
أبو الذهب بالانسحاب من المدن التي فتحها واتجه الى مصر
فأسرعت قوات الدولة العثمانية بالاستيلاء على المدن السورية
فحرم على بك من « ثمرة نصره » وعال فولنى خيانة أبى الذهب
بأن عثمان باشا اتصل به وأدخل في روعه ان السلطان سوف
يقتص من على بك لأنه انتيك حرمة مدينة دمشق وطلب منه
التعاون مع الدولة فأسرع أبو الذهب بسحب قواته جنوب مصر
وسط دهشة ظاهر العمر وأبنائه واستعد على بك لملاقاة
حليفه السابق فحصن أبواب القاهرة بناء على نصيحة روزيتى
التاجر البندقى وخلال أربعين يوما جمع محمد أبو الذهب
أنصاره والتقى بقوات سيده فهزمه شر هزيمة فلم يتسن لعل
بك سوى الفرار مع ثلاثمائة من الممالك قاصدا عكا ولكن أهل
نابلس وبافا « سدوا المسالك دونه » فاضطر ظاهر العمر
لنجدته وكان جنود عثمان باشا والدروز يحاصرون صيدا
فاستنجد أهالى صيدا بعلى بك فاتجه اليها ظاهر العمر
عام ١٧٧٢ م حيث دارت « أضخم المعارك » كما وصفها فولنى
وكان الجيش التركى ثلاثة أضعاف جيش الحليفين ولكنه منى
بخسائر كبيرة وبقيت صيدا في يد ظاهر العمر الذى اتجه مع
حليفه الى عكا لمعاقبة أهاليها واستمر حصار عكا حتى
عام ١٧٧٣ م (١٥٣) .

ثم بدأ على بك يعد العدة للعودة الى مصر ووعدده ظاهر العمر

(١٥٢) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(١٥٣) فولنى : المرجع السابق ص ٩٢ .

والروس بالمساعدة وقد أعجب الرحالة الفرنسي باتصالات
على بك بالروس فذكر « لو قدر لهذا التحالف بين شيخ البلد
والروس الاستمرار لتغير وجه الشرق » (١٥٤) .

دبر محمد أبو الذهب مكيمة لعلى بك الذى وصلته رسالة
تستعجله بالعودة الى مصر فطلب منه ضاهر العمر انتظار النجدة
الروسية ولكن على بك تسرع بالسفر الى مصر وما كاد « يتورط
فى الصحراء بين غزة ومصر حتى التقى بفرقة مختارة من
المماليك بقيادة مراد بك » ويتوقف فولنى ويعلل سبب اختيار
محمد أبو الذهب لمراد بك على رأس القوات المتوجهة لقتال
على بك « لأن مراد شغف حبا بامرأة على بك فوعده محمد
أبو الذهب بالزواج منها اذا سلم له رأسه » ولذلك ركز مراد بك
جهوده لقتال على بك ونجح فى الحاق الهزيمة به » (١٥٥) .

وعلى سافارى سبب انتصار أبو الذهب على قوات على بك
فى بلاد الشام فأرجعه الى « ثورة المدن السورية ضد على بك
لأن محمد أبا الذهب عمل على بث الدعاية ضده وتشويه صورته
لاتصاله بالأوروبيين خاصة الروس وتحالفه معهم ضد الدولة
العثمانية المسلمة مؤكدا لهم انه سوف يبتلعون بلادهم كما
فعل البريطانيون مع مسلمى الهند من قبل الذين دفعوا ثمن
ثقتهم بالأوروبيين وأكد محمد أبو الذهب لأهالى الشام ان
على بك سوف يأتى بالمسيحيين الى سورية مثلما حدث فى
البنغال » (١٥٦) .

Savary : Op. Cit., + 2 P. 240.

(١٥٤)

(١٥٥) فولنى : المرجع السابق ص ١٢ .

Savary : Op. Cit., + 2 P. 242.

(١٥٦)

ولاشك ان دعاية محمد أبو الذهب كان بها الكثير من الصدق والصحة لأن على بك أساء اختيار توقيت اتصاله بروسيا خاصة وانها كانت مشتبكة في حرب دامية مع الدولة العثمانية المسلمة فاعتبر في نظر المسلمين خائنا بالفعل .

ويصور لنا فولنى الموقف بعد هزيمة على بك ولقائه بمحمد أبو الذهب الذى « احسن استقبال سيده القديم وبالع في توقيره » و « خصه بخيمة فاخرة الرياش » وأوصى بالعناية التامة به وأكد له « ألف مرة انه عبده الذى يلثم موطىء قدميه » (١٥٧) وقد أكد القنصل داميرا عناية أبى الذهب بسيده حتى انه « ظل يداوى جراحه ويقبل قدميه طوال فترة مرضه » (١٥٨) ، ولكن على بك توفى متأثرا بجراحه وقيل أن أبو الذهب دس له السم ورجح فولنى الاحتمالين « الاحتمالان متعادلان بحيث تعذر الترجيح » (١٥٩) .

وختم قولنى حديثه عن على بك « انتهت حياة على بك الذى جذب انتباه واهتمام أوروبا وتوقع الساسة من ورائه تحولا خطيرا » « ولاريب انه رجل خارق ولكن من المبالغة أن نجعله في مصاف الرجال العظام لأن المقربين منه أكدوا انه كان رجلا يفتقر إلى الثقافة » وعدد فولنى أخطاء على بك من وجهة نظره :

١ - انه لم تكن لديه خبره كافية بالفتوحات .

٢ - اعداؤه المال على فرد واحد من خاصيته وهو محمد أبو الذهب .

(١٥٧) فولنى : المرجع السابق ص ٩٨ .
Aurlant : Op. Cit., P. 284.

(١٥٨)

(١٥٩) فولنى : المرجع السابق ص ٩٦ .

٣ - لم تستند أعماله على مبادئ العدالة الإنسانية بقدر ما ترجع الى عوامل طمعه وزهوه « فمصر لم تكن في نظره الا ملكا والشعب قطيعا يجوز أن يتصرف به على هواه » ودلل فولنى على ذلك بأسرافه « وانه انفق على قبضة خنجره مبلغا يزيد على عشرين الف ليرة » (١٦٠) .

أما سافارى فقد كان شديد الإعجاب بعلى بك فقد كتب بعد وفاته « قتل على بك نصير المصريين ضد استبداد وطغيان الأتراك » (١٦١) . بعد وفاة على بك تولى محمد أبو الذهب عام ١٧٧٣ م « فلم يظهر من خلال سنتى حكمه الا نزق اللص ولؤم الخائن » على حد قول فولنى (١٦٢) .

وقد اختلف موقف أبى الذهب مع الدولة العثمانية عن موقف على بك فقد أعاد إرسال الجزية الى الاستانة وجدد خضوعه للسلطان العثمانى وعمل القنصل الفرنسى داميرا ذلك « لأنه كان فى حاجة الى حماية ودفاع » وخشى من عداة الدولة فأحسن استقبال الباشا الجديد (١٦٢) .

أراد أبو الذهب الانتقام من ضاهر العمر لتحالفه مع على بك ، كذلك رغب فى مصادرة ثروة ابراهيم الصباغ وزير ضاهر العمر ولذلك استأذن الباب العالى فى شن الحرب على بلاد الشام فكان هدف أبى الذهب على حد قول فولنى « مزدوج الشار والاثراء » ، فهاجمت قوات أبى الذهب غزة فأسرع رجال

(١٦٠) فولنى : المرجع السابق ص ٩٦ .
Savary : Op. Cit., + 2 P. 254.

(١٦١)

(١٦٢) فولنى : المرجع السابق ص ٩٧ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 137.

(١٦٣)

ضاهر العبر بالهروب منها ثم زحفت قوات أبي الذهب على يافا ولكن « أهلها كانوا متمرسون على القتال فنجحوا في التصدي لقواته » فنصب أبو الذهب خيمته التي أسرف المماليك في زخرفتها أمام أسوار يافا كما عمل المماليك إكواخا من جذوع الأشجار وغصون الليمون تأهبا لطول الحصار ولكن نظرا لموقع يافا على تل فقد تمكن سكانها من القاء القنابل على معسكر أبي الذهب مدافعين عن مدينتهم دفاعا مجيدا ويسخر فولني من المماليك فيصفهم أثناء حصار يافا « بانهم نجحوا في أحداث ثقب في جدار سور يافا فحاولوا الدخول منه أولا على ظهور الجياد فلما تبين لهم أن ذلك مستحيل ترجلوا ثم ساروا بسراويلهم الواسعة وأرديتهم المشمرة يتعثرون بالانقاض والسيوف العقفاء في أيديهم والطبنجات في أوساطهم وحسبوا أنهم جاوزوا كل العقبات » ولكن أهالي يافا أمطروهم بالرصاص واستمر الحصار ستة وأربعين يوما ، وفتح أهالي يافا المفاوضات وأبرمت معاهدة بين الطرفين ولكن بعض المماليك انسلوا إلى المدينة وباشروا النهب فاستأنف القتال وأمعن أبو الذهب في قتل النساء والشيوخ في يافا « وأبت وحشية محمد ونذالته إلا أن يصنع نصبا للنصر فأمر أن يشاد له هرم من رؤوس القتلى المناكيد الذين جاوز عددهم ألفا ومائتي نسمة » (١٦٤) .

وقد أكد الجبرتي تلك الحقيقة فذكر أن أبا الذهب ارتكب المذابح في يافا هو وجنوده « لم يميزوا بين الشريف والنصراني واليهودي والعالم والجاهل والعالي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم » وأقاموا من رؤوس القتلى عدة أهرامات (١٦٥) .

(١٦٤) فولني : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
(١٦٥) محمود الشراوى : المرجع السابق ص ٧٨ .

ثم اتجه أبو الذهب الى عكا مما أزعج القناصل الأوروبيين خوفا على رعاياهم فكتب القنصل الفرنسي مور في يونيو ١٧٧٥ م « لقد تعرض الفرنسيون للذبح اثناء حصار عكا » (١٦٦) ، فقد نهب أبو الذهب أبواب عكا وطالب سكانها بأموال ابراهيم كخيا وضاهر العمر وأندرههم بالموت ولم ينقذ سكان عكا سوى اصابته بالحمى فتوفي متأثرا بها وأعتقد المسيحيون « ان هذه الميتة قصاص من النبي الياس الذي كان أبو الذهب قد هتك حرمة كنيسته على جبل الكرمل » ويزعمون أيضا انه كان يراه مرات عديدة في صورة شيخ فيصرخ « ابعدوا عني هذا الشيخ الذي يلأزمي ويرعيني » وعلل فولنى وفاة أبي الذهب تعليلا علميا منطقيا ، فأرجعه الى الطقس والحرارة الشديدة والارهاق اثناء حصار يافا وأشار في موضوعية الى « اننا لو شئنا الاعتماد في كتابة التاريخ الحديث على رواية مسيحيي سوريا ومصر لجاءت ملأى كما في العصور السالفة بالمعجزات والرؤى » (١٦٧) .

وقد أفاض الرحالة الفرنسيون في وصف قسوة أبي الذهب مع أبناء مصر نفسها فوصفه الكونت دانتريج « انه طاغية متوحش » وعقد مقارنة بينه وبين نيرون « انه يشبه نيرون في قسوته وحبه للقتل وسفك الدماء » « ان مصر كلها شهود على طفيلانه » وضرب دانتريج أمثلة على قسوته وان كان البعض مبالغا فيه فذكر « انه قتل في يوم واحد ستين فلاحا تحت اقدام الأفيال » كذلك كتب عن قصة سمعها تدل على عنفه فذكر « انه كان يتنزه في النيل فرأى مجموعة من الفتيات الجميلات فهاجم أحدهن فصرخت الفتاة واحتمت بأبويها فأسرع عبيد البك بانتزاعها من يد أهلها ونقلوها على ظهر مركب أبي الذهب الذي

Hanotaux : Op. Cit., P. 139.

(١٦٦)

(١٦٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ، ٢٠١ .

أمر باستدعاء أهل الفتاة فخشي والدها من عقابه فارتضى عند
أقدامه وطلب منه العفو لأنه كان لا يعلم شخصيته وأنه دافع عن
ابنته ضد العبيد الذين هاجموا ولكن أبا الذهب أمر باغراق
الرجل وزوجته في النيل وسط صراخ الفتاة « (١٦٨) » .

وهكذا نلاحظ تشابه كتابات الرحالة من محمد أبى الذهب
وقسوته مع المصريين أبناء البلاد الأصليين أما عن علاقته
بالأوروبيين فقد حذا حذو على بك من حيث رغبته فى اخراج
مصر من عزلتها ورغبته فى فتح موانئ البحر الأحمر أمام الملاحة
الأوروبية وتيسير سبل الاتصال بين الهند والسويس وأوروبا
وأكد القنصل الفرنسى مور هذه الحقيقة فكتب فى فبراير ١٧٧٥ م
« ان محمد بك يسعده رؤية السفن الفرنسية فى البحر الأحمر
لتنمية التجارة مع الهند وأكد مور انه طلب منه السماح
للسفن الفرنسية بالمرور فى السويس وتخصيص الضرائب على
الفرنسيين » ، كما أن الوزير الفرنسى سارتين كتب فى أكتوبر
عام ١٧٧٥ م مهربا عن رغبته فى زيادة الصلات التجارية مع مصر
« لو ان هذه البلاد مستقلة عن الباب العالى مثل المغرب لأمكنا
التجارة مع حكامها بحرية وعقد الامتيازات معهم » (١٦٩) . وقد
عقد محمد أبو الذهب معاهدة تجارية مع شو مبعوث وارن
هاستنجر حاكم البنغال فى ٧ مارس ١٧٧٥ م كفلت مواد المعاهدة
حرية التجارة للبريطانيين بين الهند ومصر عبر البحر الأحمر
ومنحتهم التنقل فى داخل البلاد . ولكن هذه المعاهدة لم تلتزم
بها الحكومة البريطانية لأنها عقدت بين أبى الذهب وحاكم البنغال
وليس مع الحكومة البريطانية . وقد راقب القناصل الفرنسيون

Aurlant. : Op. Cit., P. 286.

Roux : Op. Cit., P. 60,

(١٦٨)

(١٦٩)

آثار هذه المعاهدة وعملوا على الا تخرج الى حيز التنفيذ خوفا من استفحال النفوذ البريطاني في مصر . وقد ألقى الباب العالي هذه المعاهدة بالفعل عام ١٧٧٧ م وقرر منع الملاحة في البحر الأحمر (١٧٠) .

توفي محمد أبو الذهب في عام ١٧٧٥ م بالحمى عند أسوار عكا ونقل جثمانه الى مصر خوفا من أن يقوم السكان بنبش قبره وكتب عنه سافاري « توفي محمد أبو الذهب الزعيم الشرير » (١٧١) والواقع ان محمد أبي الذهب فرض العديد من الفرامات على (١٧٢) الفرنسيين لمجئ الحملة الفرنسية على مصر خاصة وانها تزايدت بصورة ملحوظة في عهد كل من مراد وابراهيم بك .

قدر لمصر ان يحكمها بعد وفاة محمد بك اثنان من مماليكه هما مراد بك وابراهيم بك اللذان تحكما في شئون البلاد في الفترة ما بين عام ١٧٧٥ م حتى مجئ الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م . وقد تم تقسيم السلطات السياسية بين المملوكين فتولى ابراهيم بك مشيخة البلد وعين مراد دفتردارا كذلك اتفقا على تعيين يوسف بك أميرا للحج وقد كتب القنصل الفرنسي مور ١٧٧٥ م بان الأمراء الثلاثة خرجوا من منزل محمد أبي الذهب وانه يسعى جاهدا للتقرب من هذه القوى الرئيسية في مصر وتدعيم علاقته بهم لصالح الفرنسيين (١٧٣) .

وقد أفاض الرحالة الفرنسيون في الكتابة عن مراد

(١٧٠) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٨٤ .
Savary : Op. Cit., + 2 P. 256 (١٧١)

(١٧٢) سوف نتعرض لهذه الفرامات عند الحديث عن الجالية الفرنسية في القاهرة .

Hanotaux : Op. Cit., P. 140. (١٧٣)

وابراهيم بك باعتبارهما من أهم القوى السياسية في البلاد فتتبع أوليفيه أصولهما « انهما قوقازيا الأصل تولى تنشئتهما رجل واحد ولكن ابراهيم بك أكثر ذكاء وأكثر استقامة من مراد بك حتى عبده أكثر تحضرا من عبيد مراد ، ولكن مراد أشجع من ابراهيم ويتصف بالقسوة والكرم محب للذات يكره العمل يضع ثقته في أصدقائه ومستشاريه من الرقيق الذين تم اختيارهم من بين أكثرهم شجاعة واقداما وابراهيم أكثر ثراء من مراد ولكنه يتصف بالحرص والتنظيم ويمتلك أعدادا أكبر من العبيد » ثم يسرد أوليفيه رأيه في حكمهما « أن مصر بائسة بين هذين الرجلين الطموحين اللذين يفتقران الى موهبة العلم والأخلاق عاجزان عن اقرار العدالة » (١٧٤) .

اما الكونت دانتريج فقد التقى بماجالون عند زيارته لمصر فسجل رأى الأخير في كل من مراد وابراهيم « ان مراد يشبه محمد أبى الذهب له نفس نقائصه ، ويتسم مثله باللؤم والقسوة » (١٧٥) .

وعن أثر حكم هذين المملوكين لمصر كتب سافارى « قدر لمصر أن تترك في يد عصاة من ثمانية آلاف أجنبى يلتهمون ثروات اقاليمها ولا يكفون عن الحرب » (١٧٦) .

ثم يصف لنا الرحالة أحوال مصر السياسية منذ وفاة محمد أبى الذهب وحتى مجيء الحملة الفرنسية في ظل التنافس القائم بين مراد بك وابراهيم بك من جهة ومنافسيهم من جهة

Olivier : Op. Cit., PP. 191 — 193.

(١٧٥)

Clement : Op. Cit., P. 250.

(١٧٤)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 254.

(١٧٦)

أخرى حيث نشبت الاضطرابات في البلاد في عام ١٧٧٦ م واضطر مراد وابراهيم الى الفرار الى الصعيد ونجح منافسوه في الاحتفاظ بالسلطة فتحالف كل من يوسف بك ومحمد بك طوبال واسماعيل الكبير واسماعيل الصغير وعينوا اسماعيل بك الكبير شيخا البلد وعبر عن هذه الاضطرابات القنصل الفرنسي مور في عام ١٧٧٦ م « ان اضطرابات عام ١٧٧٦ م لم تترك للبلاد سوى الموت والدمار » (١٧٧) .

لم تنعم القاهرة بالهدوء بعد طرد مراد وابراهيم فسرعان ما نشبت الاضطرابات بين اسماعيل بك الكبير والمماليك عام ١٧٧٧ م وقد وصف سونيني انعكاس هذه الاضطرابات على الحى الفرنسى وعلى احياء القاهرة فكتب « انتشرت الفوضى والاضطرابات في كل احياء القاهرة وتكرر اقتحام الجنود المنازل واشعال النيران فيها ، وعاش التجار الفرنسيون في رعب خشية هدم حيهم ونهب ثرواتهم وقتلهم وسط اولادهم وزوجاتهم وكنت في وسط هذه المأساة وقد قمت مع بعض الشبان من الفرنسيين بالدفاع عن مدخل الشارع آخر قطرة في دمائنا ، وجاء مائتان من الجنود بأسلحتهم ورماحهم لاقتلاع باب الحى الذى يدل ملجأنا الوحيد ولكنه لحسن الحظ كان متينا فاضطروا للانصراف عنا الى المنازل المجاورة ، وقد استمر هذا المشهد المرعب يومين لم تنقطع خلالهما أصوات المدافع وصرخات الضحايا » (١٧٨) .

ثم يصف سونيني امتداد الاضطرابات في احياء القاهرة خاصة بولاق كذلك في اقاليم مصر « لم تنته الحرب بين المماليك كذلك ثورات القرى والمدن بسبب عجز أهلها عن دفع الضرائب

Hanotaux : Op. Cit., P. 143.

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 219.

(١٧٧)

(١٧٨)

فامتدت الثورات في باجورة والفيوم وطهطا واستخدام كاشف
طهطا العنف لاختصاص أهلها » (١٧٩) .

والواقع ان هذه الاضطرابات والفوضى لم يتم بتسجيلها
الرحالة الفرنسيون فحسب وانما سجلها غيرهم من الرحالة
الذين زاروا مصر خلال الفترة فأكد نوردين على امتداد الاضطرابات
الى الأقاليم » وانتهاز البدو الفرصة لقطع الطرق والسلب
والنهب مما أدى الى صعوبة السفر الى مصر العليا » (١٨٠) .

وكان من الطبيعي أن تشجع تلك الأحداث اللصوص وقطاع
الطرق للاغارة على المدن والقرى الآمنة فحدثنا سونيني عن
عصابة في الأقصر تعمل على اغراق سفن المسافرين ونهب أمتعتهم
وان الفوضى انتشرت بدرجة ملحوظة في الوجهة القبلى وان الطرق
مقطوعة بين مدن الصعيد خاصة بين قوص والقصر (١٨١) .

أراد اسماعيل بك الكبير وضع حد للفوضى والاضطرابات
التي نجمت عن فرار مراد وابراهيم الى جرجا فأرسل في
يناير ١٧٧٨ م تجريدة الى الصعيد للقضاء عليهم ويصف القنصل
الفرنسي سعادة المصريين لارسال هذه التجريدة » عم الفرح
والسرور البلاد وهنأ الناس بعضهم بعضا في الطرقات بسبب
ارسال هذه التجريدة مما يدل على مدى كراهية الشعب المصرى
للطغاة والبكوات الفارين » (١٨٢) . ويأسف سافارى على فشل
خطة اسماعيل بك الكبير فقد نجح مراد وابراهيم بك فى الحصول

Ibid. P. 312.

Norden : Op. Cit., P. 6.

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 245.

Raymond : Op. Cit., P. 791.

(١٧٩)

(١٨٠)

(١٨١)

(١٨٢)

على المساعدات القيمة من البدو وعمل ابراهيم بك على رشوة جنود اسماعيل بك الكبير الذين انضموا الى قواته فاضطر اسماعيل الى التراجع وهرب الى القاهرة ومعه خمسون جملاً محملة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة واتجه الى سورية ومنها الى الاستانة حيث حاول الحصول على وعد من الباب العالي بالعودة الى مصر ومساعدته ضد منافسيه ولكن دون جدوى . وبفرار اسماعيل أصبح ابراهيم ومراد اسياد مصر فدخلوا القاهرة وعين ابراهيم بك شيخ بلد ومراد بك اميراً للحج وتم خلع الباشا الذي ناصبهما العدااء ورحل الى الاستانة « (١٨٣) .

ويصف سافارى الاحتفالات التى اقامها مراد وابراهيم فى القاهرة فيذكر « انهما رفعاً مماليكهما الى رتبة بك وطافا فى شوارع القاهرة فى احتفال كبير ممتطين خيول مغطاة بالذهب والماس واخذوا يقدفان عملات الميدين والسكين للناس وتبعهما ستة آلاف مملوكى بثيابهم الغنية الجميلة ، كذلك ، تبعهما فرق الانكشارية، والعزبان وشهد الاحتفال اكثر من اربعمائة ألف شخص » (١٨٤) .

ولكن مراد وابراهيم رغم تخلصهما من اسماعيل بك الا انهما لم يعملوا على احلال الهدوء فى العاصمة اذ اتجها الى حسن بك ووضعاً ستة مدافع امام قصره عقاباً له على مناصرته لاسماعيل بك وأحدثت دوى المدافع « الرعب فى قلب سكان القاهرة » واندلعت الحرب من جديد وسط الشوارع وعلى اسطح المنازل ويؤكد سافارى انه « سمع اصوات الضحايا وصرخاتهم » وأفادت العصابات من الفوضى فقامت بنهب العاصمة

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 259 — 260.

(١٨٣)

Ibid P. 261.

(١٨٤)

وكان لذلك تأثيره على التجار الفرنسيين الذين أرسلوا بشكواهم الى الحكومة الفرنسية طالبين الحماية (١٨٥) .

وقد عبر القنصل الفرنسي مور في رسائله عن استمرار الفوضى في البلاد وتدهور أحوال مصر الاقتصادية « فالسكان لا يملكون ثمن شراء القمح ويقال ان عدد سكان مصر السفلى قد تناقص الى النصف » (١٨٦) .

ووصف فولنى طغيان مراد وأبراهيم بك خلال هذه الفترة بانهما « أرسلوا رجالهما على ضفاف النيل يوقفون المراكب ويسوقون ربانها تحت تهديد العصي الى القاهرة والناس يتهربون من السخرة وفرضت على تجار المدينة ضريبة هائلة وأكره أصحاب الأفران والتجار على بيع سلعهم بأسعار هى دون أسعار تكاليفها » وفي عام ١٧٨٣ م خرج مراد الى الصعيد لتعقب منافسيه خاصة وان العلاقات ساءت بينه وبين إبراهيم بك وأنقسم المماليك فريقين فخرج مراد الى الصعيد لتعقب الفارين ثم اتجه الى الجيزة . وظل الفريقان خمسة وعشرين يوما وجها لوجه يفصل بينهما النهر ولا يتقاتلان ثم شرعا فى التفاوض وتم الاتفاق على استمرارهما فى السلطة (١٨٧) .

ولتدهور الحالة أو الأحوال الاقتصادية أرسلت الدولة العثمانية حملة بقيادة حسن باشا لوضع حد للفوضى فى مصر فوصلت قواته الاسكندرية فى يوليو ١٧٨٦ م ومنها اتجه الى رشيد والدلتا وكتب ماجالون « لقد كاد حسن باشا أن يلقي

Ibid, PP. 262 — 264.

(١٨٥)

Lettres de Mure P. 199.

(١٨٦)

(١٨٧) فولنى : المرجع السابق ص ١٠٤ ، ص ٦٠١ .

القبض على البكوات ويشتمهم « وفي رشيد أكد حسن باشا للسكان انه جاء لمراعاة شئون الرعية ولكن حسن باشا عمل على التنكيل بالمماليك « فدخل منازلهم ونهبها ولم يحترم نساءهم وصادر أموالهم « (١٨٨) ، ولم يشفع لهم عند حسن باشا سوى المشايخ أحمد الدردير والعروسي والحريري فلما نهرهم قالوا له « انما نحن شافعون ، والواجب علينا قول الحق (١٨٩) ، وكتب أوليفيه عن نتائج حملة حسن باشا بأن « عين اسماعيل بك في مصر وعجز مراد وابراهيم عن تحقيق أى نصر ضد قوات حسن باشا وفرا الى الصعيد « (١٩٠) .

ولكن حسن باشا اتبع مع الفرنسيين نفس أسلوب مراد بك وابراهيم بك رغم توصيات السفير الفرنسي له في الآستانة شوازيل جوفيه فقد فرض عليهم الغرامات وكتب ماجالون يشكوه مؤكدا ان الفرنسيين قدموا له الهدايا عند حضوره مصر فقدموا له ساعة مذهبة على نحو ما كانوا يعملون مع مراد وابراهيم بك - (١٩١) .

سافر حسن باشا عائدا الى الآستانة تاركا السلطة في يد اسماعيل بك شيخ البلد الذي حرص ماجالون على تقوية نفوذه لديه حتى انه « طلب النجدة من الفرنسيين لمساعدته ضد مراد وابراهيم كذلك طلب مهندسا فرنسيا وخمسة ضباط مدفعية وعددا من صنّاع القنابل وعددا من البنائين لاقامة منشآت على النيل « فوعده ماجالون بتحقيق ذلك ولكن نشوب الثورة

Hanotaux : Op. Cit., P. 145.

(١٨٨)

(١٨٩) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ١٣٠ .
Olivier : Op. Cit., P. 193.

(١٩٠)

Clement : Op. Cit., P. 228.

(١٩١)

الفرنسية أدى الى انشغال السلطات الحاكمة في مصر فلم تستجب لمطالب اسماعيل بك ولا لرسائل ماجالون الذي أكد فيها أهمية مساعدة اسماعيل بك « لأن ذلك سوف ينهى الفوضى في مصر » (١٩٢) .

وهكذا نلمس مدى خطورة ماجالون فهو يسمى دوماً لتوطيد علاقته مع القوى السياسية في مصر أياً كانت ، ساعده على ذلك نفوذ زوجته لدى نساء المماليك ، فهو تارة يقف مع مراد وابراهيم بك وتارة أخرى مع اسماعيل بك حسب القوى الحاكمة في البلاد وقد لعب دوره باثقان ونجح في تجميع المعلومات عن القوى السياسية المختلفة في مصر خادماً بذلك مصالح بلاده .

وفي عام ١٧٩١ م توفي اسماعيل بك متأثراً بوباء الطاعون فعاد مراد وابراهيم الى القاهرة وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت في حرب مع روسيا فأثرت أن تترك لمصر حاكميها الظالمين (١٩٣) .

وبعودة مراد وابراهيم فرضت الضرائب من جديد على المنتجات وعانت البلاد من الأزمات الاقتصادية وتزايدت شكاوى التجار الفرنسيين (١٩٤) « كما تفاقم الوضع سوءاً بانتشار المجاعة في البلاد ١٧٩٣ م فامتلأت مخازن مراد وابراهيم بالقمح والشعب يعاني من المجاعة والوباء حتى أن أوليفيه أحصى عدد النعوش التي خرجت من القاهرة في يوم واحد فوجدها ثلاثمائة نعش » (١٩٥) .

Ibid : Op. Cit., P. 229.

(١٩٢)

Olivier : Op. Cit., P. 193.

(١٩٣)

Clement : Op. Cit., P. 273.

(١٩٤)

Olivier : Op. Cit., P. 195.

(١٩٥)

لا جدال ان سياسة مراد الطائشة تجاه الأجانب والمغارم التى كان يوقعها ضد التجار الفرنسيين والمصادرات التى فرضها على أموالهم كانت سببا اتخذها نابليون لمجىء الحملة على مصر فمراد استنزف ثروات مصر ثم التفت الى الأجانب والفرنسيين فاثقل عليهم بالضرائب والمغارم والمصادرات المجحفة فكثرت شكاوى التجار الى حكومة الجمهورية وقد أكد الجبرتى نفسه أكثر من مرة عدوان مراد بك على التجار الأجانب ونهب أموالهم لقد كان مراد من أعظم الأسباب فى خراب الأقاليم المصرية (١٩٦) .

ولعل أبلغ تأكيد على ذلك ما ذكره فولنى فى غرور و صلف « لا نرى فى مصر الا بلدا ملكيا بلغ أقصى درجة من التدهور السياسى والعسكرى والاجتماعى بلدا لن ينقله سوى التدخل الأجنبى ويمكن أن تكون فرنسا هذا البلد فتدخل فرنسا سوف يؤدى الى شفاء مصر من أمراضها الحالية » (١٩٧) .

ولاشك أن كتابات الرحالة قد ألقت الضوء على اضطراب الأوضاع السياسية فى مصر ، كذلك ساهمت فى إبراز مساوىء مراد بك القاسى كما وصفه ماجالون (١٩٨) والجاهل القوقازى على حد قول فولنى (١٩٩) . وأن كان بعض الرحالة قد تظاهر بالتمسك بالمبادئ الانسانية مثل سافارى لتبرير احتلال فرنسا لمصر « لانقاذ المصريين من قسوة المماليك الذين يعانون منهم كما يعانون من الطاعون والفوضى » (٢٠٠) .

(١٩٦) محمود الشرقاوى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(١٩٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

Aurlant : Op. Cit., P. 306.

(١٩٨)

(١٩٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

Savary : Op. Cit., + 2 P. 272.

(٢٠٠)

وهكذا جرت سياسة مراد بك وإبراهيم بك على مصر
النكبات وتعددت كتابات وتقارير القناصل الفرنسيين عن الفوضى
السياسية في البلاد مما حفز الحكومة الفرنسية على إرسال
الحملة الشهيرة على مصر عام ١٧٩٨ م .

وأخيرا لقد ألفت كتابات القناصل الفرنسيين وكذلك
الرحالة الفرنسيين الضوء على أحوال مصر السياسية في النصف
الأول من القرن الثامن عشر من انتشار الحروب الأهلية وانحسار
سلطة الباشوات وتورطهم في مساندة أحد أطراف النزاع ، كذلك
أوضحت لنا تلك الكتابات بروز قوة المماليك العسكرية في النصف
الثاني من القرن الثامن عشر وانفراد عدة شخصيات منهم بالحكم
ابتداء من على بك حتى مراد بك وإبراهيم بك وبذلك نلمس أن
رحالة القرن الثامن عشر تميزوا عن سبقهم في القرنين السابقين
السادس عشر والسابع عشر ولكن ينبغي ألا نغفل أن هذا
التسجيل والتدوين من قبل رحالة القرن الثامن عشر يرجع إلى
أن بعضهم يمكن اضافة صفة الجاسوسية عليه خاصة ممن
قدموا منهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مثل
البارون دي توت الذي أتى جاسوسا لمراقبة استحكامات مصر ،
كذلك أوليفيه الذي أرسلته حكومة الإدارة قبل أن تضع
اللمسات الأخيرة لاحتلال مصر فكان من الطبيعي لهؤلاء وغيرهم
أن يغتروا بتسجيل أحوال مصر السياسية في ذلك الوقت لخدمة
مصالح فرنسا .

الفصل الرابع

نشاط المصريين الاقصادى

- الزراعة .
- الصناعة .
- التجارة .

نشاط المصريين الاقتصادى

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر فسجلوا مشاهداتهم عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى على النحو التالى :

أولا الزراعة :

حرص معظم الرحالة على الحديث عن ثروة مصر الزراعية معللين أسباب هذا الثراء فأكد سافارى « أن الزراعة فى مصر من أقدم المهن وبفضلها كونت مصر امبراطورية عظيمة منذ القدم ساعد على ذلك توفر المياه والبحيرات التى تعتبر بمثابة خزانات للمياه » (١) ، أما أوليفيه فقد رأى أن مناخ مصر المعتدل هو السبب الرئيسى الذى ساعد على ازدهار الزراعة فقد « أتاح مناخ مصر الدافئ فى الشتاء واعتدال الحرارة فى الصيف الفرصة لنمو الحاصلات (٢) بينما عزى ميله الى أرض مصر الخصبة

Savary : Op. Cit., + 2 P. 274.

Olivier : Op. Cit., P. 284.

(١)

(٢)

سبب ازدهار الزراعة فمصر مشهورة بخصوبة أرضها وذلك بسبب ما يحمله لها فيضان النيل من طمي يغذى تربتها فتنتج أجود أنواع الحاصلات « (٣) ، وأرجع فولنى زيادة الانتاج الزراعى فى مصر الى كل من الحرارة والرطوبة معا « ان يسبب نمو الزرع سريعا فى مصر وانما يرجع الى الحرارة والرطوبة معا خاصة فى المناطق الواقعة بين القاهرة ورشيد « (٤) .

وقد تعجب هؤلاء الرحالة من ازدهار الزراعة فى مصر فى ظل الظروف السياسية السيئة فكتب أوليفيه « رغم ما تعانيه مصر من طغيان المماليك وانتشار المجاعات والطاعون وهجمات البدو وفرض الغرامات على الفلاحين الا أن مصر رغم كل هذه المشاكل تتمتع بثروة ورخاء زراعى كبير « (٥) .

لم يكتف الرحالة بالاشادة بثروة مصر الزراعية وتعليل الأسباب وانما وجهوا النقد فى كتاباتهم الى المصريين لعدم استغلالهم هذه الثروة استغلالا سليما فسجل سونينى « ان درجة خصوبة اراضى الصعيد اكثر من أى مكان آخر ولكن المصريين لا يعرفون كيفية الحفاظ على هذه الميزة فهم يتركون الحبوب غنية للعصافير ، كذلك لا يحسنون تخزينها مما يؤدى الى انتشار الحشرات فنرى حول الصوامع أسراب الغربان والعصافير خاصة عصافير الجنة تلتهم ما بها من الحبوب « (٦) .

كذلك حذر سافارى من « تراجع مساحة الأراضى الزراعية فى مصر بسبب زحف الرمال عليها » فكان أول من نبه الى هذه

Maillet : Op. Cit., P. 18.

(٣)

(٤) فولنى : المرجع السابق ص ٥٦ .

Olivier : Op. Cit., P. 286.

(٥)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 124.

(٦)

الحقيقة ووجه اللوم الى العثمانيين والمماليك « الذين اهملوا اقامة الجسور والقناطر مما أدى الى اتلاف مساحات كبيرة من الأراضى » (٧) .

وأكد فولنى انه رغم خصوبة أراضى مصر توفر المياه اللازمة للرى الا أن تجربة زراعة الحاصلات الأوروبية فيها قد منيت بالفشل « فقد أحضر بعض التجار الفرنسيين بذور بعض النباتات من مالطة وحاولوا زراعتها فى مصر ولكنها لم تحقق أية نتائج وعلل فولنى ذلك لأن نمو النبات فى أرض مصر عنيف الى حد أن تفوته تغذية الألياف الأسفنجية » (٨) .
قسم أوليفيه أراضى مصر الى ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

أراض لا تصلها مياه النيل حتى فى زمن الفيضان فتبقى صحراء غير مزروعة مغطاة بالرمال لا تنتج أية محاصيل .

النوع الثانى :

أراض تصلها مياه النيل أثناء الفيضان فقط وفيها تزرع أهم المحاصيل .

النوع الثالث :

أراض تصلها مياه النيل بواسطة السواقي وهى الأراضى التى تزرع فيها المحاصيل الهامة مثل القطن وقصب السكر والأنديجو (النيل) الأرز - الذرة (٩) .

Savary : Op. Cit., + 2 P. 270.

(٧)

(٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

Ollvier : Op. Cit., P. 48.

(٩)

وتبدو مهارة المصريين على حد قول أوليفيه في طريقة زراعة أراضيهم « فهم يمهّدون الأرض قبل الفيضان ثم يبذرون فيها الحبوب بعد انحساره » ، « ولا يهتم المزارعون في مصر بأن تأخذ الأرض فترات من الراحة بدون زراعة معتمدين على خصوبتها ويبدو فن ومهارة المصريين في طريقة زراعة أراضيهم حسب قوة أو ضعف الفيضان » فإذا كان ضعيفا فأنهم « يحرصون على مضاعفة عدد القنوات لكي تمدهم بالمياه طوال العام » أما إذا كان قويا فأنهم يقيمون الجسور المحاذية للنيل حتى لا تتعرض حاصلاتهم للفرق (١٠) .

وقد عدد القنصل الفرنسي ميليه أسماء بعض هذه الجسور مثل جسر النمر وجسر الأسد « وهي أسماء أطلقها الأهالي » (١١) .

أما عن الأدوات المستخدمة في الزراعة فقد ذكر الرحالة أن المصريين استخدموا الأدوات القديمة المعروفة مثل الساقية والمحراث وأوضح سافاري أهمية استخدام السواقي في حمل المياه الى المناطق البعيدة وأكد انه شاهد بنفسه بعض آثار سواقي قديمة في صحراء ليبيا مما يؤكد وصول مياه النيل الى هذه الجهات (١٢) . والواقع أن ما ذكره الرحالة عن الأدوات المستخدمة في الزراعة ذكرها أيضا علماء الحملة الفرنسية فكانت لهم نفس الملاحظات عن السواقي وغيرها من الأدوات البدائية (١٣) .

وقد اعتمد المصريون على الحيوانات في الزراعة للقيام

Ibid. P. 48.

(١٠)

Maillet : Op. Cit., P. 48.

(١١)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 274.

(١٢)

(١٣) انظر وصف مصر : ج ٥ ، ص ١٣ ، دراسة لانكريه عن « أدوات

الزراعة المستخدمة في مصر » .

بعملية حرث الأرض وحققوا من هذه الحيوانات فوائد مزدوجة فلم يقتصر استخدامها على الزراعة وإنما أفادوا من روث هذه الحيوانات لتسميد الأرض الزراعية خاصة روث الحمير والمواشي والجمال (١٤) وقد أشار جرانجيه الى استخدامهم زبل الحمام في تسميد أشجار الفاكهة « وبدونه لا يمكن أن يكون للفاكهة طعم جميل » (١٥) .

ويعرقل تطور الزراعة في مصر العديد من المصاعب التي فندها سافارى أهمها من وجهة نظره « الضرائب الباهظة التي تفرض على الفلاحين ، واستخدام البكوات والكشاف القوة والعنف في تحصيلها من الفلاحين الفقراء الذين لا يجدون مفرًا سوى بيع ادواتهم الزراعية لدفع هذه الضرائب » وهذا الاستبداد من جانب البكوات « يجعل الفلاحين عاجزين عن زراعة أجمل وأغنى مزارع العالم » أضف الى ذلك المنازعات والحروب الأهلية بين المماليك وامتدادها الى الريف المصرى مما يعرض الحاصلات للدمار وأكد سافارى انه شاهد بنفسه « قرى بأكملها أحرقت جميع حاصلاتها بسبب الحروب الأهلية والمنازعات » (١٦) .

ادرك أوليفيه أهمية ثروة مصر الزراعية فكتب الى حكومة الادارة يحثها على ضرورة الاستيلاء على مصر « ان ثروة مصر الزراعية تجعلنا لابد وأن نفكر في امتلاكها لكى نجنى العديد من الفوائد ، فانا نستطيع ان نستفيد من تربتها الخصبة ومن محاصيلها الفنية ونعمل على تطوير الصناعة والتجارة خاصة مع الأمم المتحضرة فى أوروبا وأمريكا » وبالح أوليفيه فى أحلامه

Olivier : Op. Cit., P. 287.

(١٤)

Granger : Op. Cit., P. 7.

(١٥)

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 279 - 281.

(١٦)

فكتب « علينا أن نعمل على احلال شعب جديد في مصر لكي
نتمكن من فتح موانئها لتجارة المحيط الهندي » (١٧) .

لم يكتف الرحالة بالحديث عن ثروة مصر الزراعية وانما
اهتموا بتسجيل أهم أنواع الحاصلات كما يلي :

القمح :

كتب أوليفيه « كانت مصر قديما مخزنا للحبوب أفاد منها
الرومان والعالم القديم فصدرت انتاجها الى صيدا واليونان
والجزيرة العربية اما الآن فهي مخزن الآستانة من الحبوب خاصة
القمح الذي يزرع في نواحي رشيد ودمياط » (١٨) .

ويتأخر موعد زراعته في الوجهة البحرية خمسة عشر يوما
عن الوجهة القبلية (١٩) فيزرع في مصر العليا في نوفمبر ويحصد
في ابريل بينما يتأخر حصاده في مصر السفلى حتى شهر
مايو (٢٠) ويفوق إنتاج فدان القمح في الصعيد مثيله في الوجهة
البحرية ولكن على الرغم من هذه الميزة فان سكان الصعيد
بؤساء لأنهم لا يعرفون كيفية الافادة من ثروتهم فيتعرض محصول
القمح في الصعيد للتلف من سوء التخزين (٢١) .

ويتم ارسال كميات من القمح والشعير الى الاستانة على ظهر
عشرين سفينة والى مكة المكرمة باشراف الباشا فتخرج القوافل

Olivier : Op. Cit., P. 291.

(١٧)

Ibid. P. 291.

(١٨)

(١٩) كتب نفس الملاحظة بير سيمون جيرار في وصف مصر ، ج ٤ ،

ص ٤٤ ، دراسة عن القمح .

Granger : Op. Cit., P. 8.

(٢٠)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 221.

(٢١)

من مصر العليا الى القصير ومنها الى البحر الأحمر (٢٢) وتعتبر صوامع مصر القديمة مخزنا للقمح وقد عهد الى أربعة أغوات جمع وتخزين القمح في كل من المنيا وبنى سويف وجرجا ومنفلوط (٢٣) .

ويعتبر القمح غذاء رئيسيا للسكان في مصر وهم يصنعون منه الخبز والفريك (٢٤) .

الذرة :

تزرع على ضفاف النيل في الأماكن التي يمكن ريها بسهولة ويبلغ ارتفاعها خمسة أقدام ويصنع منها المصريون الخبز وقد سمى الاغريق الخبز المصنوع من الذرة باسم Caramboch ولم يعجب جرانجيه بمذاقه فذكر « ان طعمه غير مستساغ » (٢٥) كذلك تزرع في مصر الذرة العويجة ويصنع منها الخبز أيضا وأحيانا يخلط الذرة مع الشعير ويصنع منه خبزا سيئا للغاية والبعض يضعه في الماء المغلى ويأكله مع الزبد واللبن (٢٦) .

الأرز :

يزرع في دمياط ورشيد وذلك بسبب توفر المناخ الملائم والتربة الخصبة وقد أطلق عليه سونيني اسم « الحب الغالى » وهو الغذاء الصحى للسكان والغذاء الرئيسى فى معظم مدن

Maillet : Op. Cit., P. 9.

(٢٢)

Fourmont : Op. Cit., P. 124.

(٢٣)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P, 257.

(٢٤)

Granger : Op. Cit., P. 8.

(٢٥)

Ollvier : Op. Cit., P. 294.

(٢٦)

مصر (٢٧) وأكد أوليفيه ان انتاج رشيد من الارز حوالى ١٥٠ ألف أردب يتم ارسال معظمه الى استانبول وسورية واليونان وازمير (٢٨) .

الشعير :

غذاء للخيول وثمانه اقل بكثير من القمح وترسل كميات كبيرة منه الى الأستانة وازمير وجزر الأرخبيل (٢٩) .

البقول :

ومن أشهرها العدس ويزرع في مصر العليا ويتم تصدير كميات كبيرة منه الى الاستانة وأكد أوليفيه « ان العدس المزروع في فرنسا يفوقه جودة » أما الفول فهو غذاء رئيسى للانسان والحيوان ويزرع بكميات كبيرة ويصدر الى الخارج ونفى أوليفيه كما ذكره هيرودوت عن ان المصريين لا يأكلون الفول ولا يزرعونه في حقولهم لأن الكهنة يكرهون رؤيته « (٣٠) .

الترمس :

أكد معظم الرحالة ان منطقة امبابة من أشهر المناطق انتاجا للترمس وعدد سونينى فوائده وكيفية تحضيره « فيتم نقيه في الماء ثم يغلى في الماء وأحيانا يطحن ويستعمل كمسحوق لتنعيم الجلد وتحرق جذوره مع الفحم كوقود « (٣١) .

Savary : Op. Cit., + 1 P. 62.

(٢٧)

Olivier : Op. Cit., P. 292.

(٢٨)

Ibid. P. 292.

(٢٩)

Ibid. P. 294.

(٣٠)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 22.

(٣١)

أما الخضراوات فتكثر في مصر ومنها البصل الذي يزرع بكثرة في البحيرة (٣٢) وخص أوليفيه هذه المنطقة بانتاج افضل أنواع البصل (٣٣) ، وقد عدد الرحالة أنواع الخضراوات المختلفة في مصر مثل البامية والبسلة والخرشوف .. الخ ويبدو أن الكوسة والقلقاس كان لهما مذاق خاص طيب لدى الفرنسيين ولكن يبدو أحيانا أنهم عجزوا عن تحديد بعض أسماء الخضراوات فذكر سافاري « هناك نوع صغير من الخيار حلو المذاق والطعم يتم طهيه ويسميه السكان الكوسة » (٣٤) ، أما القلقاس فقد نال حظا طيبا من الوصف بإسهاب كبير مثلما فعل رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد أفاض رحالة القرن الثامن عشر في وصف ثمرته وكيفية نموه وتوضيح حلاوة مذاقه والوصف هنا وصف تفصيلي وكأنهم يريدون أن يشاركهم القاريء الفرنسي في الشعور بحلاوة ومذاق القلقاس فوصف لوكا ثمرته « جميلة كبيرة يتم طهيه مع اللحم من أجمل الخضراوات » (٣٥) وأكس سافاري « أنه يزرع بكثرة في حدائق رشيد وهو متوفر في الأسواق طوال العام خصصت له مزارع كبيرة في دمياط ويبدو

(٣٢) ذكر نفس الملاحظة عن زراعة البصل في البحيرة لانكريه في دراسته من الريف المصري فأكد أن البصل يزرع في أرض الرحمانية وهي الوحيدة في كل ولاية البحيرة التي يزرع فيها البصل بمساحات واسعة حتى أن باعة الخضر في مكة يدهون أن البصل الذي يبيعونه من الرحمانية « انظر وصف مصر » ج ٥ ، ص ١٢ ، دراسة لانكريه « دراسة عن الريف المصري في عصر المالكي والعثمانيين » .

Olivier : Op. Cit., P. 293.

(٣٣)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 16.

(٣٤)

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 211.

(٣٥)

ان سافارى كان من القلائل الذين لم يفضلوا القلقاس فكتب
« طعمه جميل ولكنه أقل حلاوة من البطاطس » (٣٦) .

اما عن الفواكه فقد أفاض الرحالة في الحديث عنها خاصة
أشجار النخيل وتزرع بكميات كبيرة في الصعيد وفي الدلتا
وخاصة رشيد وقدم الرحالة للقارىء الفرنسى كيفية اخصاب
النخيل (٣٧) فذكر سوينى ان الفلاحين يصعدون أشجار
النخيل حيث يضعون زهور الذكور في منتصف مجموعة من زهور
الاناث لزيادة المحاصيل « وعملية تلقيح الأشجار من المناظر
المألوفة في مصر ويصعد الفلاحون الأشجار وقد ربطوا حبلا في
وسطهم ولديهم مهارة كبيرة في تسلق أشجار النخيل » (٣٨) والبلح
غذاء هام لسكان مصر له طعم جميل يستخرج منه شراب بعد
تجفيفه ويقوم بهذه العملية بعض المسيحيين في مصر كذلك في
بغداد والبصرة (٣٩) ولا تقتصر الاستفادة من أشجار النخيل
للحصول على البلح وانما يستخدم المصريون سعف النخيل
لتغطية أسطح منازلهم (٤٠) ، كما يستخدمون الجريد في صناعة
السلال وأكد أوليفيه أن انتاج رشيد من النخيل يفوق أى
منطقة أخرى (٤١) .

اما البطيخ فيزرع في الصعيد على ضفاف النيل ويزرع في
الرمال وعلل سوينى نجاح زراعته في الصعيد لأنه يحتاج

Savary : Op. Cit., + 1 P. 9.

(٣٦)

(٣٧) نفس ملاحظات علماء الحملة ، انظر وصف مصر ، ج ٥ ص ٩٩ ،

جيرار « طريقة اخصاب النخيل » .

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 269.

(٣٨)

Olivier : Op. Cit., P. 308.

(٣٩)

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 269.

(٤٠)

Olivier : Op. Cit., P. 92.

(٤١)

للحرارة وثمرته مفيدة لسكان هذه المناطق لأنها تسبب لهم الانتعاش وسط مناخ الصعيد الحار (٤٢) .

ومن أهم الفواكه التي افقت انظار الرحالة الموز ولكن ملاحظاتهم عنه لا تختلف عما ذكره رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر خاصة وصف العالم الطبيعي بيلون دي مان وأجود مناطق زراعته في دمياط والدلتا (٤٣) .

ويزرع التوت الأبيض في رشيد ودمياط أما التوت الأسود فيزرع في مصر السفلى بصفة عامة « وثماره أجمل من ثمار التوت في أوروبا » وأبدى أوليفيه أسفه « لأن السكان في مصر لا يحاولون الإفساد من أشجار التوت لتربية دودة القز واستخراج الحرير » (٤٤) .

ويزرع النبق في الحدائق « وهو متعدد الأنواع » على حد قول أوليفيه (٤٥) وقدم سونيني وصفا لشجرة النبق « شجرة كبيرة طويلة عريضة ضخمة تشبه التفاح ولكن ثمرتها أصفر » (٤٦) .

أما التين فيعرف بشجرة آدم وتين الفراعنة وطعمه جميل وأشجاره ضخمة وثمارها جميلة (٤٧) .

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 192.

(٤٢)

(٤٣). كتب بيلون ان العرب يعتبرون ان الموز هو الثمرة التي حرمها

الله على آدم .

Olivier : Op. Cit., P. 309.

(٤٤)

Ibid. P. 306.

(٤٥)

Sonnini : Op. Cit., + 2 P, 222.

(٤٦)

Ibid. P. 267.

(٤٧)

وأشجار الجميز في مصر كبيرة الحجم وهي تفوق أشجار الجميز في أوروبا من حيث الارتفاع والضخامة وثمرتها جوييلة الطعم ولكن خشب الجميز غير مفيد ولذلك يقتصر استخدامه كوقود (٤٨) .

ويزرع قصب السكر في مصر العليا وقد ارتفعت أسعاره في أوروبا خاصة البندقية ليفورن - تريستا - وأجود أنواعه في الفيوم وهو يحتاج الى عشرة أشهر للنمو على عكس الحال في « مستعمرتنا الأمريكية حيث ينمو القصب خلال أربعة عشر شهرا » والمصريون يعشقون القصب ويمصونه طوال اليوم ويصنعون منه أنواعا من المربي والشربات ويستفيدون منه للحصول على السكر « و رغم توافر قصب السكر في الصيف إلا انه يختفى من محلات القاهرة في فصل الشتاء » وقد اقيمت مصانع لاستخراج السكر في كل من جرجا وفرشوط وأخميم (٤٩) .

أما أجود أنواع الخوخ فتأتى من سيناء حيث ينمو برياً وطعمه جميل ، وتحصل مصر على (كفايتها) منه من رودس ودمشق (٥٠) .

وتزرع القشطة في دمياط ورشيد وضواحي القاهرة وأشجارها مرتفعة ثمرتها جوييلة « آسفنا لأنها لا تزرع بكثرة في مصر » هكذا كتب أوليفيه (٥١) .

أما الشمام فيزرع في الوجه القبلى ويعرف بالنمس طعمه جميل يسميه السكان « عبد الحلاوة » تنتشر زراعته في قوص

Olivier : Op. Cit., P. 305.

(٤٨)

Ibid. P. 302.

(٤٩)

Maillet : Op. Cit., P. 16.

(٥٠)

Olivier : Op. Cit., P. 310.

(٥١)

وكتب سونيني عن مزارع شاسعة للشمام تجول فيها تخلص المعلم بقطر وأكد أن مذاق الشامم والبطيخ في وجه قبلى أكثر حلاوة من وجه بحرى (٥٢) .

وينمو العنب في مصر بكثرة وتعجب ميليه من أن أوراقه يتم طهيها وقدم لنا وصفا لطريقة طهيها مع الأرز واللحم مؤكدا جمال طعمه (٥٣) .

ومن الحاصلات التي كتب عنها الرحالة الكتان فأكدوا توفره في مصر وعلل أوليفيه ذلك « بسبب ملائمة مناخ مصر لنموه وتمتد مناطق إنتاجه الرئيسى من الدلتا حتى الفيوم ويصنع منه خيوط لفزل الملابس ويصدر الى فرنسا وإيطاليا ولا تقتصر أهميته على الافادة من خيوطه وإنما يستخرج منه الزيت وتصدر كميات قليلة منه الى الاستانة » (٥٤) .

أما القطن (٥٥) فهو لا يزرع بكثرة مثل الكتان وعلل أوليفيه ذلك « لأن المحصول ينمو في الصيف حيث تكون الأراضي مغمورة بمياه الفيضان وتزرع كميات كبيرة منه في دمنهور وينقل الى رشيد والاسكندرية ويصل القاهرة كميات بسيطة منه » (٥٦) .

وينمو الزعفران في مصر على مياه الأمطار وزهرته رقيقة اعتاد التجار الفرنسيون شراء كميات كبيرة منه لتصديرها الى مارسيليا حيث تستخدم زهرته في الصباغة (٥٧) .

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 245.

(٥٢)

Maillet : Op. Cit., P. 17.

(٥٣)

Olivier : Op. Cit., P. 297.

(٥٤)

(٥٥) المقصود هنا بالقطن صنف ردى وليس القطن الذى عرفته مصر

، عهد محمد على .

Olivier : Op. Cit., P. 298.

(٥٦)

Ibid. P. 299.

(٥٧)

وتستخدم النيلة (الأنديجو) في الصباغة أيضا ويزرع بكميات كبيرة في الصعيد ولما كانت النيلة أحد مصادر ثروة المستعمرات الفرنسية في أمريكا فقد اهتم أوليفيه بالحديث عنه مقارنة بين الصنفين « فأكد ان انديجو أمريكا أفضل فهو في مصر أقل جودة ولكنه أفضل لونا ولو أحسن تصنيعه في مصر لنافس انديجو أمريكا » (٥٨) .

ومن أهم النباتات التي جاء ذكرها في كتابات الرحالة القرطم وهو يستخدم في الصباغة ويزرع في القاهرة وتستخرج من زهوره صبغة صفراء تصدر الى الخارج (٥٩) ، أما اللوتس فقد أطلق عليها سافاري نفس ملاحظة هيرودوت « انه سرير النيل » (٦٠) .

أما حبة البركة أو الحبة السوداء وتسمى نجيلة دمشق تزرع في الصعيد بكميات كبيرة توضع مع الخبز تحرص النساء على شرائها لأنها تعطي مذاقا طيبا للطعام (٦١) .

واللحنة استخدامات متنوعة فهي تستخدم في الصباغة وتخصيب (تلوين) الأظافر أوراقها بيضاء تنمو طبيعيا وقد قدم سونيني وصفا لكيفية تخصيب الأيدي والأرجل باللحنة حتى تصطبغ باللون الأحمر وهي تستخدم في الاحتفالات وفي الحمامات (٦٢) .

Ibid. P. 300.

(٥٨)

Ibid. P. 296.

(٥٩)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 8.

(٦٠)

Olivier : Op. Cit., P, 208.

(٦١)

Sonnini : Op. cit., + 1 P. 294.

(٦٢)

كذلك كتب الرحالة عن الحشيش وزراعته في مصر فذكر
سونيني « ان المصريين يسمونه الكيف » (٦٣) ، واكد اوليفيه
ان المصريين كانوا يزرعون الخشخاش « ولكنه أصبح نادرا
اليوم » وكما يزرعون القنب ويستخدمون أوراقه وثمره أقل من
ثمر الخشخاش ويستخدم على شكل مسحوق ويخلط مع
العسل (٦٤) .

وينمو الريحان في الحدائق وله رائحة جميلة ويستخدم
في الزينة (٦٥) ، كذلك ينمو اللبلاب في الحدائق وهو نبات متسلق
يشاهد على جدران النوافذ ويساعد على انتعاش وتلطيف
الجو (٦٦) .

كذلك قدم الرحالة وصفا تفصيليا لأشجار الطلح وهي التي
أفاض في الحديث عنها من قبل رحالة القرنين السادس عشر
والسابع عشر (٦٧) ، وذكر أوليفيه أن ارتفاع هذه الأشجار
حوالي اثني عشر قدما أخشابها صلبة زهورها تشبه تلك التي
تزرع في فرنسا وتستخدم في صناعة العطور (٦٨) .

أما عن ثروة مصر الحيوانية فقد قدم الرحالة وصفا دقيقا
تفصيليا عن الحيوانات والطيور في مصر أسوة بالرحالة السابقين
فاكدوا غنى مصر بالأبقار والماشية والجاموس والعجول والأغنام

Ibid, P. 294.

(٦٣)

Olivier : Op. Cit., P. 297.

(٦٤)

Ibid, P. 312.

(٦٥)

Ibid, P. 312.

(٦٦)

(٦٧) وصف بيلون والحسن بن الوزان (ليو الافريقى) من اشجار

الطلح وصفا دقيقا « بأنها شجرة شوكية تنتج قان من الصمغ يشبه المستكة » .

Olivier : Op. Cit., P. 306.

(٦٨)

والماعز وأكدوا نفس الملاحظات التي أوردها الرحالة السابقون خاصة فيما يتعلق بحجم الماشية فذكروا أن حجم الماشية في مصر يفوق حجمها في أي بلد آخر كذلك ذكروا أن حجمها في الوجه البحري يفوق حجمها في الوجه القبلي وأضاف سونيني « أن الماشية والأغنام في مصر العليا يغلب عليها الشراسة والتوحش » وعلل ذلك « لطبيعة أراضى الوجه القبلي فهي محصورة بين جبال البحر الأحمر والنييل ولذلك اكتسبت الحيوانات في هذه المناطق شراسة واضحة » كذلك أورد سببا آخر ألا وهو ارتفاع درجة الحرارة في صعيد مصر (٦٩) ، وقد أكد علماء الحملة الفرنسية نفس هذه الملاحظات فذكر جيار « أن قطعان الجاموس أقل فظاظة كلما هبطنا نحو الشمال » (٧٠) .

وتأتي الماعز الى مصر من الحبشة وهي أصغر حجما في الوجه القبلي عن الوجه البحري (٧١) .

أما الجمال فقد خصصت للانتقال والسير في الصحراء وأكد أوليفيه أن طبيعة تكوين الجمال وأقدامهم العريضة قد ساعدت على تحملهم مشاق الصحراء والسير على الصخور الجافة الصخرية ولذلك فالجمال حيوان مقيد على حد قول أوليفيه وهو معروف في فارس وآسيا الصغرى ثم أعطى أوليفيه وصفا دقيقا للجمال عن كيفية اختزان الجمال للمياه في أمعائه للافادة منها فيما بعد (٧٢) .

أما الخنازير فقد ذكر الرحالة « أن المصريين يمتنعون عن

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 197.

(٦٩)

(٧٠) انظر وصف مصر ، ج ٥ ، ص ١٠٥ .

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 290.

(٧١)

Olivier : Op. Cit., P. 176.

(٧٢)

أكله لأن لحمه محرم في شريعتهم » وأكد سونيني « انه اذا مس الخنزير شخصا مسلما فانه يسرع بالقاء نفسه في النيل ليتطهر منه باعتباره نجسا » ولا يقتصر الامتناع عن تناول لحم الخنزير على المسلمين فقط. وانما لا يأكله اليهود ايضا ورغم عدم تحريمه على الأقباط الا انهم لا يأكلون لحم هذا الحيوان الا نادرا (٧٣) .

ومن الحيوانات التي خصص الرحالة السابقون فصولا بأكملها للحديث عنها فرس النهر وقد لقي نفس الاهتمام من رحالة القرن الثامن عشر ولكن سونيني أكد ان أعداده تناقصت بدرجة كبيرة ملحوظة عن القرنين السابقين وعل ذلك « لأن الممالك استخدموا الأسلحة النارية لصيده وانه شاهدهم ينصبون الخيام ويقيمون المعسكرات لمدة أيام خصيصا لصيده » وكتب سونيني أسفا على تناقص أعداد فرس النهر « والذي كان يشاهد كثيرا في دمياط » (٧٤) وقد عل العالم سونيني سبب تواجد فرس النهر في نيل دمياط « ان ذلك يرجع الى طبيعته حيث يكثر ويتواجد عند مصبات الأنهار » (٧٥) .

واضف الى فرس النهر اهتمام الرحالة بالحديث عن وعمل الأوريكس او المها ، كذلك قط الزباد والأنواع المختلفة في صحراء سيناء والصحراء الشرقية وقد سبقهم في الكتابة عنها من سبقوهم من الرحالة (٦٧) .

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 298.

(٧٣)

(٧٤) أكد لرمنال في القرن ١٧ أن فرس النهر لا يتواجد الا في نيل دمياط

فقط .

Sonnini : Op. Cit., + 3 PP. 199 — 204.

(٧٥)

(٧٦) وعمل الأوريكس يشبه الثور وان كان أصغر حجما ، اما قط الزباد

فيستخرج الزباد من ذيله وحالبه .

أما الزواحف فقد أسهب الرحالة في وصفها ولم تختلف ملاحظاتهم كثيرا عن سبقوهم من الرحالة (٧٧) ولعل التمساح قد نال نصيبا كبيرا من الاهتمام فحرص الرحالة على وصف جسده وأبدى لوكا دهشته عندما شاهد مجموعة من العصافير تقوم بتنظيف أسنان التماسيح دون أن يمسوها بسوء (٧٨) .

وتحوى مصر أعدادا كبيرة من الطيور منها البجع الذى لقبه سافارى « بملك الطيور » لبياض وجمال لونه ، كذلك عدد الرحالة فوائد أبو قردان « فهو يقوم بالتهام الثعابين والضفادع (٧٩) . ومصر مشهورة بالحمام وقد أقيمت له الأبراج العالية وهناك أنواع منه استخدمت فى المراسلات (٨٠) وقد حدد ميليه أماكن الحمام الزاجل فكتب انه « أقيمت له الأبراج فى القلعة ولها اتصال بأبراج ديار بكر ودمشق والقدس وحلب » وتعجب القنصل ميليه من عدم وجود أبراج للحمام الزاجل الا فى القاهرة فلا توجد أبراج فى دمياط ولا فى الاسكندرية وأبدى دهشته من قدرة الحمام الزاجل على قطع المسافة مباشرة من القاهرة الى دمشق وغيرها من المدن والمناطق وأكد ان هذا الحمام استخدم لتبادل المراسلات الهامة ولكنه أيضا استخدم فى بعض الأحيان لتبادل بعض الرسائل الغرامية فقد عثر ميليه على رسالة من سيدة فى القاهرة وجهتها الى شخص فى حلب تضمنت الرسالة أبياتا من الشعر أبياتا كتبها ميليه كما هى باللغة

(٧٧) خصص بيلون فصلا بأكمله لوصف شكل التمساح كذلك أوضح فرمنال طرق صيده ، انظر الهام ذهنى المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٧٨) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 9.

(٧٩) Savary : Op. Cit., + 2 P. 45.

(٨٠) الحمام الزاجل .

العربية ولكن بحروف فرنسية حوت عبارات عن لقاء
المحبوب (٨١) .

ويهدد الطيور في مصر حيوان النمى الذى أطلق عليه
الرحالة فأر الفراغة وهو نفس اللفظ الذى أطلقه عليه من قبل
الرحالة السابقون وأكد أوليفيه ان النمى يربى فى الحدائق
للتخلص من القطة والفئران ولكنه يأكل الدجاج والطيور وهو
يشكل خطرا كبيرا على الطيور (٨٢) .

ومن الحيوانات التى هددت الطيور في مصر الفأر النطاط
وقد ذكر سونيني « انه يأكل العصافير يساعده على ذلك أسنانه
القوية وله آذان طويلة وشعره يغطى جسده » وهو يشبه
الأرنب ويعيش فى افريقيا وأرجله الخلفية أطول من الأمامية
يقفز مثل العصافير وقد أشار الى هذا الفأر هيرودوت كذلك
الرحالة البريطانى بروس وقدم سونيني بحثا عنه عام ١٧٨٩ م
نشر فى فرنسا (٨٣) .

ويبدو ان الطيور فى مصر لم تلفت انظار الرحالة الفرنسيين
وانما تحدث عنها الرحالة الروس أيضا خاصة الرحالة فيشنسكى
فخصص فصلين للحديث عن طيور مصر معللا أسباب تكاثرها
لمناخ مصر المعتدل الذى يمتاز بالدفع طوال العام وقد كتب
واصفا النعام « لديها نظرة حسادة تأكل كل شىء حتى
الحديد » (٨٤) .

Maillet : Op. Cit., PP. 140 — 142.

(٨١)

Olivier : Op. Cit., P. 101.

(٨٢)

Sonnini : Op. Cit., + 1 PP. 156 — 165.

(٨٣)

Volkoff : Op. Cit., P. 58.

(٨٤)

وأخيرا لقد قدم لنا الرحالة وصفا للحشرات ويبدو انهم
عانوا من لدغها ، فكتب سونيني « ان سكان مصر اعتادوا على
لدغ الحشرات فلم تعد تسبب لهم ألما خاصة في الوجه القبلي »
وعزى سونيني تدهور صحة سكان مصر بسبب انتشار الكدمات
الكبيرة من الناموس التي تملأ الجو ، ولكن هناك بعض الحشرات
النافعة لعل أهمها النحل الذي يكثر في الصعيد والوجه البحري
خاصة في الصيف والمصريون لديهم مهارة كبيرة في تربيته (٨٥) .
وكتب سافاري بشاعريته ان من أجمل المناظر التي يراها المرء
هي « عودة النحل » الى خلاياه بعد أن تجول بين أزهار البرتقال
المعطرة في الصعيد وأزهار الورود في الفيوم وأشجار الياسمين
فيعود لخلاياه ليعطي ثروة جديدة من العسل اللذيذ
الطعم » (٨٦) .

Sonnini : Op. Cit., + 3 PP. 224 — 229.

(٨٥)

Savary : Op. Cit., + 3 P. 283.

(٨٦)

أما عن الصناعة فلم تعرف مصر الصناعات الكبرى كما أوضح الرحالة وإنما عرفت الصناعات الصغرى وكان نظام الطوائف هو السائد في مصر وقد وصف ميليه الصناعة في مصر « بأنها بدائية متأخرة متدهورة » (٨٧) وعبر سونيني عن أسفه لتدهور الصناعة في مصر وهي التي كانت صاحبة حضارة عريقة (٨٨) .

تحدث الرحالة الفرنسيون عن بعض الصناعات المنتشرة في مصر خاصة استخراج ملح النشادر من وادى النظرون واستخدامه لأكساب الأقمشة اللون الأبيض وانتشار مصانعه في رشيد وفي مصر . وهنا نوع منه يعرف بالنشادر السلطاني يتم تصدير كميات كبيرة منه الى فرنسا خاصة مارسيليا وروان ويستخدم في الصباغة ويتم اكساب الأقمشة اللون الأبيض عن طريق سكب الماء البارد على القماش لمدة ثلاثة أيام ثم يغلى الماء ويوضع له النشادر (٨٩) .

وقد أشار العلماء الفرنسيون في دراستهم في وصف مصر الى هذه الصناعة مؤكدين اهتمام الرحالة والعلماء بها في

Maillet : Op. Cit., P. 194.

Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 257.

Ibid, P. 252.

(٨٧)

(٨٨)

(٨٩)

القرن الثامن عشر فقد لفتت هذه الصناعة أنظار الرحالة منذ بداية القرن الثامن عشر فكتب عنها الأب سيكار عام ١٧١٦ م ثم قدم دراسته عنها الى الأكاديمية في فرنسا مؤكدا أن ملح النشادر يمكن الافادة منه عن طريق التصعيد واكد في رسالته التي نشرها في يونيو ١٧١٦ م في المجلد الثاني من دراسات مبشرى صحبة يسوع في الشرق ردا على أسئلة الأكاديمية على طريقة صناعة ملح النشادر في مصر ، ثم اكد هذه الحقيقة القنصل الفرنسي لى مير عام ١٧١٩ م في رسالة الى الأكاديمية عن ان ملح النشادر يستخلص عن طريق التصعيد « (٩٠) .

وتعتبر صناعة الجلود من الصناعات الهامة في مصر وعلل اوليفيه انتعاش هذه الصناعة بسبب توافر وتكاثر الماشية في مصر ورد ذلك الى اعتدال المناخ وتوافر مياه النيل (٩١) .

ورغم ندرة الأخشاب في مصر الا أن هناك العديد من الصناعات الخشبية لعل أهمها صناعة المراكب والتي تم شراء أخشابها المتينة من دنقلة فتم بناء المراكب القادرة على اجتياز مناطق الشلالات والجنادل ، وقد ذكر الرحالة بعض أنواع القوارب « وفي مصر مراكب تشبه مراكب الفلاندر في هولندا تستخدم للمرور من مدينة الى أخرى وبها أماكن مخصصة للنساء وحجرة مخصصة للرجال وحجرة الخدم تستخدم للطهي، كذلك توجد مراكب ثلاثة أدوار تحمل عددا كبيرا من الناس تشبه القصور المفروشة بالسجاجيد ويفضل سكان القاهرة الانتقال

(٩٠) انظر دراسة الكيمائي كوليه ديكوتيل عن صناعة ملح النشادر ،

وصف مصر ، جـ ٦ ، ص ٢٩٢ .

Olivier : Op. Cit., P. 314.

(٩١)

في هذه المراكب على أصوات الموسيقى « (٩٢) ، وهناك نوع من السفن يسمى الجرمة « وهي مركب بحيرة ظهرها صلب منخفضة من الأمام صممت بهذا الشكل لتستطيع عبور النيل بسهولة بها مجدافان وثلاثة قلوخ « (٩٣) .

أما عن صناعة المنسوجات فقد وجد الرحالة ان فرنسا تفوق مصر في انتاج المنسوجات « منسوجات مصر من القطن والحرير ليست جميلة وذلك لأن أدوات المصريين بدائية » ويستخدم القطن المفزول في رشيد في صناعة المنسوجات القطنية التي تصنع منها ملابس الفلاحين ويوجد في رشيد ثمانية مغازل ويتم تعبئة القطن في بالات بعد تنظيفه ويوجد في رشيد ١٢ محلا تعمل في القطن وتصدر الى الخارج ، وتنتشر صناعة الفزل والنسيج في الوجه القبلي في اسنا وقوص - قنا - بنى سويف ، كما تنتشر صناعة الكتان والمنسوجات المصنعة من الكتان والصوف في دمياط والمحلة الكبرى (٩٤) .

وتنتشر في مصر صناعة الأواني الفخارية والزجاج ويستخدم روث الأبقار كوقود لاشعال النيران (٩٥) .

ومن الصناعات الفدائية الهامة ضرب الأرز وتبييضه خاصة في رشيد التي يوجد بها خمسون مصنعا لضرب الأرز ، ثلاثون منها تستخدم فيها الماشية لإدارة العجلات أما باقى المصانع فيستخدم فيها القوى البشرية (٩٦) .

Maillot : Op. Cit., P. 80.

Olivier : Op. Cit., PP. 83 — 97.

Ibid, P. 98.

Grandger : Op. Cit., P. 258.

Olivier : Op. Cit., P. 99.

(٩٢)

(٩٣)

(٩٤)

(٩٥)

(٩٦)

وفي صناعة الزيوت يستخرج الزيت من بذور الخس والقرطم والسمن والكتان ويقتصر طعام الأثرياء على زيت الزيتون المجلوب من تونس والمغرب ولكن معظم السكان يعتمدون على السمن في الحصول على الزيت وتستخدم بقاياها علفا للحيوان (٩٧) .

وتنتشر صناعة شمع العسل في مصر وعلل أوليفيه انتشار هذه الصناعة لأن مصر بها كميات كبيرة من الورود والزهور ويجيد الأقباط العمل في هذه الصناعة خاصة في الصعيد حيث يتوافر العسل وقد فرض المماليك الضرائب على هذه الصناعة (٩٨) .

أما صناعة تفريخ البيض (٩٩) ، والمقصود بهذه الصناعة هو استخراج الكتاكيت دون اللجوء الى طريقة الحضانة الطبيعية وذلك بابدال حرارة الدجاج بحرار مشابهة يتم الحصول عليها بشكل صناعي في أنواع من الأفران عرفها الرومان والمصريون وتحدث عنها بليني ويستخدم المعمل في الحضانة الواحدة تفريخ من ثلاثة آلاف الى أربعة آلاف ، يتم صف البيض في أفران متعددة الطوابق ويكون الطابق الأخير مثقوبا ويتم اشعال نار هادئة لمدة اسبوع فيبدأ بعد ذلك خروج الكتاكيت الصغيرة ، وقد قدم الرحالة وصفا لهذه الصناعة فوصفها جرانجيه وسيكار

Ibid, P. 99.

(٩٧)

Ibid, P. 313.

(٩٨)

(٩٩) ذكر هذه الصناعة الرحالة الفرنسيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، انظر الهام ذهني ص ٨٢ ، تحدث عنها كذلك علماء الحملة الفرنسية ، انظر وصف مصر ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ، دراسة المهندس روزير واليدلي روييه عن « صناعة تفريخ البيض » .

كذلك غيرهم من الرحالة الذين زاروا مصر مثل نوردون ونيبور (١٠٠) .

وفي مدن مصر الساحلية انتشرت صناعة تمليح الأسماك خاصة في دمياط ورشيد وعلل أوليفيه ذلك « بسبب انتشار الملاحات في هذه المناطق ولذلك اختصت مدن شمال مصر بهذه الصناعة » (١٠١) .

التجارة :

رغم ما أصاب مصر من تدهور سياسى فى القرن الثامن عشر إلا انها ظلت سوقا للمتاجر الواردة اليها من الشرق والبحر الأحمر وذلك لأنها تمتعت بموقع جغرافى هام بين البحر المتوسط وآسيا وأفريقيا وأوروبا والهند فظلت مركز المواصلات والتجارة فى العالم (١٠٢) . فمصر تتصل بالهند بواسطة البحر الأحمر وتنفذ السفن الى ميناء السويس محملة ببضائع الهند وبلاد العرب حيث تنقلها القوافل الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية (١٠٣) وفى الاسكندرية تصل السفن القادمة من أوروبا وآسيا الصغرى وسورية وبلاد المغرب لتحصل على البضائع الشرقية والافريقية (١٠٤) .

وتتصل مصر بأفريقيا بواسطة القوافل فتصلها القوافل القادمة من الحبشة والنوبة كذلك يفد اليها من غرب افريقيا

Granger : Op. Cit., P. 157.

(١٠٠)

Oliver : Op. Cit., P. 96.

(١٠١)

Olivier : Op. Cit., P. 316.

(١٠٢)

Fourmont : Op. Cit., P. 23.

(١٠٣)

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 185.

(١٠٤)

القوافل القادمة من دارفور وكردفان والتي تسير بمحاذاة نه النيل حتى دنقلة ثم تعبر الشلالات والجنادل متبعة مجرى النهر حتى أسبوط التي مثلت في القرن الثامن عشر مستودعا للسلع الأفريقية (١٠٥) ، كذلك تصل الى مصر القوافل القادمة من بلاد الشام ومكة وفارس حاملة بضائع هذه المناطق (١٠٦) .

وظلت موانئ البحر المتوسط مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط تتعامل مع مدن فرنسا خاصة مارسيليا وليفون وه جنوة والبندقية وكريت واليونان وأزمير ومدن بلاد الشام (١٠٧)

واستمر عمل الوكالات في مصر حيث يحفظ التجار بضائعهم وضمت هذه الوكالات التجار من مختلف الجنسيات (١٠٨) .

أوضح الرحالة الفرنسيون أهم صادرات مصر الى فرنسا كما يلي :

البُن :

يمثل البُن أهمية اقتصادية كبيرة وحققت تجارته أرباحا كبيرة في فرنسا خاصة وان شرب البُن (القهوة) انتشر بشك ملحوظ منذ عهد لويس الرابع عشر وقد قدر القنصل الفرنس ميليه ما استورده الفرنسيون من البُن في عام ١٧٨٦ م بنحو ٢٧٢.٩٠٠ رانية جنيه (١٠٩) .

وقد ذكر أوليفيه ان هناك ثلاثين مركبا تحضر البُن سنو

allet : Op. Cit., PP. 215 — 220.

(١٠٥)

id, P. 220.

(١٠٦)

icas : Op. Cit., + 3 P. 185.

(١٠٧)

urmont : Op. Cit., P. 66.

(١٠٨)

ement : Op. Cit., P. 128.

(١٠٩)

من جدة الى السويس ويبلغ قيمة ما تحمله ١٥ مليون فرنك ،
فالبن مطلوب في سورية وازمير والاستانة وقد صدرت كميات
كبيرة من الخليج العربى الى البصرة ثم بغداد والموصل وديار
بكر ثم آسيا الصغرى ولكن تجار فرنسا خاصة تجار ايفورن
ومارسيليا يحصلون عليه من الاسكندرية ويتراوح قيمة
ما يشترونه منه مليون الى ثلاث ملايين فرنك سنويا ويرتفع ثمن
البن في مصر من مدينة الى اخرى فهو ينقل من القصير الى قنا
ثم اثنوب وقوص حتى يصل الى الاسكندرية فيضاف اليه ثمن
انتقاله من القاهرة ، واجود انواع البن بن مخا « وهو يماثل
في جودته بن البرازيل » (١١٠) .

الجلود :

كتب الوزير الفرنسى بونشتران عام ١٦٩٢ م « ان اجود
وافضل انواع الجلود التى ترد الينا هي جلود مصر » وقد اقبل
التجار الفرنسيون على شراء الجلود المصرية اقبالا كبيرا حتى انه
تكونت الشركات لشراؤه من مصر منذ عام ١٦٩٢ م وعينت غرفة
تجارة مارسيليا مراقبا منها في عام ١٧١٩ م واصبح مراقب
الجلود في الاسكندرية يشتري الجلود ليس فقط لصالح الفرنسيين
وانما لصالح اليهود والبريطانيين كذلك وقد حرص القناصل
الفرنسيون على تنظيم عملية شراء الجلود بين التجار الفرنسيين
منعا للتنافس فيما بينهم (١١١) .

السنا :

نبات طبي ينمو في مصر العليا والنوبة وفي سنار في السودان
يوجد في الاراضى الرملية التى تصل اليها مياه النيل وهناك

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 219.

(١١٠)

Clement : Op. Cit., P. 126.

(١١١)

نوعان ، الأول منه أوراقه مدببة ، والثاني أوراقه عريضة ،
وتجىء منه كميات كبيرة من مصر العليا الى بولاق والقاهرة
حيث ينقل بعد ذلك الى أوروبا والاستانة وفارس وبلغ قيمة
ما صدرته مصر الى أوروبا خمسة ملايين فرنك (١١٢) .

التمر هندي :

تأتى به القوافل من النوبة وأثيوبيا حيث ينمو في الأراضي
الخشبة كما يزرع في حدائق القاهرة ورشيد ويستهلك جزء كبير
منه محليا وهو مشروب ملطف للحرارة وتصدر منه مصر كميات
كبيرة الى أوروبا وفرنسا (١١٣) .

الصمغ العربي :

ويعتبر من أهم الصادرات لمصر وهو ينمو في مصر العليا
ويصل الصمغ الى القاهرة بواسطة القوافل وقد بلغ قيمة
ما يحصل عليه تجار مارسيليا من الصمغ من الاسكندرية نحو
٣٠٠ ألف فرنك سنويا .

والصمغ أنواع فهناك نوع من الصمغ العربي يصل الى
مصر من جدة وينقل من السويس الى القاهرة بواسطة القوافل
ويستورد تجار مارسيليا ما قيمته ٤٠٠ ألف فرنك سنويا .
وهناك نوع آخر يسمى صمغ Turique ينمو في داخل
افريقيا من نفس الشجرة التي تخرج الصمغ ولكن الأول يمتاز
بأن حجمه أكبر وأقل شفافية .

Olivier : Op. Cit., P. 327.

Olivier : Op. Cit., P. 327.

(١١٢)

(١١٣)

صمغ السنندر :

ويوجد في فارس والجزيرة العربية يشتره التجار الأوروبيون بكميات كبيرة من أسواق القاهرة .

صمغ الراتنجى :

ينمو في جنوب مصر والجزيرة العربية والليبية وجنوب شرق فارس .

صمغ جلبينة :

ينمو في جنوب مصر والجزيرة العربية وفارس ، يصل ميناء السويس ومنه الى القاهرة ويحصل تجار مارسيليا وايطاليا على كميات كبيرة منه .

صمغ الحتليت :

وهو كرية الرائحة ينمو في فارس - قندهار - شمال هندوستان - مسقط - نجد - مخا وتحمله السفن الى السويس ومنه الى القاهرة والاسكندرية ويبلغ قيمة ما يحصل عليه تجار مارسيليا سنويا نحو اربعة آلاف فرنك (١١٤) .

البخور :

من أهم صادرات مصر يتم جلبه من الجزيرة العربية وساحل شرق افريقيا الى السويس ثم القاهرة ويصدر الى الاستانة وأوروبا وليغورن والبندقية ويبلغ قيمة ما يحصل عليه الفرنسيون من البخور سنويا حوالي ٢٠٠ ألف فرنك .

المسك :

تحضره القوافل الى القاهرة ويصدر منها الى الاستانة وتستورد ليفورن ومارسيليا كميات كبيرة منه فتستورد ما قيمته أربعة آلاف فرنك .

الآلوة أو الصبر :

يصل الى القاهرة بواسطة القوافل من داخل افريقيا والبعض منه يصل من بلاد العرب الى السويس ثم القاهرة ويصدر الى الاستانة وايطاليا ويباغ قيمة ما تستورده مارسيليا سنويا من ثلاث آلاف الى أربعة آلاف فرنك .

بلسم مكة :

كان يباع قديما بوزنه ذهبيا وهو ينقل الى القاهرة ومنه الى أوروبا وهو افضل من بلسم أمريكا كما ان سعره اقل .

الكركم :

ينمو في سيلان - ساحل الملبار - الهند - ويصل من البحر الأحمر الى السويس ومنها الى القاهرة ويصدر الى مارسيليا ما قيمته ألفان أو ثلاثة آلاف فرنك سنويا .

بوصير

ثمرة طبية يسميها الفرنسيون ديك الشرق تنمو في جزر الهند الشرقية وتصدر منه مصر الى مارسيليا ما قيمته ٢٠ ألف فرنك .

الأبنوس :

يتم جلبه من داخل افريقيا ويصدر الى أوروبا وأمريكا .

ومارسيلىا والتى تحصل على ما قيمته من عشرة آلاف الى
عشرين ألف فرنك .

تراب الذهب :

يتم تجميعه من ضفاف انهار افريقيا الداخلية وتصنع
الحكومة المصرية العملة المصرية منه في القارة ويستورد الفرنسيون
منه كميات معقولة (١١٥) .

ريش النعام :

يتم احضاره من افريقيا ويصدر الى مارسيلىا ما قيمته . ٤
الى ٥ ألف فرنك .

شجرة اهليلج

شجر يأتى من الهند يستخدمه الأطباء في العلاج ويصدر
الى ليفورن - مارسيلىا .

جنرور Pyrêtre :

نوع من الحشيش الكافورى معالج للحمى ينمو في الجزيرة
العربية ويصدر الى مارسيلىا .

الزنجبيل :

يأتى من هندستان ويصل الى السويس ثم القاهرة
ويشترى الفرنسيون منه كميات كبيرة .

العبيد :

تناقصت أعدادهم في أسواق القاهرة لأن الأتراك يفضلون العبيد البيض ولم يهتم الأوروبيون بهذه التجارة في مصر (١١٦) .

أما عن واردات مصر من فرنسا فقد شملت المنسوجات والأوراق والنحاس والحديد والقصدير والابر وبعض منتجات جزر أمريكا على أن الأقمشة خاصة أقمشة لانجدوك وأقمشة مارسيليا شكلت أهم صادرات فرنسا لمصر وكانت مطلبا لكبار الشخصيات في مصر خاصة البكوات وفي عام ١٧٤٨ م كتب القنصل الفرنسي ليرنكور « ان أقمشة لانجدوك أساس تجارة فرنسا في مصر ، ان الأقمشة الفرنسية من الجوخ تمثل أحدث صيحات الموضة في مصر » وقد بلغ مجموع ما استوردته مصر من هذه الأقمشة سنويا حوالي من ٣٥٠ الى ٤٠٠ بالة بيعت في القاهرة و ١٢ بالة لرشيد ومن ٦ - ٨ بالات في الاسكندرية وقد بيعت معظم هذه المنتجات في القاهرة ثم خرجت القوافل تحملها ضجة الى مكة وفارس والهند واثيوبيا وقد نافست المنسوجات البريطانية المنسوجات الفرنسية وتزايد الطلب عليها وكتب ليرنكور « الأقمشة الفرنسية أقل في الثمن والوانها أفضل ولكن الأقمشة البريطانية تمتاز بالمثانة » (١١٧) .

وجدير بالذكر ان غرفة تجارة مارسيليا حرصت على متابعة وفحص الأقمشة التي تصل الى مصر للتأكد من نوعيتها وجودة صباغتها فكتب نائب القنصل مليه عام ١٦٩٩ م من الاسكندرية « توجهت الى الجمرك وفحصت الأقمشة الواردة من فرنسا

Ibid, PP. 336 — 337.

Clement : Op. Cit., P. 204.

(١١٦)

(١١٧)

لمعرفة جودتها لأن الكمية التي وصلت مؤخراً كانت أقل في المستوى « كما ذكر لى التجار » كما أكد ميليه على غرفة تجارة مارسيليا عام ١٧١٢ م « بضرورة الاهتمام بالألوان والصبغة لأن الأقمشة البريطانية حققت سمعة طيبة » ونتيجة لشكاوى وكتابات ميليه أصدر الوزير بونشتران عام ١٧١٣ م أمراً بعدم تصدير أو بيع الأقمشة الفرنسية إلا بعد أن تعرض على مكتب تفتيش تابع لغرفة تجارة مارسيليا « (١١٨) » .

وقد قدر فولنى عندما زار مصر أرباح التجار الفرنسيين من بيع الأقمشة خاصة أقمشة لانجدوك بتسعمائة أو ألف بالة وقدرت أرباحهم بـ ٣٥٪ ، ٤٠٪ (١١٩) .

وكان من الطبيعي أن تتأثر تجارة فرنسا بنشوب الحروب في أوروبا خاصة حرب السنوات السبع فقلت الواردات الى مصر بسبب تواجد السفن البريطانية في البحر المتوسط وفي خليج أزمير وسالونيك فشكا القنصل الفرنسي في مصر من قلة الواردات الفرنسية الى مصر . ولكن التجار الفرنسيين استطاعوا نقل بضائعهم من فرنسا الى مصر على ظهور المراكب التابعة لدول أخرى أوروبية فكتب القنصل الفرنسي عام ١٧٥٨ م « أن تجارتنا كلها تتم على ظهور المراكب الأجنبية خاصة السويدية والهولندية وبعد انتهاء حرب السنوات السبع انتعشت تجارة الفرنسيين الى مصر » وتواندت السفن من مارسيليا تحمل الأقمشة الفرنسية الى مصر (١٢٠) .

Ibid, P. 124.

(١١٨)

(١١٩) فولنى : المرجع السابق : ص ١٤٧ .

Clement : Op. Cit., P. 232.

(١٢٠)

وقد اقيمت في موانئ مصر ومدنها جمارك لتحصيل الرسوم على الواردات خاصة في القاهرة وبولاق ومصر القديمة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس والقصر وقد اختص مراد بجمارك مصر كلها فيما عدا جمرك السويس الذي كان من نصيب ابراهيم بك وكان يتولى أمر الجمارك حتى مجيء على بك اليهود ثم تولى ادارتها بعد ذلك الشوام المسيحيون القادمون من سورية ويذكر فولنى ان « الشوام أظهروا بدورهم الرغبة في الاستبداد بالتجارة شأنهم شأن اليهود » ويمكن القول ان ادارة الجمارك في مصر شأنها شأن تركيا يقوم بها افراد يجمعون بين مهمتى المراقب والملتزم العمومى ويوكل اليهم جميع رسوم الدخول والخروج وهم مكلفون بجبايتها والتزام الجمارك لمدة سنة (١٢١) .

ولما كانت التجارة في مصر بصادراتها ووارداتها تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لفرنسا لتدعيم مصالحها الاقتصادية والسياسية فقد اقترح الرحالة والقناصل احياء فكرة وصل البحرين الأحمر والمتوسط لما لهذا المشروع من فوائد كبيرة حقيقية . ان هذه الفكرة لم تكن وليدة القرن الثامن عشر (١٢٢) الا انها ظهرت بوضوح خلال هذا القرن . وقد أيد القناصل والرحالة الفرنسيون فكرة ربط البحرين وقدم القنصل الفرنسى ميليه مذكرة تفصيلية الى السفير الفرنسى فى الاستانة (استانبول) بانشاء قناة تربط السويس بالنيل أو انشاء قناة

(١٢١) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٢٢) عرض هذه الفكرة فى القرن السادس عشر لانكوم السفير الفرنسى فى استانبول وأرسل مذكرة الى هنرى الثالث عام ١٥٧٨ م ثم عرضها على ريشيليو ولم تظهر هذه الفكرة بصورة واضحة الا فى عهد لويس الرابع عشر .

تربط السويس وبافا من أجل تنمية تجارة فرنسا مع مصر
الا ان ميليه أكد في مذكرته صعوبة تحقيق الفكرة « لأن الأتراك
يخافون من الغزو المسيحي للأماكن المقدسة » ، كذلك أوضح
في مذكرته مصاعب الملاحة في البحر الأحمر ولكنه أكد وجود قناة
أمير المؤمنين والتي كانت تربط بين النيل والبحر الأحمر وطالب
بإعادة استخدامها ولكنه يفضل حفر قناة أخرى جديدة تصل
بين البحرين (١٢٣) . وفي عام ١٧١٢ م كتب ميليه مرة ثانية عن
أهمية ربط البحرين وإقامة منشآت تجارية فرنسية في مخا
والسويس والطور « ولو تمكن الفرنسيون من تحقيق ذلك
لأصبحوا سادة تجارة البن » (١٢٤) .

وقد نمت فكرة وصل البحرين في عهد لويس الخامس عشر
فلم تعد قاصرة على الساسة والرحالة وإنما أيدها المفكرون
والفلاسفة أمثال مونتسكيو وفولتير (١٢٥) .

وجاء عقد معاهدة باريس عام ١٧٦٣ م وانهيار نفوذ فرنسا
في الهند والعالم الجديد الى بروز فكرة احياء وصل البحرين
لا من أجل التجارة فقط وإنما لمواجهة خطر المنافسة البريطانية
واخذ القنصل الفرنسي مور يذكر حكومته بضرورة استخدام
طريق البحر الأحمر ، وفي عام ١٧٧٦ م أرسل الوزير سارتين
الفرنسي الفارس دي مونتيني للدراسة طريق البحر الأحمر لبحث
إمكانية شق قناة بين البحرين . وفي عام ١٧٧٧ م عندما زار
دي توت مصر كتب عن أهمية حفر القناة القديمة بين النيل
والسويس (١٢٦) .

Maillet : Op. Cit., P. 187.

Clement : Op. Cit., P. 259.

Ibid, P. 260

Clement : Op. Cit., P. 260.

(١٢٣)

(١٢٤)

(١٢٥)

(١٢٦)

أما فولنى فقد رأى امكانية ربط البحرين ولكنه عذ
المصائب التى تعترض المشروع منها :

١ - المسافة التى تفصل بين البحرين اراض خالية من
الجبال قاحلة .

٢ - اخطأ فولنى وذكر الفكرة القديمة ان هناك فرقا في
مستوى البحرين وان البحر الأحمر أكثر ارتفاعا .

٣ - الشاطئ في مجمل القسمين المتقابلين من البحر
الأحمر والبحر المتوسط عبارة عن ارض رملية منخفضة
تخللها البحيرات والمستنقعات فلا تستطيع السفن الاقتراب منها
بل تبقى على مسافة بعيدة من الشاطئ فيتعذر حفر قناة
ثابتة في الرمال المتحركة والميناء والأرض تفتقر الى ينابيع المياه .

ونظرا لهذه الصعوبات رأى فولنى انه من الأفضل وصل
البحر الأحمر بمياه النيل وعدد فوائد ذلك وأكد ان استربون ذكر
ان قناة سيزوستريس عرضها مائة ذراع تستطيع السفن السير
فيها وقد رممها بطليموس وجدها عمرو بن العاص (١٢٧) وحفر
قناة بين النيل والبحر الأحمر سوف يتيح أن تمر المنتجات
والحاصلات الهامة مثل القمح والشعير من وإلى الجزيرة
العريضة (١٢٨) .

(١٢٧) حفر عمرو بن العاص خليجا يربط بين النيل والبحر الأحمر وكان
يعرف بقناة تراجان تخرج من النيل شمال بابلون وتمر بعين شمس ثم تسير في
وادي الطيلات من العباسية حتى الاسماعيلية ثم يتجه جنوبا في مجرى قناة
السويس الحالية من بحيرة التمساح مخترقا البحيرات المرة حتى يصب في خليج
السويس عند السويس .

(١٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

أما أوليفيه الذى زار مصر فى عهد حكومة الإدارة فقد قال « علينا ربط البحرين لامكان تنمية التجارة والافادة من موقع مصر الجغرافى وتأسيس ميناء جديد عند بحيرة المنزلة والعمل على زيادة سكانها واثنى أوليفيه على ميزوستريس انه كان ملكا عظيما رغب فى غزو العالم ، لذلك فهو أول من فكر فى ربط البحرين » ووضع أوليفيه فى نفس خطأ قولنى فأبدى تخوفه من « اختلاف مستوى البحرين لأنه سيؤدى الى أن تفرق مياه البحر الأحمر مصر السفلى » ولكنه أكد ضرورة إيجاد اتصال بين البحر الأحمر والمنزلة وإنشاء ميناء فى المنزلة لاستقبال السفن الكبيرة لكى تصل بضائع الهند الى أوروبا سريعا لأن طريق البحر الأحمر أقصر وأفضل من طريق رأس الرجاء الصالح (١٢٩) .

وأخيرا اذا كانت فكرة وصل البحرين أو وصل البحر الأحمر بالنيل قد عبرت عن رغبة الحكومة الفرنسية فى تنمية تجارتها مع مصر فان البعثات التى أرسلت الى مصر فى عهد مراد بك وأسفرت عن توقيع اتفاقات تجارية بين البلدين قد مثلت ذروة الاهتمام الفرنسى بتجارة مصر خاصة البحر الأحمر فلم ينتب الفرنسيون اليأس بعد فشل اتفاقهم مع محمد أبى الذهب وصدور أمر السلطان العثمانى بتحريم الملاحة فى البحر الأحمر . فقد أرسل السفير الفرنسى فى الأستانة الضابط الفرنسى تروجيه لعقد معاهدة تجارية مع المماليك فى مصر واعتمد تروجيه على التاجر الفرنسى ماجالون وزوجته لصلتهما القوية

Olivier : Op. Cit., PP 320 — 324.

(١٢٩)

١٩٣

(م ١٣ - - مصر فى كتابات الرحالة)

مع مراد بك ونجح تروحيه في عقد عدة اتفاقات (١٢٠) مع الممالك بشأن السماح للفرنسيين باستخدام موانئ البحر الأحمر والموانئ المصرية وعقد اتفاقا مع يوسف كساب ملتزم الجمارك المصرية واتفاقا ثالثا مع الشيخ ناصر شديد لحماية القوافل التي تحمل البضائع الفرنسية بأمان من السويس الى القاهرة (١٢١) .

ونلاحظ مما سبق اهتمام الرحالة الفرنسيين بنشاط مصر الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة ولكن كما اتضح لنا ان اهتمامهم بهذا النشاط قاصر على خدمة مصالح بلادهم فنجدهم يذكرون الصناعات التي لها أهمية بالنسبة لفرنسا ، كذلك عند حديثهم عن التجارة اهتموا بايضاح صادرات وواردات مصر الى فرنسا فأ نصب اهتمامهم بنشاط مصر الاقتصادي في اطار اهتمامهم الأكبر بفرنسا .

(١٢٠) نص الاتفاق الأول على حق السفن الفرنسية والتجار القادمون الى الموانئ المصرية وحصنت هذه السفن ضد التفتيش ومنح التجار الفرنسيون الحرية في بيع بضائعهم وحق السفن الفرنسية في زيارة الموانئ المصرية دون دفع رسوم وحقوق التموين والامتياز - وحدد الرسوم الجمركية على البضائع بـ ٦٪ أما الاتفاق الثاني فكان مع يوسف كساب ، اتفق على حماية التجار الفرنسيين القادمين من الهند الى السويس وحقه في تحصيل الرسوم ثم اتفق ثالث مع ناصر شديد لنقل البضائع بأمان من السويس الى القاهرة .
Combes : Op. Cit., P. 102.
(١٢١)

الفصل الخامس

وصف مدن مصر

- مدن الوجه البحرى •
- مدن الوجه القبلى •

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للمدن المصرية بقسميها الشمالي والجنوبي فتميزوا بذلك عن سبقوهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذين ركزوا كتاباتهم على منطقة مصر السفلى والمزارات المسيحية فقط . وقد حرص الرحالة الفرنسيون عند حديثهم عن المدن المصرية على تعريف القارئ الفرنسي أولا بموقع مصر الجغرافي ومناخها .

استهل القنصل الفرنسي ميليه حديثه عن موقع مصر بقوله « لا يوجد في العالم بلد له شهرة وتاريخ مصر تحدث عنها هيرودوت والمؤرخون القدامى ، وهي بلد انتعشت فيها العلوم والفنون ، وتتمتع مصر بموقع ممتاز فهي تطل على البحر المتوسط شمالا وتمتد جنوبا حتى النوبة فتصل أراضيها حتى دنقلة » (١) .

وفي الواقع ان الرحالة اختلفوا في تحديد حدود مصر الجنوبية فبينما ذكر ميليه انها تمتد حتى دنقلة نجد سافاري يؤكد امتداد أراضي مصر جنوبا حتى الحبشة (٢) .

ويجد مصر من الغرب الصحراء الغربية وقد اطلق معظم الرحالة عليها « الصحراء الليبية » ومن الشرق البحر الأحمر

Maillet : Op. Cit., PP. 9 — 12.

(١)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 6.

(٢)

« وهو مفتاحها الى الهند » على حد قول لوكا (٣) . وقد أفادت مصر من موقعها الممتازة كذلك افساد الأوروبيون منه فقد اتاح فرصة الاتصال بين آسيا وأفريقيا وأورابا (٤) .

وصف ميليه أراذى مصر « بأنها تمتد على شكل حرف Y يمثل الجزء العلوى من هذا الحرف فرعى رشيد ودمياط » كذلك كتب تشبيها آخر طريفا « تمتد مصر على شكل عصى طويلة تبدأ فى القاهرة حتى الشلال الأول » (٥) ووصف لوكا الدلتا بأنها « تشبه المثلث قاعدته البحر المتوسط (٦) .

والواقع ان هذا الوصف ذكره علماء الحملة الفرنسية فكتب العالمان دى بو وايميه « الدلتا على شكل مثلث ، رسميت بالدلتا لأنه الاسم الذى أطلقه الأفريق على هذه الأراضى لأنه اسم حرف من أبجديتهم كانوا يسمونه على شكل مثلث قاعدته ترتكز عند البحر المتوسط وتنتهى قمته نحو منف » (٧) . وتقع الدلتا وسط فرعى النيل وبها العديد من القنوات تنتشر فيها الحدائق ويزرع فيها الأرز والخضراوات والفواكه وقد وصف سافارى الدلتا بأسلوب جميل وكأنه فنان يرسم بريشته ويعصور « ان رؤية الدلتا وخصوصيتها منظر يبعث على السرور ويشجذ الخيال » (٨) .

أما عن مساحة الدلتا فقد كتب لوكا « بأن أكثر المناطق

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 164.

(٣)

De Tott : Op. Cit., P. 28.

(٤)

Maillet : Op. Cit., P. 14.

(٥)

Lucas : Op. Cit., P. 127.

(٦)

(٧) انظر وصف مصر ج ٣ ، ص ٦٣ دراسة دى بووايميه جولو .

Savary : Op. Cit., + 1 P. 15.

(٨)

عرضا فيها هي المنطقة الواقعة ما بين الاسكندرية ودمياط « (٩)
واستنكر تقدير هيرودوت لعذر الدلتا بعشرة آلاف سنة فقط
وعلل ذلك « بأن عملية انحسار المياه عن البحر لا بد وأن تستغرق
فترة زمنية أكثر مما ذكره هيرودوت » (١٠) .

ويندو أن اليهود كمهدم أرادوا أن ينسبوا الفضل لأنفسهم
في تعليم المصريين الزراعة ولفت نظرهم لخصوبة الدلتا فذكر
ميليه أن حاخام اليهود في القاهرة أكد له بأن اليهود هم أول من
أدرك خصوبة أراضي مصر وأن الفضل يرجع إلى النبي يوسف
في إعادة الخصوبة لأراضي الدلتا بعد جفافها (١١) .

اختلف تقسيم الرحالة لأراضي مصر فمنهم من قسمها إلى
ثلاثة أقسام : مصر السفلى - مصر العليا - مصر الوسطى ومنهم
من قسمها إلى قسمين فقط مصر السفلى ومصر العليا . كما
اختلفوا في تحديد بدايات مصر العليا فنجد لو كان يكتب مؤكدا
« بأن مصر العليا تبدأ من طيبة حتى النوبة وسنار » (١٢) .

قدم فولنى وصفا لهيكل القطر المصرى من أسوان إلى
البحر المتوسط فذكر أن هذه المنطقة عبارة عن طبقة من حجر
الجص المشرب بالبياض عليل الصلابة ، « ومصر من ناحية بحر
ضيق وصخور ومن ناحية أخرى سهول من الرمال العظيمة ،
في الوسط نهر يجرى على وادى طوله خمسمائة وخمس فراسخ
بعرض ثلاثة فراسخ إلى سبعة لا يصل إلى مسافة ثلاثين فرسخا

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 127.

(٩)

Olivier : Op. Cit., P. 273.

(١٠)

Maillet : Op. Cit., PP. 92 — 93.

(١١)

Lucas : Op.Cit, + 3 P. 150.

(١٢)

من البحر » وقد اثنى علماء الحملة الفرنسية على ملاحظات فولنى الدقيقة عن سطح مصر (١٣) ولكن لا ينبغي الا ننسى تعصب فولنى ضد مصر فهي في نظره مغمورة بالمياه ثلاثة أشهر موحلة ثلاثة أشهر غبراء مشقة الأديم سائر أيام السنة (١٤) .

أما عن مناخ مصر فالحرارة معتدلة في الشتاء ولا يسقط فيها الثلوج (١٥) ، أما في فصل الصيف فهي شديدة الحرارة خاصة في شهر يوليو حيث تصل الحرارة الى ٢٤ ، ٢٥ درجة وهي أكثر ارتفاعا في الصعيد وعلل فولنى سبب ارتفاع الحرارة في هذا الوقت « لأن الشمس تكون عمودية على خط الاستواء » وأضاف « ان الأوروبي لا يستطيع أن يتحمل هذه الشمس الحارقة في الصيف » وعبر عن ضيقه من حرارة الجو فذكر « من الأفضل للمصريين بدلا من التآء تحية السلام فيما بينهم : كيف حالك ان تكون تحيتهم كيف تعرق » (١٦) . وتشتد الحرارة في مصر الغليا خاصة في الأقصر وأوضح سافارى ان « أنسب الشهورة لزيارة الصعيد هو شهر نوفمبر لانخفاض درجة الحرارة » (١٧) .

والأمطار نادرة في مصر وهي تقل كلما اتجهنا الى الداخل نحو الصعيد وهي أكثر هطولا في الاسكندرية عن القاهرة أما اذا سقطت الأمطار في جرجا فان ذلك يعتبر اعجوبة على حد قول فولنى (١٨) . واكد سافارى ان الحرارة الشديدة في مصر هي

(١٣) انظر وصف مصر ، ج ١ ، ص ١٦ .

(١٤) فولنى : المرجع السابق ص ١٦٦ .

Fourmont : Op. Cit., P. 24.

(١٥)

(١٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

Savary : Op. Cit., + 3 P. 3.

(١٧)

(١٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

سبب الامراض » ولكن سكان الصعيد اعتادوا شرب الماء بكثرة والاستحمام في النيل للتخلص من حرارة الجو وهم اصحاء ذوو بنية متينة وقد ساعد وجود البحيرات في مصر العليا وفي الأودية الضيقة على اضعاء نسمة ناعمة في الجو ولكن في المناطق حيث الأودية الضيقة والجبال المرتفعة لا يجدد الهواء فيفقد السكان صحتهم » (١٩) .

تهب على مصر رياح الخماسين وتدوم أربعة أيام يكون الجو خلالها جافا متربيا يصعب التنفس وأوضح أوليفيه أن الرحالة الفرنسيين خلطوا بين رياح الخماسين ورياح السمايل في الجزيرة العربية (٢٠) بينما ذكر فولنى « ان لهبوب الرياح في مصر دورة منتظمة وقد أطلق الأوروبيون عليها رياح السموم فهي رياح صحراوية جافة ترتفع حرارتها فيبدو الجو رماديا وينتشر الغبار يصعب التنفس » ويهب على مصر رياح جنوبية شرقية لا تحمل أمطارا لأنها قادمة من صحراء الجزيرة العربية وإفريقيا كما تهب على مصر رياح شمالية غربية تطرد نحو مصر أبخرة البحر المتوسط » (٢١) .

قدم الرحالة وصفا لنهر النيل : « فالنيل بالنسبة لمصر كالشریان للجسم البشرى عليه تقوم الزراعة والصناعة والتجارة وهو سبب انتعاش المناخ في مصر ومصدر الرخاء فيها » هكذا عبر أوليفيه عن عظمة وأهمية نيل مصر (٢٢) . وأكد سافارى « ان المصريين القدماء اعتبروا النيل رمزا للخصوبة والنماء

Savary : Op. Cit., + 3 PP. 2 — 7.

(١٩)

Olivier : Op. Cit., P. 245.

(٢٠)

(٢١) فولنى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

Olivier : Op. Cit., P. 258.

(٢٢)

وقد أطلق المصريون اسم Nei Alei على نهر النيل، وأطلق عليه الإغريق Neilon واللاتين Nilus ومعناه الذى يتدفق تدريجيا وقد استعار سافارى الكثير من عبارات هيرودوت عند حديثه عن النيل (٢٣) .

أما عن منابع النيل فقد ذكر ميليه فى بداية القرن الثامن عشر « ان المعلومات قليلة عن منابع النيل ولكن من المؤكد انه ينبع من اراضى القس جون وذكر أن البرتغاليين الجزويت اتدوا ان منابعه من الحبشة وانه ينبع من جبال مكسوة بالخضرة وهو يخرج من منبعين نجهل عمقهما ويسمى المنبعان عيون النيل واثناء خروجه من العيون يحدث صوتا هائلا ويتجه النيل من اثيوبيا الى سنار ويوجد على يساره عدد لا يحصى من البحيرات ثم يتجه الى دنقلة ويمر بمدن النوبة الرئيسية ويسير حتى يصل الى البحر المتوسط » وذكر ميليه ان على أغا الذى زار مصر مندوبا عن ملك الحبشة أكد له « انه مستعد ان يقسم له ان فى اثيوبيا عددا لا يحصى من البحيرات لا تقل عن المائة ، غزيرة الأمطار وكلها من منبع النيل ، يلتقى النيل بالنيل الأبيض على مسيرة ثلاثة أيام من سنار بعد منطقة النوبة يسير النيل بحرية تامة فى مصر تحيط به الجبال » (٢٤) .

ولما كانت منابع النيل لم تكشف بعد خلال هذه الفترة فقد كتب أوليفيه « ان البحث عن منابع النيل ادهق الباحثين » وقلل أوليفيه من شأن بعثة بروس الى منابع النيل فأكد ان رجال الدين اليسوعيين قد وصفوها قبل بروس كما رسموا

Savary : Op. Cit., + 1 PP. 176 — 179.

(٢٣)

Mallet : Op. Cit., P. 41.

(٢٤)

الخراط التي توضح مجرى النيل « (٢٥) . وأكد الرحالة انحدار النيل نحو مصر في لين ولطف وبسرعة معقولة فأكد فولنى « لا تتجاوز سرعة مياهه الميل الواحد في الساعة » كما انه يصل الى مصر نقيا دون رمال أو حصى أو أحجار (٢٦) والملاحة متيسرة في النيل لا تعترضها الجنادل أو الشلالات سوى في دنقلة وأسوان حيث تصعب الملاحة في هذه المناطق فقط (٢٧) .

وقارن أوليفيه بين النيل وبين غيره من الأنهار فهو « أكبر من الرون والراين ونهر بو » (٢٨) وشبهه فولنى « بنهر السين وشبه الحقول من حوله بالحقول المحيطة بنهر اللور » (٢٩) .

أما فيضان النيل فقد تحدث عنه سونينى معجبا « تحول لون النيل الى اللون الأحمر » ووصفه انه من أجمل المعجزات التي رآها وهو يحدث بسبب هطول الأمطار في اثيوبيا وترتفع المياه عندما تبدأ رياح الشمال في الصفر في أواخر مايو ويبدأ الفيضان في يونيو وتقل مياه النيل في سبتمبر وعندما تنخفض المياه تفرز المراكب في الطين خاصة في دمياط ورشيد والقاهرة ويكون منسوب المياه في مصر العليا اقل من مصر السفلى (٣٠) .

« ومياه النيل نقية مثل جو مصر » هكذا عبر ميليه عن اعجابه ، والنيل هو مصدر مياه الشرب في مصر وقد اتقن المصريون تنقية مياههم « فهم يضعونه في أوان بها كمية من اللوز

Olivier : Op. Cit., PP. 261 — 262.

(٢٥)

(٢٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

Mallet : Op. Cit., P. 42.

(٢٧)

Olivier : Op. Cit., PP. 263 — 267.

(٢٨)

(٢٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

Granger : Op. Cit., P. 7.

(٣٠)

لمدة ربع ساعة حتى يصبح طعمه لطيفا ومن يشرب من مياه النيل لابد وأن يعود مرة ثانية الى مصر ولذلك فان الحجاج عندما يخرجون للحج يثمنون العودة الى مصر للشرب من مياهه « (٣١) .

وكان لفولني كعادته رأى آخر « فالمصريون لم يحسنوا استغلال مياه النيل » ونفى تماما أن تكون مياهه تمتاز بالجلوة فهي في نظره « مياه عكرة طوال ستة أشهر شديدة الاعتثار في الشهور الثلاثة التي تسبق الفيضان يقل عمقها فتأسن وتمتلئ بالديدان » (٣٢) .

وتأثر ميليه بأراء اليهود وكتاباتهم فقد زعموا له « أن المصريين لم يعرفوا كيفية الاستفادة بمياه النيل الا بعد مجيء النبي يوسف الى مصر فهو الذي علمهم طرق الافادة من مياهه » (٣٣) . ويلاحظ دوما في كتابات ميليه تأثره بمزاعم وادعاءات اليهود عن مصر فهم ينسبون لأنفسهم تارة فضل تعليم المصريين القدماء الزراعة وتارة أخرى فضل تعليم المصريين استقلال مياه النيل .

تحدث الرحالة عن اثر فيضان النيل على حياة المصريين « فاذا ارتفعت مياهه اضطر السكان الى الفرار الى المناطق المرتفعة واذا انخفضت فان السكان يتعرضون للقحط والمجاعات وضرب فولني مثالا بما حدث في عام ١٧٨٤ م عندما عم القحط البلاد مما أدى الى وفاة عدد كبير من السكان وقارن فولني بين

Maillet : Op. Cit., P. 15.

(٣١)

فولني : المرجع السابق ، ص ٢٤ .
Maillet : Op. Cit., P. 9.

(٣٢)

(٣٣)

المجاعات التي تحدث في مصر والهند مؤكدا « ان سكان مصر يتعرضون للموت بسبب المجاعات كما يحدث تماما في البنغال والهند » (٣٤) .

وبلغ حقد وكراهية بعض الرحالة الفرنسيين أن تمنى بعضهم عدم افادة مصر من مياه النيل فكتب أوليفيه « لو تحولت مياه النيل الى البحر الأحمر لتحولت مصر الى صحراء » (٣٥) بينما نجد فولني يثنى على هذه الفكرة « لو تمكن البوكيرك من تنفيذ مشروعه وتحويل مياه النيل من اثيوبيا الى البحر الأحمر لما كانت هذه البقعة الخصيبة الا صحراء جرداء » (٣٦) .

استطاع جرانجيه وصف مصبات النيل وفروعه فجاء ما ذكره مطابقا لما ذكره علماء الحملة الفرنسية (٣٧) وقد أثنوا على دقة جرانجيه في وصفه لهذه الفروع السبعة وهي كما أوضحها :

الفرع الأول : ويعرف بالفرع البيلوزي (أبو باسطة) الطينة .

الفرع الثاني : الثاني .

الفرع الثالث : المنديسي وقد أطلق عليه العرب الديبة .

(٣٤) فولني : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
Olivier : Op.Cit., P. 188.

(٣٥)

(٣٦) فولني : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٣٧) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٩ ، دراسة عن المدن والاقاليم المصرية ، دراسة للمسيو مالو .

- الفرع الرابع : البلنتيني وهو فرع دمياط .
 - الفرع الخامس : السبنيتي وهو فرع البرلس .
 - الفرع السادس : البولبيني وهو فرع رشيد .
 - الفرع السابع : كانوب او فرع ابي قير .
- كما عدد جرانجيه عدد الجزر في النيل وعدد القنوات التي تم تشييدها فكانت دراسته عن هذه الفروع دراسة دقيقة الى حد كبير (٢٨) .

وصف مدن الوجه البحرى

جاء وصف رحالة القرن الثامن عشر لمدن مصر السفلى مطابقا الى حد كبير لما ذكره الرحالة السابقون وقد بدأ معظم الرحالة حديثهم عن مدينة القاهرة باعتبارها عاصمة البلاد « فهي مدينة شهيرة يسميها العرب مصر » على حد قول فولنى (٣٩) « وهي ثانى مدن الامبراطورية العثمانية من حيث الأهمية تمتاز بفخامة وثراء مبانيها وبعدد سكانها الضخم » هكذا عرفها أوليفيه (٤٠) .

وتقع القاهرة عند رأس الدلتا ولذلك فهي أكثر المدن ازدحاما (٤١) ، وقد اختلفت آراء الرحالة حول موقع القاهرة فذكر فولنى « ان موقعها سيء » وعلل ذلك لأنها « تبعد عن النيل فحرمت من ميزة الحصول على مياهه مباشرة » كذلك

(٣٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .
Olivier : Op. Cit., P. 177.

Ibid, P. 112.

(٤٠)

(٤١)

شيدت في مكان منخفض أسفل جبل المقطم (٤٢) يعرضها لهبوب
الأتربة والرياح عليها « (٤٢) ، بينما رأى أوليفيه أن موقع القاهرة
أفضل من القسطنطينية (٤٤) .

أما عن حجم المدينة (٤٥) فقد سجل سونيني بأنها من أكبر
المدن وتشبه المدن الأوروبية (٤٦) ورأى فورمون أنها أغنى وأكبر
مدن العالم ومن أكثرها ازدحاما بالسكان (٤٧) ، وقد تطابق
وصف الرحالة الروس عن القاهرة مع ما ذكره الرحالة الفرنسيون
فأكد بارسكي بأن « القاهرة من أكبر المدن وهي تفوق
القسطنطينية حجما » (٤٨) .

وقد ذكر كل من الأب سيكار (٤٩) وبول لوكان بأن القاهرة
« أطول من باريس ولكنها أقل عرضا » (٥٠) .

ثم قدم فورمون للقارئ الفرنسي شرحا عن معنى اسم
القاهرة وذكر نبذة عن تأسيسها وأن معناها المنتصرة شبيها

(٤٢) نفس الملاحظة عن موقع القاهرة كتبها من قبل العمري فذكر « أن
القاهرة مبنية وطئة نائية عند ذروة الجبل أرضها سباح ولاجل هذا يجعل
إلى مبانيتها الفساد » العمري ص ١٤٥ .

(٤٣) قولني : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .
Olivier : Op. Cit., P. 112. (٤٤)

(٤٥) نفس الملاحظة كتبها رحالة القرنين ١٦ ، ١٧ فذكر جريفان « أنها
أكبر من باريس ثلاث مرات » بينما وصفها تينو « بأنها أكبر من باريس بخمسة
مرات » وأكد بالرن « أنها من أكبر مدن إفريقيا » ، انظر الهام ذهني ، المرجع
السابق ، ص ١٠٠ .

Sonnini : Op. Cit., +2 P. 300. (٤٦)

Fourmont : Op. Cit., P. 4. (٤٧)

Volkoff : Op. Cit., P. 51. (٤٨)

Stearns : Op. Cit., P. 15. (٤٩)

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 124 (٥٠)

جوهـر الصقلى ويقال انه استشار الفلكيين قبل البدء فى تشييدها فأكـدوا له ان كوكب المريخ فى أحسن أحواله مما يبشر ان المدينة الجديدة سيكتب لها الازدهار والقوة (٥١) .

وقدم القنصل الفرنسى عليه وصفا لأبواب القاهرة « فالمدينة محاطة بالأسوار بها العديد من الأبواب ويعتبر باب الفتوح من أجمل الأبواب وأقدمها وأعظمها ويوجد عليه برجان ولكنه لا توجد على جدرانه كتابات أو رسوم مثل غيره من الأبواب وأبواب القاهرة أجمل من أبواب مدن أوروبا بالمقارنة بين باب النصر فى القاهرة وباب سان مارتان فى باريس » (٥٢) .

أما فولنى فقد تغلبت عليه كراهيته لمصر عند وصفه القاهرة فكتب ساخرا من غيره من الرحالة الذين وصفوا القاهرة وأعجبوا بمبانيها « لا توجد فى القاهرة أبنية ضخمة أو فخمة سواء عامة أو خاصة » (٥٣) .

أما شوارع القاهرة فهى مستقيمة ولكنها غير مرصوفة (٥٤) وعلى جانبيها أحواض وضعت لسقاية العابرين وقد حرص أصحابها على وضع كوب لشرب المياه مع ربطه بسلسلة صغيرة خوفا من الضياع (٥٥) . والشوارع التى توجد بها منازل الأثرياء واسعة مزينة (٥٦) وعلى دانتريج وجود بعض الشوارع المظلمة.

Fourmont : Op. Cit., P. 22.

(٥١)

Maillet : Op. Cit., P. 210.

(٥٢)

(٥٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 300.

(٥٤)

Fourmont : Op. Cit., P. 30.

(٥٥)

Granger : Op. Cit., P. 143.

(٥٦)

« لأن المنازل على الجانبين متعددة الطبقات تعمل على حجب أشعة الشمس (٥٧) .

أما وصف فولنى « ضواحي القاهرة تلال غبراء من الانقراض المتراكمة والأزقة داخل المدينة متعرجة غير مبلطة » (٥٨) .

وتمتاز القاهرة بكثرة محلاتها وقد اهتم أصحابها بتزيينها وقد جاء ما ذكره الرحالة الأوروبيون خاصة الروس مطابقاً لما ذكره الفرنسيون من تعدد محلات القاهرة (٥٩) .

وتمتاز منازل المدينة بالجمال خاصة من الداخل فهي متعددة الطوابق ولكنها سيئة المظهر من الخارج كما ذكر جرانجيه وأجمل منازل هي منازل البكوات ولكن حتى هذه المنازل سيئة المظهر من الخارج غير مزينة لا تسر العين فمعظمها من الطوب الأحمر ولم يعن السكان بتزيين واجهاتها الخارجية وعلى سبيل المثال تعدد الطوابق في مصر لأن النساء خصص لهن الطابق العلوى (٦٠) أما الرحالة البريطاني بوكوك فقد علل تعدد الطوابق تعليلاً غريباً « لاقامة النساء في الطابق الأعلى بسبب طفيان وتجبر الأزواج الشرقيين » (٦١) .

أما عن أحياء القاهرة فقد كتب فورمون « يتم إغلاقها بالفتاح ليلاً وقد خصص صوباشي لحفظ هذا المفتاح وخاصة في المناطق التي يسكنها الانكشارية » (٦٢) ، وذكر الرحالة نيبور

Aurlant : Op. Cit., P. 280.

(٥٧)

(٥٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

Volkoff : Op. Cit., P. 79.

(٥٩)

Granger : Op. Cit., P. 143.

(٦٠)

Aurlant : Op. Cit., P. 280.

(٦١)

Fourmont : Op. Cit., P. 32.

(٦٢)

« ان هناك احياء تستخدم كحقر للصناع وغيرهم من السكان الذين يعدلون ليس داخل بيوتهم ولكن في حوانيت صغيرة في السوق » (٦٣) .

راى معظم الرحالة الفرنسيون ان عاصمة مصر تنقسم الى ثلاث مناطق ، القاهرة التي بناها المعز الدين الله والقلعة التي بناها صلاح الدين والفسطاط أو مصر القديمة ولذلك فقد حرصوا على تقديم وصف لكل منها على حدة والحقيقة ان هذه الملاحظة سبقهم اليها المؤرخون المسلمون من قبل ولما كان هؤلاء الرحالة قد اطلعوا على كتاباتهم فانهم عند وصفهم لمصر حرصوا على أن يوردوا ويضعوا نفس تقسيم المسلمين خاصة العمري (٦٤) ، وسنكتفى بذكر ما كتبه الرحالة عن هذه الأقسام بايجاز .

القلمة :

جاء وصف الرحالة لقلعة الجبل مطابقا الى حد كبير لما ذكره من قبل رحالة القرنين السابقين فعرف سيكار القلمة بأنها « قصر الملوك القدامى » بها صالات واسعة أسقفها ملونة مذهبة توجد بها فتحات لدخول الهواء الى الصالات التي يغطي

(٦٣) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلد ٢٠ ، ١٩٧٢ م ، ص ٢١٩ ، مقالة لـ « أندريه ريمون » ، القاهرة العثمانية بوصفها مدينة شئون البلديات ومشكلات المرافق .

(٦٤) ذكر العمري « حاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام الفسطاط وهو بناء عمرو بن العاص وهي المسماة عند عامة أهل مصر بمصر العتيقة والقاهرة المعزية بناها القائد جوهر الصقلي لمولاه الخليفة المعز بن القائم بن المهدي وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين » ، العمري : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

المرمر أرضيتها وهي مفروشة بسجاجيد فارسية عليها روسومات جميلة « (٦٥) .

وديوان القلعة أبنية جميلة ضخمة تساعد على الإقامة المريحة والديوان ٣٤ عمودا من الرخام ، ويسمح فقط للعرب بالبقاء في القلعة لحراستها كما ذكر فورمون (٦٦) .

مصر القديمة :

لا نجد رحالة تحدث عن مصر القديمة إلا وذكر عمرو بن العاص ، والطريف أن القنصل الفرنسي ميليه أطلق على القائد العربي عمرو بن العاص جنرالا بينما أطلق عليه جرانجيه الملازم عمرو بن العاص وذلك تأثرا بالرتب العسكرية في فرنسا والبلاد الأوروبية (٦٧) ، وقد أفاض الرحالة في الحديث عن تاريخ بناء الفسطاط بعد قدوم العرب الى مصر واتصالاتهم بالمقوقس ثم قدموا شرحا للقارىء الفرنسي عن معنى الفسطاط وأوضح فورمون « انها تعنى الخيام » (٦٨) ، كذلك أعطوا للقارىء وصفا وتعريفا بحصن بابليون ثم تتبعوا تاريخ بناء الفسطاط ثم القطاعات في عهد أحمد بن طولون ثم بناء القاهرة في عهد المعز لدين الله .

ومما لا شك فيه ان اطلاع الرحالة الفرنسيين على كتابات المؤرخين العرب والمسلمين في القرن الثامن عشر قد أفادهم في نقل كتابات هؤلاء الى القارىء الفرنسي فقدم الرحالة خلال هذا

Sicard : Op. Cit., P. 17.

(٦٥)

Fourmont : Op. Cit., P. 166.

(٦٦)

Granger : Op. Cit., P. 138.

(٦٧)

Fourmont : Op. Cit., P. 16.

(٦٨)

القرن معلومات تاريخية ودقيقة الى حد ما عن مدن مصر بأكملها وليس القاهرة فحسب .

وتشتهر مصر القديمة بوجود صوامع لتخزين الفلال فيها ، كذلك تشتهر بالمزارات المسيحية ولذلك اهتم الرحالة بوصف كنيسة أبى سرجة وكنيسة العدياء ودير الفتيات اليونانيات (٦٩) .

وقد اضاف الرحالة الروسى (٧٠) بارسكى كنيسة الفرنسييسكان الى الكنائس الموجودة بمصر القديمة ، كذلك قدم سافارى وصفا لكهف مريم اكد أن السيدة مريم لجأت للإقامة فيه بعد فرارها من الرومان (٧١) .

ثم قدم الرحالة وصفا لخليج امير المؤمنين او قناة ترانجان ، وذكر جرانجيه انها خصصت لنقل الحجاج الى الأراضى المقدسة (٧٢) ، وأبدى سافارى اسفه لأن هذه القناة الهامة فقدت أهميتها ولم تعد صالحة للاستخدام (٧٣) .

واذا كان الرحالة قد اهتموا بتقديم وصف للمزارات المسيحية فى مصر القديمة فانهم اهتموا أيضا بتقديم وصف لمنطقة هامة فى مواجهة جزيرة الذهب وهى منطقة « أثر النبى » وشرح سافارى معنى الاسم « انها تعنى أثر اقدام الرسول وقد حرصت على دخول المسجد بصحبة أحد التجار لرؤية الأثر فكشف لى بعد احراق البخور وقراءة القرآن وقد رايت بالفعل

Savary : Op. Cit., P. 16.

Volkoff : Op. Cit., P. 79.

Savary : Op. Cit., + 1 P. 91.

Granger : Op. Cit., P. 143.

Savary : Op. Cit., + 1 P. 91.

(٦٩)

(٧٠)

(٧١)

(٧٢)

(٧٣)

آثار أقدام على الحجر ثم سمعت سيدتين يؤكدان لى أنها أقدام الرسول « وصحح سافارى خطأ وقع فيه الرحالة نوزدن عندما ذكر أن اثر النبی فی الجزيرة ثم قدم وصفا جميلا مشوقا للمنطقة تهم المسلمين الا أن الأقباط لهم فيها أيضا دير أطلق عليه دير التين وذلك لكثرة اشجار التين فيه (٧٤) .

بولاق :

« ميناء القاهرة النهرى ومدخل القاهرة » هكذا وصفها لوكا (٧٥) ، بينما أطلق سونيني عليها « ميناء الدلتا » (٧٦) تقع حيث نستقبل سلع مصر السفلى ومنها إلى الصعيد وهي مأهولة بالتجار الأوروبيين الذين يفدون عليها من آسيا وأوروبا وتعمل أعداد كبيرة من التجارة اليهود في بولاق حيث تكثُر الوكالات التجارية ويفد على بولاق المراكب المختلفة الأحجام ويقصد أثرياء القاهرة بولاق للسكنى والاستجمام والاستمتاع بالهواء النظيف المنعش كما ذكر سافارى (٧٧) ، وأكد الكونت دانترينج أنه تمتع بجمال بولاق حيث تلزه فيها وسنط الحداثق الجمينة الشاسعة (٧٨) .

وفي مواجهة بولاق وعلى الضفة المقابلة لها على النهر تقع أمبابة وصفها سافارى « أنها أرض البؤساء » (٧٩) بها مسجد

Ibid : + 2 PP. 5 — 6.

(٧٤)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 52.

(٧٥)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 22.

(٧٦)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 107.

(٧٧)

Auriant : Op. Cit., P. 279.

(٧٨)

Savary : Op. Cit., + 1 P.109.

(٧٩)

صغير وبها أجود أنواع الزبد والشمام ، وقد أكد هذه الملاحظة كل من سونيني وسافاري ودانتريج فكتب سونيني « ففى امبابة أفضل أنواع الزبد الطازج وفيها تنتشر مزارع الترمس ويكثر بيعه فيها » (٨٠) .

أما الروضة فتقع فى مواجهة مصر القديمة وشرح فورمون معنى الكلمة « بأنها تعنى بالعربية الحديقة » وذكر فورمون أنه قابل بعض اليهود فى مصر زعموا له « بأنه توجد فى الروضة منطقة يطلق عليها سلالم موسى » وهى المنطقة التى تم فيها انتشار سيدنا موسى من النهر كما يدعون (٨١) .

وفى الروضة مسجد شيدده السلطان سليم نجح لوكا فى دخوله فشاهد « العديد من التماثيل المحيطة قد غلقت على جدران الحوائط » وذلك لتحمى المنطقة وتمنع دخولها كما شرح له الأتالى (٨٢) .

وعندما زار أوليفيه منطقة الروضة فى أواخر القرن الثامن عشر أبدى أسفه « لأن مراد بك الجاهل اقتلع العديد من الأشجار الجميلة الثمينة من أجل صنع مركب للتزده فى نيل مصر » (٨٣) . أما فيما يتعلق بمقياس النيل فلم يختلف ما ذكره الرحالة فى القرن الثامن عشر عن سبقوهم عن أهمية المقياس وكيفية

Sonrini : Op. Cit., + 3 P. 22.

(٨٠)

Fourmont : Op.Cit., P. 125.

(٨١)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 185.

(٨٢)

Ollivier : Op. Cit., P. 120.

(٨٣)

تحديد ارتفاع مياه النيل والاحتفالات التي تقام عند فتح الخليج (٨٤) .

واذا ابتعدنا عن القاهرة شرقا فسنجد أن الرحالة اهتموا بوصف منطقتين أثريتين ألا وهما منطقة عين شمس والمطرية وقد أوضح سافاري للقاري، الفرنسي نبذة عن منطقة عين شمس فيها « وجدت أقدم جامعة في العالم اشتهرت بعلمها وفنونها وفيها تعلم هيرودوت (٨٥) وقد درست في الجامعة علوم الفلك والفلسفة وقد قصدها العلماء من كل مكان » (٨٦) .

ومثلت المطرية أهمية كبيرة للفرنسيين بسبب وجود بعض المزارات المسيحية فيها خاصة بستان مريم وكنيسة العذراء وكان من الطبيعي أن يقدم الرحالة وصفا لهذا البستان وأن كان هذا الوصف لا يختلف كثيرا عما ذكره الرحالة السابقون « فيه بئر تفجرت مياهه تحت أقدام العذراء يسمى بئر مريم يقال أن المسيح استحم في مياه هذا البئر ولذلك فهي تشفى من الأمراض » (٨٧) وأكد ميليه « أن بستان مريم يقصده المسلمون والمسيحيون على السواء وبه شجرة تنتج بلسمأ أوراقها دائمة الخضرة » وشرح

(٨٤) ذكر بيلون عن المقياس « به عمود مدرج يوضح مدى ارتفاع النيل ويوجد موظفون مهمتهم مراقبة ارتفاع النيل » ، أما ليو الأفريقي فكتب « على حافة النهر بناء صغير منزل ومغلق في وسطه حفرة مربعة تفتح قناة باطنية تتصل بمجرى النيل وفي وسط الحفرة عمود مقسم إلى عدد متساو من الأذرع يعمق الحفرة وعندما يأخذ النيل في الزيادة يدخل الماء في القناة ويصل إلى الحفرة ويصعد يوميا بمقدار نصف ذراع » ، انظر الهام ذهني ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

Savary : Op. Cit., + 1 P. 120.

(٨٥)

Maillet : Op. Cit., P. 107.

(٨٦)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 127.

(٨٧)

ميليه معنى المطرية « انها الماء الجديد » بها مسجد وكنيسة ومسلة عليها رسوم هيروغليفية يقال انها استخدمت لقياس مياه النيل « (٨٨) .

لم يكتف الرحالة بتقديم وصف عن مدينة القاهرة وضواحيها فحسب وانما نالت مدن مصر والوجه البحرى الكثير من الاهتمام نخص منها الآتى :

دمياط :

تعتبر من أكبر مدن مصر بعد القاهرة وتقع مكان بلوز القديمة وموقع دمياط أفضل من موقع رشيد كما أن « درجة الحرارة فيها أكثر انخفاضا » مما يشجع على السكنى فيها كما كتب ميليه (٨٩) .

اما سافارى فقد قدم وصفا شاعريا لدمياط « بها أجمل مزارع مصر وقراها مكسوة بالخضرة وتكثر فيها أشجار البرتقال التى تعبق الجو كما تنتشر فيها الحدائق الجميلة » (٩٠) . وأهالى دمياط مسالمون طيبون وقد مدحهم القنصل الفرنسى فنتور « لا يوجد فى الامبراطورية العثمانية شعب ودود ورقيق مثل شعب دمياط » (٩١) .

ودمياط مدينة تجارية يسكنها التجار اليونانيون « عدد جرائنيه عدد العائلات الأجنبية واليونانية فيها فذكر انها حوالى

Maillet : Op. Cit., P. 112.

(٨٨)

Ibid, P. 101.

(٨٩)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 323.

(٩٠)

Clement : Op. Cit., P. 225.

(٩١)

أربعمائة عائلة ، واكد ميليه وجود عدد من تجار فرنسا وكورسيكا في المدينة (٩٢) .

والتجارة مزدهرة في دمياط فالمدينة لها تجارتها مع سورية وقبرص (٩٣) وتجارها اكثر رواجاً من رشيد (٩٤) ونظراً لازدهار التجارة فيها فان بها العديد من الوكالات وتشتهر المدينة بالتساج الأرز (٩٥) ، ففي دمياط « أهرامات من الأرز » ، كذلك تشتهر بصناعة المنسوجات (٩٦) ، وقد انتقد فولني سافاري لأنه من وجهة نظره « أسرف في الثناء على دمياط وبالع في التقدير جمالها » (٩٧) . .

ويوجد في دمياط بوغاز بثابة حاجز عن البحر له سلاسل ضخمة ثابتة وذكر ميلينه أن الأتراك يعتقدون أن من لا يخشى البوغاز لا يخشى الله « تعبيراً عن صعوبة التواجد فيه خاصة في فصل الشتاء ولذلك تم اغلاقه لمدة ثلاثة أشهر (٩٨) .

رشيد :

تقع عند مصب النيل من أهم واجمل مدن مصر حلت لتخل فوه في الأهمية لأن موقعها اقرب الى البحر فالتزعت المناقصة من

Granger : Op. Cit., P. 211.

(٩٢)

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 208.

(٩٣)

Maillet : Op. Cit., P. 108.

(٩٤)

(٩٥) نفس ملاحظات رحالة القرنين ١٦ ، ١٧ ، انظر الهام دعوى ،

ص ٢٠ .

Savary : Op. Cit., + 1 P. 318.

(٩٦)

(٩٧) فولني : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

Maillet : Op. Cit., P. 91.

(٩٨)

فوه بها نائب للقنصل ، أقام فيها العديد من التجار الفرنسيين واليونانيين (٩٩) .

والمدينة تشتهر بهدوئها وتوفر الأمن فيها ، فكتب سافاري « أن الفرنسيين لم يشعروا فيها بالاضطرابات ولا بالفوضى المعهودة في غيرها من مدن مصر فالأجنبي في رشيد يشعر بالراحة والاطمئنان ويستطيع التجول بحرية بين سكانها الذين يتصفون بالود وكثرا ما تناولت القهوة مع المزارعين في أكوأخهم (١٠٠) ، وأكد سونيني صفة الهدوء والوداعة على سكان رشيد فوصفهم « أنهم أقل بربرية من سكان باقي المدن المصرية » فهي مدينة هادئة لا تعرف الثورات ولا الفوضى يتجول فيها الأوروبي بحرية كبيرة وذكر سونيني للقارئ الفرنسي مقتطفات مما كتبه الأديبي عند رشيد، كذلك اقتبس بعض كتابات بطليموس وسترابون عنها (١٠١) .

وتشتهر المدينة بتجارتها خاصة تجارة المنسوجات والقطن الغزول والأرز وهي حلقة الاتصال بين القاهرة والاسكندرية (١٠٢) . وهي مدينة مأهولة بالسكان ، تصلها مياه النيل بواسطة قناة قديمة ، أفاد منها التجار في نقل متاجرهم الى الاسكندرية ولكن الأتراك أهملوها منذ فترة طويلة (١٠٣) .

وتنتشر الحدائق والخضرة في رشيد فتكثر بها حدائق الليمون والبرتقال وجوها معبق معطر ضحى وهي مدينة جذيرة

Ibid : P. 100.

Savary : Op. Cit., + 1 P. 272.

Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 243.

Ibid, PP. 244 — 246.

Mallet : Op. Cit., P. 99.

(٩٩)

(١٠٠)

(١٠١)

(١٠٢)

(١٠٣)

بأن يطلق عليها « حديقة مصر » على حد قول سونيني (١٠٤) .
وقد قدم سافاري وصفا لرشيد يمتاز بالحس المرهف « هواؤها
منعش متجدد نرى أشعة الشمس الجميلة تنسدل على المساجد
والمنازل التي تطل على النيل والدلتا ، ان اراضي رشيد الخصبة
لا تكف ولا تكل عن العطاء والدلتا حديقة جميلة تنتج كل عام
الخضراوات والفواكه والورود خصوصيتها تمس القلوب » (١٠٥) .

وقد انتقد فولني كعاداته وصف سافاري لمدينة رشيد واعتبره
مبالغا فيه ولكنه لم يستطع أن ينكر « ان رشيد بها غابات من
النخيل والليمون والموز والبرتقال والبرقوق » (١٠٦) .

ونظرا لأهمية مدينة رشيد فقد وضع الأتراك بها فصيلة
من الأوجاق ورغم ذلك ظلت المدينة ضعيفة التحصين وتحصيناتها
« لا تساوي شيئا » على حد قول جرانجيه (١٠٧) .

وأخيرا عند ختام الحديث عن رشيد نلاحظ ان ما ذكره
رحالة القرن الثامن عشر من وصف رائع للدلتا وخصوبة أراضي
رشيد ذكره علماء الحملة الفرنسية ، فلنقرأ ما كتبه جولو عنها
« الدلتا في رشيد تغطيها الخضرة وتنتج أجمل المحاصيل ، أما عن
يميننا فقد كان ثمة غابات من النخيل ذات خضرة اخاذة » كانت
العيون تستقر بارتياح واعجاب فوق حقول يغطيها الأرض فتشكل
واحدا من أبهج المشاهد (١٠٨) .

Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 245.

(١٠٤)

Savary : Op. Cit., - 1 P. 59.

(١٠٥)

(١٠٦) فولني : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

Granger : Op. Cit., P. 212.

(١٠٧)

(١٠٨) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢١١ ، دراسة جولو « دراسة

موجزة عن مدينة رشيد » .

وفي المنطقة الواقعة بين رشيد والاسكندرية وجد الرحالة مجموعات من البدو تقوم بجمع الأعشاب وحرقتها للحصول على الرماد وبيعه الى التجار الفرنسيين في الاسكندرية حيث يتم تصديره الى فرنسا لصناعة الصابون (١٠٩) .

الاسكندرية :

ارتبط اسمها باسم رجل عبقرى هو الاسكندر « وكانت عاصمة للبطلمية والرومان بها العديد من الآثار الاغريقية والرومانية القديمة » وتقع الاسكندرية خارج الدلتا وأراضيها متصلة بصحراء افريقيا وريفها رملى مسطح لا شجر فيه ولا مساكن فهي مدينة موقعا اقرب الى افريقيا ولأنها خارج الدلتا فهي لا ترتبط بمصر سوى بقناة تصلها مياه النيل وقت الفيضان (١١٠) .

وقد وصف الرحالة سكان الاسكندرية وصفا يختلف تماما عما وصف به سكان رشيد ودمياط فهم « لصوص بالفطرة » على قول جرانجيه (١١١) . أما أوليفيه فقد وصفهم « تغلب عليهم الوحشية اعتادوا على الثورة ضد الفرنسيين والأوروبيين (١١٢) ، كذلك وصفهم فولنى بالاهمال « لأنهم لا يشعرون بجمال الآثار القديمة وقد تركوها نهبة للبوم فأصبحت أطلالا موحشة » (١١٣) .

وتشتهر المدينة بتجارها وبها أعداد كبيرة من التجار من كريت ورودس واليونان والمغرب (١١٤) ، ولكن رغم أهمية المدينة

Savary : Op. Cit., + 1 P. 41. (١٠٩)

(١١٠) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

Granger : Op. Cit., P. 217. (١١١)

Olivier : Op. Cit., P. 7. (١١٢)

(١١٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

Olivier : Op. Cit., P. 12. (١١٤)

التجارية إلا أنها اليوم لم يعد لها مكانتها التجارية السابقة عندما كانت « حديقة افريقيا » فقد ذكر هيرودوت أنها من أشهر مدن العالم بعد روما ويمضى عليه متحسرا « لم يبق من عظمتها سوى اسمها » وأكد أنه جرت عدة محاولات للكشف عن مقبرة الاسكندر ولكنه لم يتم العثور عليها وعلى ذلك « أنه ليس مؤكدا بأنه دفن فيها » (١١٥) .

قدم الرحالة وصفا لآثار الاسكندرية القديمة خاصة ما عرف بعمود بومبي فكتب لوكا أنه من أجمل الآثار عليه كتابات هيروغليفية قيمة (١١٦) وقد تقدم القنصل الفرنسي ميليه بطلب الى الحكومة الفرنسية لنقل هذا العمود الى فرنسا وقدم طلبا الى السفير الفرنسي في استانبول مؤكدا « ان هذا العمود اثر جميل ولا شك أنه سوف يلقي العناية والاهتمام في فرنسا بدلا من اهمال الأتراك له » (١١٧) ، وقدم سونيني وصفا للعمود فهو يتكون من ثلاث قطع القاعدة ثم العمود نفسه ثم القمة (١١٨) ، واختلف الرحالة في تحديد طوله فقدره سافاري ١١٤ قدما أما لوكا فذكر أنه ٩٤ قدما فقط . وقد طالب سونيني الحكومة الفرنسية بنقل العمود الى فرنسا لوضع تمثال الحرية عليه رمز الثورة الفرنسية (١١٩) ، وأكد سافاري ان العمود لم يشيد ذكرى لانتصار قيصر كما كما هو شائع وإنما شيده الامبراطور سيفير قيام السكان ببنائه تقديرا له وأكد سافاري ان أبا الفدا أكد هذه الحقيقة (١٢٠) .

Mallet : Op. Cit., PP. 121 — 124.

(١١٥)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 45.

(١١٦)

Mallet : Op. Cit., P. 130.

(١١٧)

Sonnini : Op. Cit., PP. 136 — 140.

(١١٨)

Ibid : P. 140.

(١١٩)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 88.

(١٢٠)

وقد ألقى سافاري تهمة إهمال الآثار وتدميرها على العرب كذلك ألقى تهمة إحراق مكتبة الاسكندرية على عمرو بن العاص وأدعى أن العرب « قضوا على الأعمال العظيمة والفنون الراقية » وسرعان ما ناقض نفسه بعد ذلك فأكد أن الرومان هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندر أثناء حربهم ضد كليوباترة « (١٢١) » .

ولم يكتف الرحالة الفرنسيون بتقديم وصف للآثار القديمة فحسب وإنما اهتموا بالحديث عن الكنائس المسيحية خاصة كنيسة سانت كاترين فبالغ لوكا في وصفه مؤكداً (١٢٢) « أنه شاهد تجويفاً في حائط الكنيسة قيل له أن رأس سانت كاترين قطعت فيه ورأى آثار الدماء عليه أما فولني فقد تحسر على آثار الاسكندرية التي أصبحت مأوى للحيوانات الضارية والزواحف الدنسة » (١٢٣) ، فذكر سونيني أن الميناء القديم مدخله صعب به قناة ضيقة ولكن له مزايا أخرى فمياهه عميقة ولذلك فهو ملجأ للسفن أثناء اشتداد العواصف (١٢٤) ، وقد حرم على الأوروبيين دخول الميناء القديم ولابد من الحصول على فرمان للمرور فيه وأكد أوليفيه أن التجار الفرنسيين حاولوا إقامة وكالات لهم في الميناء القديم ولكنهم قوبلوا بالمعارضة الشديدة من قبل السكان عند دخولهم الميناء (١٢٥) ، أما الميناء الجديد فيقع في الشرق مياهه أقل عمقا يوجد به العديد من الصخور يتعرض للرياح الشمالية وقد خصص للسفن المسيحية ونظراً لشدة الرياح فإن السفن تظل خارج الميناء حوالى الشهر محاولة الرسو فيه

Ibid : P. 38.

(١٢١)

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 45.

(١٢٢)

(١٢٣) فولني : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 107.

(١٢٤)

Olivier : Op. Cit., P. 9.

(١٢٥)

مما يؤدي الى تعرضها للفرق (١٢٦) ، ولاحظ اوليفيه نفس عيوب الميناء الجديد وانه مفتوح امام رياح الشمال قليل العمق لا يستقبل السفن الضخمة وتظل سفن التجار عاجزة عن الرسو فيه مما يضطرها الى اللجوء الى جزيرة فاروس (١٢٧) ، واكد فولنى خطورة الرسو في المرسى الجديد خاصة « وانه قد امتلأ بالرمال مما يؤدي الى ارتطام السفن بها كذلك تنقطع حبال المراس بسبب قوة الرياح مما يعرض السفن للفرق » وأضاف فولنى « انه منذ ثمانى عشرة سنة تحطمت اثنتان واربعون سفينة على رصيف المرفأ الجديد بسبب عاصفة هبت من الشمال الغربى » وانتقد فولنى الأثر « لعدم تجديدهم للمرفأ الجديد واهمالهم له انهم يتلفون ولا يرممون وهم يهدمون أعمال الماضى وآمال المستقبل » (١٢٨) .

وعلى اوليفيه السبب فى منع السفن الأوروبية من دخول الميناء القديم الى اعتقاد شائع رواه بعض الأهالى « ان هناك اعتقادا بأنه لو دخلت سفن الكفرة الأوروبيين الميناء القديم فسوف تقع المدينة فى أيديهم » (١٢٩) ، وقد كتب علماء الحملة الفرنسية نفس ملاحظات رحالة القرن الثامن عشر عن الميناء الجديد وعن مدى خطورة رسو السفن فيه بسبب قوة رياح الشمال (١٣٠) .

Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 106.

(١٢٦)

Olivier : Op. Cit., P. 8.

(١٢٧)

(١٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٦ .

Olivier : Op. Cit., P. 10.

(١٢٩)

(١٣٠) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ ، دراسة جراتيان لوبير

« دراسة من مدينة الاسكندرية » وهى دراسة عن موانئ الاسكندرية القديمة والجديدة .

وتتصل بمدينة الاسكندرية جزيرة فاروس حيث تنعدم فيها الزراعة وهي غير مأهولة بالسكان وأكد أوليفيه أنه شاهد مقابر أثرية قديمة (١٢١) فيها ، أما سافارى فقد اقتبس مقتطفات كثيرة من كتابات أبى الفدا وذكر أن المنارة فى فاروس كان بها مرآة من الفضة تشتمل فيها النيران واستخدمت لارشاد السفن وهي من عجائب الدنيا السبع (١٢٢) .

أما ما ذكره الرحالة عن شوارع الاسكندرية ومنازلها ومساجدها فلا يختلف عما ذكره رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كذلك عن طريقة امداد المدينة بالمياه بواسطة صهاريج (١٢٣) تمتلئ بمياه الفيضان ، وأثناء الفيضان يتم حفر قناة صناعية تصل النيل وحتى الاسكندرية ويدخل الماء تحت سور المدينة ليصب فى الصهاريج (١٢٤) وهي مكسوة بالرخام ويمكن الدخول والخروج منها بسهولة (١٢٥) .

ولما كان اهتمام أوليفيه بدراسة تحصينات المدن المصرية تمهيدا لارسال الحملة على مصر فقد تفقد تلك التحصينات وأكد ضعفها الشديد كما أكد هذه الحقيقة فولنى من قبل «فمن الناحية الحربية الاسكندرية لا تساوى شيئاً ، لا يوجد بها حصون

Olivier : Op. Cit., P. 11.

(١٢١)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 37.

(١٢٢)

(١٢٣) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ - ص ٢٦٢ ، عن صهاريج مدينة الاسكندرية ، دراسة لآتكريه شابرول « دراسة موجزة من ترعة الاسكندرية » ، عن صهاريج الاسكندرية .

(١٢٤) ذكر العمرى انه يمكن للنازل الى صهاريجها الصعود من

اى جهة .

Mallet : Op. Cit., P. 143.

١١٣٥

ولا مدافع صالحة للاستعمال ولا مدفعيون يقومون على ادارتها ،
أما الانكشارية الخمسمائة الذين يجب ان تتألف منهم الحامية
فقد تم انقاص عددهم الى النصف وهم جهلة لا يحسنون عملا
الا تدخين الفليون » ثم أكد « باستطاعة أى سفن حربية أن تنطلق
من مالطة أو روسيا ان تحول المدينة الى رماد » (١٢٦) .

وأخير ان الاسكندرية مدينة تجارية ولذلك ففيها مختلف
الجنسيات واللغة العربية هى اللغة المستخدمة بين التجار كذلك
يتحدثون الفرنسية والاطالية (١٢٧) ولم ير فولنى فى الاسكندرية
سوى « أزياء عجيبة الهندام ووجوه تتسم بالغرابة تنتشر فيها
الروائح الكريهة دائما بها عدد كبير من الحمير والكلاب الضالة .
والسكان يبدو عليهم الهزال يسرون لا رداء على اجسامهم سوى
قميص أزرق شذ وسطه نطاق جلدى أو منديل أحمر مما يدل
على شقاء البشر والعبودية التى يعيشون فيها » (١٢٨) .

أبو قير :

تبعد أربعة فراسخ عن الاسكندرية أراضيها مغطاة بالرمال ،
لم يهتم المماليك باصلاح مصب كانوب لمنع اغارة مياه البحر
عليها . والمدينة بها آثار قديمة وأعمدة من المرمر دمرها العرب
واستخدموها لبناء مساكنهم ، وأبو قير ليست مدينة عظيمة
الامتداد بها العديد من العرب يغلب عليهم البؤس والشقاء
وصورتها تختلف عن الصورة التى رسمها لنا القدماء عن سكان
كانوب وانهم كانوا يعيشون فى رخاء ورفاهية . ويمكن اصلاح

(١٢٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٦ .

Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 125.

(١٢٧)

(١٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤ .

الميناء واستخدامه كملجأ للسفن التي لا تستطيع دخول الاسكندرية (١٣٩) .

وفي ابي قير بحيرة عرفت ببحيرة المعدية تكونت حديثا وسميت بهذا الاسم لأن المياه الموجودة في البوغاز عبرت اى عدت بين الاسكندرية ورشيد ويوجد في ابي قير لسان رملى يفصل البحيرة عن البحر وقد تحدثت بول لوكا عن وجود جسر من الأحجار والأخشاب يسير بحذاء الساحل قادما من الغرب الى الشرق ، قطع عام ١٧١٥ م بفضل اندفاع مياه البحر وان المياه غزت المعدية منذ ذلك التاريخ (١٤٠) .

دمنهـور :

عاصمة البحيرة من اجمل المناطق ، بها بك ويحكمها كاشف والمدينة مركز لتجارة القطن يسكنها المسلمون والأقباط ، وذكر سافارى أن ابا الفدا حدد موقعها فذكر انها جنوب شرق الاسكندرية ، قريبة من قناة تحمل المياه ، بها مزارع غنية بالقمح والقطن وتصنع فيها المراكب وقد أعجب سافارى بالفتيات في دمنهور وهن يفتسلن في النهر بأجسامهن المشوكة المحروقة بأشعة الشمس (١٤١) ، أما سونيني فقد ذكر ملاحظة غريبة وزعم ان في دمنهور عددا من النساء الساقطات يكشفن وجوههن ويتواجدن قرب المقاهى وقد فرش الخيام لاجتذاب الناس (١٤٢) .

Olivier : Op. Cit., PP. 80 — 82.

(١٣٩)

(١٤٠) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ١١٣ ، ص ٤١٤ جرانان لوبير

« مستخلص من دراسة عن بحيرات وصحراوات مصر السفلى » .

Savary : Op. Cit., + 1 P. 68.

(١٤١)

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 142.

(١٤٢)

فوه

أكد سافارى ان حجم مدينة فوه قد تضاعف وانها كانت أكبر حجما من ذلك عندما زارها الرحالة بيلون فى القرن السادس عشر ولكنها الآن لم يعد بها قناة صالحة للملاحة ولذلك انتزعت رشيد منها المنافسة التجارية وكتب سافارى بطريقته الرقيقة « بدت لى مدينة فوه حزينة لفقدانها أهميتها وروبقها » (١٤٣) ، وأكد أوليفيه ان فوه فقدت مكانتها التجارية وكانت تشتهر بمصانع المنسوجات وبمزارع النخيل والليمون والبرتقال (١٤٤) ، ولم تعد السفن الأوروبية تفد على فوه بسبب اهمال القناة ، ولكن على رغم من أن المدينة فقدت أهميتها التجارية (١٤٥) الا أنها مأهولة بالسكان شوارعها مستقيمة وزعم ميليه « ان النساء فى فوه يتمتعن بحرية كبيرة فيخرجن كما يحلو لهن دون استئذان أزواجهن » (١٤٦) .

النصورة :

قريبة من فوه ، سكانها أكثر سكان مصر أدبا وقدم جرانجيه شرحا للقارىء الفرنسى عن معنى اسم المدينة « المنتصر » وذكر أن بها سجن الملك لويس التاسع ، ويسهل التعامل مع سكان المدينة وتشتهر المدينة بتجارة الأقمشة والجلود والأرز والملح وبها

Savary : Op. Cit., + 1 P. 66.

(١٤٣)

Olivier : Op. Cit., - 3 P. 104.

(١٤٤)

(١٤٥) عن انتزاع رشيد مكانة فوه التجارية ، انظر وصف مصر ،

ج ٣ ، ص ١٠٤ ، دراسة دى بوا - ايميه مالو « أن فوه فقدت مكانتها التجارية بسبب اهمال الترع فانتقل نقل البضائع فيها من النيل الى رشيد الى الاسكندرية » .

Maillet : Op. Cit., P. 106.

(١٤٦)

كنيسة مسيحية ومعبد قديم للآلهة أبولون دمر بالكامل ومعبد
أيزيس في شرق المدينة ويوجد في المدينة أعداد من الانكشارية
والعزب (١٤٧) .

أما سيكار فذكر ان المنصورة ليست مدينة كبيرة وانما هي
مدينة صغيرة بها كنيسة القديسة دميانة وبها أسواق لبيع
الأسماك خاصة في مولد القديسة دميانة حيث يفد على المدينة
معظم القساوسة ، وأكد سافاري أن أبا الفدا تحدث عن المدينة
وأكد وجود تجار مسيحيين من سورية يتاجرون في الأرض (١٤٨) .

زار الرحالة الفرنسيون عددا من المدن والقرى واكتفوا بذكر
اسمائها ، فقد زار سافاري زفتي ووجد انها « مدينة صغيرة
لا تستحق الزيارة ، منازلها على الأرض يبدو البؤس واضحا
على سكانها » (١٤٦) .

مدن البحر الأحمر :

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لأهم مدن وموانئ البحر
الأحمر خاصة كل من السويس والقصر ، وقد عرف جرانجيه
البحر الأحمر « بحر موسى » ويبدو انه تأثر بهذه التسمية من
اليهود . ثم قدم وصفا عنه فكتب « انه أقل عرضا من البحر
المتوسط ومياهه أقل ملوحة ولكن أسماكه سيئة الطعم » (١٥٠) .

وكان من الطبيعي أن تلفت السويس نظر الرحالة باعتبارها
من أقدم الموانئ فهي « مستودع جدة » تفد عليها السفن بحرا من

Granger : Op. Cit., P. 205.

(١٤٧)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 299.

(١٤٨)

Ibid P. 286.

(١٤٦)

Granger : Op. Cit., P. 199.

(١٥٠)

الجزيرة انعربية فتصل اليها واردات الهند ، وقد ذكر فولنى انه فى عام ١٧٨٢ م تم ارسال بضائع من السويس الى جدة ومكة حملت على ظهور ثلاثة آلاف جمل شملت الأخشاب والأشربة والحبال وبالات الجوخ والقمح والحديد . وتخرج قوافل الحج أيضا من السويس تحمل الماؤن من الأرز واللحم والمساء والخشب (١٥١) . ويشترك البدو مع الجنود الانكشارية والعرب فى حماية هذه القوافل (١٥٢) .

ورغم الأهمية التجارية لميناء السويس ونشاط حركة التجارة فيه الا انه لم يلق العناية الكافية من السلطات وانتقد فولنى ذلك الإهمال « ان المدينة تحيط بها الرمال وهى أشد البلاد قحطا فلا يوجد بها ماء صالح للشرب ومياهها غير مستساغة الطعم » (١٥٣) . وقد تكررت هذه الملاحظة من قبل الرحالة خاصة عن عدم توفر المياه الصالحة للشرب فى السويس فكتب بوكوك معربا عن ضيقه من عدم توفر المياه فى المدينة (١٥٤) ، ولكن جرانجيه أكد أن هناك بعض المحاولات البسيطة التى بذلت لتوفير المياه للشرب عن طريق تخزينها فى براميل (١٥٥) .

اما عن حالة الميناء فهو « فى حالة رديئة سيئة يصعب اقتراب السفن منه الا عند المد » وأفاض فولنى فى وصف سهولة الاستيلاء على السفن الراسية فى ميناء السويس وذلك لأن تحصينات المدينة ضعيفة كما أن المدافع الموجودة يعلوها الصدا

(١٥١) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .
Granger : Op. Cit., P. 82.

(١٥٢)

(١٥٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .
Aurlant : Op. Cit., P. 315.

(١٥٤)

Granger : Op. Cit., P. 105.

(١٥٥)

ومعمل السويس لا يصلح للترميم ، وانتقد فولنى السلطات فى مصر لأنها تركت الرمال عند مدخل المدينة وكتب « لو كان فى مصر حكومة صالحة لشيدت مدينة جميلة على الخليج ولاهتمت بترميم قناة النيل وحفرها ثانية » (١٥٦) . أما سكان المدينة فمعظمهم مسلمون ولكن بها عدد من العائلات اليونانية تعمل فى تجارة الحبوب (١٥٧) .

القصير :

تقع جنوب السويس ذكر ميليه ان الرومان أطلقوا عليها ميناء الفئران وهى مستودع تجارة مصر العليا مع الجزيرة العربية فمنها أيضا يخرج الحجاج الى مكة وللمدينة أيضا اتصالاتها مع الحبشة (١٥٨) .

وتبعد المدينة عن قوص ثلاثة أيام وتخرج القوافل من قوص متجهة الى الصعيد (١٥٩) ، كما تفد عليها القوافل من قنا وأبنوب على أن أهم ما يميز المدينة كما ذكر سونينى هو « تجمع قوافل البن فيها » (١٦٠) .

(١٥٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

Granger : Op. Cit., P. 190.

(١٥٧)

Maillet : Op. Cit., P. 322.

(١٥٨)

(١٥٩) نفس الملاحظة وردت فى وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، ص ٢٤٩ ، مقالة عن مدينة القصير وضواحيها دى بوا - ايميه « أراضى المدينة رملية لا يكاد البرى يرى أى نوع من الخضرة ، الميناء مفتوح امام رياح الشر ، القصير مستودع تجارة مصر العليا مع الجزيرة العربية حيث تصدر اليها الدقيق - الحبوب - الزيوت - مواد غذائية وترسل الجزيرة العربية البن ومنتجات الهند » .

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 210.

(١٦٠)

وأكد الرحالة البريطاني بروس أن « القصر يرد إليها جميع منتجات الهند ومنها تنقل بواسطة القوافل إلى القاهرة » (١٦١) .
وقد عرف الاغريق قيمة ميناء القصر فشيدوا فيه حصنا ولكن بمقارنة حال الميناء الآن نجده يفتقر إلى التحصين لا يوجد به سوى حارس واحد مهمته اغلاق بوابة حديدية قديمة وشعر سافاري بالأسف لأن السلطات المصرية لم تعرف قيمة هذا الميناء الذي عرف قيمته اليونانيون والرومان (١٦٢) .

وسكان القصر خليط من العرب والأتراك ويحكم المدينة كاشف يتبع حاكم قنا . وقد عدد سافاري مصاعب التجارة مع ميناء القصر فذكر أن الضرائب المفروضة على البضائع تصل إلى ١٠٪ ولذلك فهي لا تشجع التجار الأوروبيين على الحضور إلى الميناء ، كذلك استبداد البكوات وخوف التجار من هجمات البدو وضرب سافاري مثالا لذلك ما حدث للقائد العام للمنشآت الفرنسية في البنغال إذ حضر إلى القصر لتفقد أحوالها التجارية وبحث إمكانية التجارة بينها وبين الهند ولكنه تعرض لمضايقات من قبل الأتراك ، كذلك تعرض لاغارات البدو على قافلته وهو يعبر الصحراء متجها إلى السويس فعانى الكثير حتى وصل إلى القاهرة (١٦٣) .

وصف لبعض بحيرات وصحراوات مصر

بحيرة المنزلة :

تمتد من دمياط من قصر الطينة حتى الشمال من بيلوز تبعد احد عشر فرسخا عن المنصورة تصلها مياه الفيضان وبها أعداد

Bruce : Op. Cit., P. 92.

(١٦١)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 109.

(١٦٢)

Ibid. P. 109.

(١٦٣)

كبيرة من الصيادين ذكر سافارى انه يعمل فيها بالصيد حوالى ١٢٠٠ مركب يدفع أصحابها الضرائب السنوية للياشا مقابل السماح لهم بالصيد فى البحيرة وأنواع الأسماك فيها جيدة تمتاز بلحمها الأبيض الناعم الذى يباع طازجا فى دمياط والمدن المجاورة وأجود أنواع البورى فى المنزلة ومن انائه يتم صنع البطارخ وعلى سطح البحيرة يسبح الأوز والبط والبجع حتى أن سافارى كتب « اننى أعجز عن وصف جمال وروعة البحيرة » (١٦٤) .

وذكر جرانجيه أن السكان المقيمين حول البحيرة لا يزرعون سوى الأرض والبحيرة بها خمسة فروع ، أربعة منها تقصد مياهها البحر أما الخامس فينتهى بالقرب من بيلوز (١٦٥) .

بحيرة العديدة :

تكونت حديثا فى أبى قير سميت بهذا الاسم لأن المياه الموجودة فى البوغاز تعبر بين الاسكندرية ورشيد ويوجد لسان رملى يفصل البحيرة عن البحر (١٦٦) .

بحيرة مريوط :

تقع جنوب الاسكندرية ، تحدث عنها الرحالة الفرنسيون فى القرنين السادس والسابع عشر خاصة بيلو دى مان وفيلامون وتيفنو وأكدوا امتلاءها بمياه الفيضان (١٦٧) .

Ibid P. 338.

Granger : Op. Cit., P. 206.

Lucas : Op. Cit., P. 45.

Granger : Op. Cit., P. 221.

(١٦٤)

(١٦٥)

(١٦٦)

(١٦٧)

بحيرة موديس (قارون) :

ذكر أوليفيه أنها حفرت بأيد بشرية والبعض أكد أنه قد خرج منها فرع من النيل إلى ليبيا حتى سرت ولكن أوليفيه أنكر هذا الرأي مؤكدا أن النيل لم يمر في صحراء ليبيا وقد سميت ببحيرة موديس نسبة إلى الملك موديس الذي أمر بحفر البحيرة فقام بعمل عظيم لا يقل في روعته عن بناء الأهرامات (١٦٨) ، والواقع أن ما ذكره أوليفيه في أواخر القرن الثامن عشر كان قد ذكره جرانجيه من قبل من أن الملك موديس هو الذي أمر بحفر هذه البحيرة التي تمتاز بجودة أسماكها وصلاحية مياهها للشرب .

بحيرتا وادي النطرون في الصحراء الغربية :

قدم فولني وصفا عنهما فقال تقع بحيرتا النطرون غربي الدلتا قاعهما عبارة عن حفرة يتراوح طولها من ثلاثة إلى أربعة فراسخ أرضها صلبة حجرية جافة طوال تسعة أشهر وفي الشتاء ينبع من الأرض ماء لونه أحمر بنفسجي يملأ البحيرة بارتفاع عشرة أقدام وبعد الفيضان تبخر المياه فتترسب طبقة سميكة من الملح الصلب ويستخرج منها حوالي ٣٦ ألف قنطار سنويا (١٦٩) .

أكد سونيني ما ذكره هيروذوت وبليني من أن مياه النيل وصلت إلى هذه المنطقة حاملة معها الفيضان (١٧٠) ، كذلك أكد سيكار أن هناك علاقة بين النيل وهذه البحيرات ولما كان سيكار يجهل النواحي العلمية فقد تراجع عما ذكره وأكد استحالة

Olivier : Op. Cit., P. 276.

(١٦٨)

(١٦٩) فولني : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 100.

(١٧٠)

وجود علاقة بين النيل وبحيرة النطرون ففي وقت الفيضان تنقلص مياه البحيرة وعندما يتراجع النيل تمتلئ البحيرة بالمياه (١٧١) ، وقد فسر سونيني العالم الطبيعي ذلك بأنه وقت الفيضان وقت صيف ولذلك تكون الحرارة شديدة ويكون موسم الفيضان من أكثر الفصول حرارة في العام ولذلك تجف المياه في البحيرة بينما تكون مياه النيل مرتفعة بفضل الفيضان وعندما تتراجع مياه البحيرة وتجف فإنها تترك أرضا كلها أملاح جامدة جدا بفعل حرارة الشمس ، يستخرج منها النطرون (١٧٢) .

وأكد جرانجيه ان الملح في هذه البحيرات في فصل الصيف يكون جافا جدا بفعل حرارة الشمس فيسمح بسير الجمال عليه (١٧٣) . ويؤكد سونيني ان هذه المنطقة في حاجة الى دراسة طبيعية وفيزيائية وهذا ما فعله علماء الحملة (١٧٤) .

ويستخرج النطرون بكميات كبيرة وبواسطة الآلات الحديدية ، ثم يحمل على ظهور الجمال الى طرانة ومنها الى النيل ثم القاهرة ورشيد (١٧٥) .

بحر بلا ماء :

منطقة قريبة من بحيرات النطرون أطلق عليها مكان الصحراء الغربية « البحر الفارغ » تحدث الرحالة السابقون عن

Slcard : Op. Cit., P. 14.

(١٧١)

Sonnini : Op. Cit., + 2 PP. 163 — 165.

(١٧٢)

Granger : Op. Cit., P. 174.

(١٧٣)

Sonnini : Op. Cit., P. 165.

(١٧٤)

(١٧٥) اختلف رأى الجنرال اندريوسى من رأى سونيني فأكد أثر مياه

النيل على البحيرة وأن لها تأثير عليها ، انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، دراسة من المدن والاقاليم المصرية .

هذه المنطقة وزعموا أن سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم كما ذكر
الرهبان يرجع الى أن بعض القراصنة أرادوا مهاجمة الأديرة
فأخذ الرهبان يصلون ويدعون الله لانقاذهم وكانت مياه البحر
تصل من قبل الى الدير ولكن الله استجاب لدعوات الرهبان
وانحسر الماء نهائيا من المنطقة وفشل القراصنة في النزول
بسفنهم ولذلك سميت المنطقة « بحر بلا ماء » لأن المياه كانت
تصل اليها قديما تلك رواية كوبان التي ذكرها في القرن السابع
عشر (١٧٦) وقد أكدها أيضا كثير من رحالة القرن الثامن عشر
خاصة جرانجيه (١٧٧) .

وقد اختلف الرحالة في مسألة وصول مياه النيل الى هذه
المنطقة ، فأكد أوليفيه (١٧٨) أن مياه النيل لم تصل الى منطقة
بحر بلا ماء ولكن ربما وصلت مياه البحر المتوسط وهذا ما يفسر
وجود عظام الأسماك والأصداف « وأكد خطأ فكرة سافاري
والأب سيكار بشأن وصول مياه النيل الى المنطقة وذلك « لأن
تربة المنطقة لا تشبه تربة مصر فلا يوجد بها سوى الرمال
والصخور » (١٧٩) .

الصحراء الغربية :

اطلق عليها الرحالة صحراء ليبيا وهي تقع غرب الاسكندرية
ولم يهتم الرحالة بوصف الصحراء الغربية قدر اهتمامهم بوصف

(١٧٦) الهام ذهني : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .
Granger : Op. Cit., P. 174.

(١٧٧)

(١٧٨) ليزيد من المعلومات عن منطقة بحر بلا ماء ، انظر ما كتبه
الجنرال أندريومي من علماء الحملة الفرنسية عن المنطقة فقد قدم دراسة
عنها بعنوان « طبوغرافية البحر الفارغ » وصف مصر ، ج ٢ ، ص ٤١ .
Olivier : Op. Cit., PP. 277 — 280.

(١٧٩)

الأديرة المسيحية فيها فقدموا وصفا لدير السريان ودير أبي مقار ودير الباراموس ودير الأنبا يشوي واشتركوا في ذلك مع من سبقوهم من الرحالة الذين أنصبت كتاباتهم على هذه الأديرة فأهمية الصحراء الغربية للرحالة إنما ترجع لوجود الأديرة المسيحية فيها .

وقد بنيت الأديرة الأربعة على نمط واحد ، مربع مفلق اضلاعه متساوية بداخله كنيسة ومكتبة كبيرة بها العديد من المخطوطات ويوجد بئر في داخل كل دير لامداد سكانه بالمياه وقد حرص الرهبان على بناء الأسوار العالية حول الأديرة كذلك اخفاء مداخلها خوفا من هجمات البدو (١٨٠) .

ويعتبر دير الأنبا مقار من أهم الأديرة ويوجد بداخله جثمان أبي مقار ويستخدم الرهبان فيه الحبال للصعود والنزول منه وقد وصف سونيني الرهبان في هذا الدين بالجهل الشديد لأنهم لم يسمحوا له بالاطلاع على مكتبة الدير (١٨١) ، وذكر سيكار أن هذه المكتبة عامرة بالمخطوطات والكتب ولكن كلها تدور حول شهداء الأقباط في عهد الرومان وبها قصص خرافية نسخها الرهبان حول القديسين وبالمكتبة أيضا عدد كبير من المخطوطات العربية (١٨٢) . وقد تعجب جرانجيه من سلوك الرهبان الذين يفضلون أن تبلى هذه المخطوطات وتآكل بفعل الأتربة عن أن يقوم أحد بنشرها (١٨٣) .

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 163.

(١٨٠)

Ibid, P. 186.

(١٨١)

Sicard : Op. Cit., P. 13.

(١٨٢)

Granger : Op. Cit., P. 180.

(١٨٣)

دير الباراموس :

فقد أكد سيكار أنه وجد قسا أصله من الحبشة ثان لصا ثم تاب وانخرط في سلك الرهبنة (١٨٤) وأكد سونيني أنه وجد في الدير عدة توابيت أكد له الرهبان انها تحوى رفات القديسين بينما أكد له البدو انهم شاهدوا الرهبان يجمعون عظام الجمال والحمير النافقة ويضعونها في التوابيت لاقتناع الناس بانها رفات القديسين (١٨٥) ، ودير الباراموس أسواره مرتفعة عالية به مدخل عبارة عن باب صغير جدا يتم الصعود اليه بواسطة الحبال . وفي مكتبة الدير العديد من الكتب والمخطوطات باللغة اليونانية والقبطية وهم يهملون الكتب ويضعونها على الأرض حيث تتجول فيها الحشرات ، وكنيسة الدير سيئة حتى اللوحات الفنية المعروضة فيها سيئة للغاية لا تقارن بعظمة الفن والرسم المصري القديم (١٨٦) .

وغذاء الرهبان الخبز والخس والأرز وأحيانا العسل وملابسهم بسيطة يفضلون الملابس السوداء والألوان القاتمة وهم قصار القامة ، وقد وصف سونيني الرهبان في هذا الدير « لم أر أقدر ولا أجهل منهم » (١٨٧) . وفي وسط الدير قام الرهبان بزراعة النباتات خاصة الفلفل البلدى ويأكلون جذوره مع اللحم ولا يوجد لديهم فواكه ولا زهور ، ولكن الرهبان خصص لهم جزء من ملح وادى النظرون أطلق عليه « ملح مختوم » أى أنه خاص برهبان الدير (١٨٨) .

Sicard : Op. Cit., P. 16.

(١٨٤)

Sonnini : Op. Cit., + 2. PP. 191 — 192.

(١٨٥)

Ibid : PP. 187 — 191.

(١٨٦)

Ibid, P. 196.

(١٨٧)

Ibid, P. 200.

(١٨٨)

دير السريان :

هو أفضل الأديرة به بئر لرى النباتات وبه حديقة وقد شاهد سيكار شجرة تمر هندی زعم له الرهبان بأنها كانت عصا لأحد القديسين ثم تحولت الى شجرة (١٨٩) .

دير الأنبا بيشوى :

أكد الرهبان لسيكار انهم يحتفظون برفات أحد القديسين فيه وانها لم تبل حتى الآن (١٩٠) .

وبعد أن زار سونيني الأديرة الأربعة في الصحراء الغربية كتب « أقسمت بعد ما رأيته في أدير منطقة الصحراء الغربية بالأضع قدمي في دير مرة أخرى » (١٩١) .

والحقيقة أن علماء الحملة الفرنسية كتبوا عن رهبان الأديرة الأربعة وصفا شبيها الى حد كبير بما كتبه الرحالة الفرنسيون من قبل « رجال الدين عور عميان لهم ملامح وحشى يتفدون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت وينتضى اليوم في الخلوات والصلاة ، لديهم مخطوطات مكتوبة باللغة القبطية والعربية » (١٩٢) .

وكما مثلت الصحراء الغربية أهمية للرحالة الفرنسيين باعتبارها تضم بعض الأديرة الهامة والتي حرصوا على زيارتها

Sleard : Op. Cit., P. 46.

Ibid, P. 35.

Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 214.

(١٨٩)

(١٩٠)

(١٩١)

(١٩٢) انظر وصف مصر ، ج ٢ ، ص ٦١ ، ٦٦ ، دراسة موجزة

عن بحيرات النظرون ومن النهر بلا ماء للجندال أندريوسى .

والكتابة عنها فقد مثلت لهم الصحراء الشرقية نفس الأهمية،
فاهتموا عند زيارتها بوصف ما بها من أديرة .

لفت دير سانت انطوان نظر الرحالة فذكر جرانجيه أنه
صعد إليه بواسطة جبل وقدم وصفا للكنيسة بداخله ، ولرجال
الدين فيه لا تختلف عما سبق أن ذكر « القساوسة يرتدون
قميصا أبيض سترته سوداء يصومون طوال العام لا يأكلون
اللحم - جهلة - يضعون أوقاتهم في كتابة أوراق لعلاج المرضى
ويحصلون على غذائهم من القرى المجاورة » (١٩٣) .

ويعانى سكان دير سانت انطوان من هجمات البدو ولذلك
فان أسوار الدير عالية مغلقة ويخلو الدير من النوافذ ولا يمكن
الصعود إليه الا بواسطة الحبال ويقوم الرهبان بزراعة الفواكه
والخضروات لامدادهم بالغذاء .

ويكثرون من أكل الأسماك المملحة والزيت والسمسم
والرهبان فيه يعيشون فى بؤس وجهل على حد قول
سافارى (١٩٤) .

ولا يختلف دير سانت بول عن الأديرة السابقة وان كانت
أسواره فى حالة أفضل من دير سانت انطوان ، وقد زعم الرهبان
لجرانجيه بأن الدير يطلق عليه دير النمر وذلك لأن النمر قامت
بحفره وسط الصخور (١٩٥) .

Granger : Op. Cit., PP. 106 — 117.

(١٩٣)

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 57 — 59.

(١٩٤)

Granger : Op. Cit., P. 117.

(١٩٥)

صحراء سيناء :

لفتت سيناء أنظار الرحالة ففيها دير سانت كاترين مزار الحجاج الذين يفدون على بلاد الشام ، والرهبان في الدير ينتمون للكنيسة اليونانية يعملون في فلاحة الأرض لا يأكلون اللحم أو الزبد والجبن ، غذاؤهم الرئيسي من الزيتون والسمن والبصل ، ولا يختلف ما ذكره رحالة القرن الثامن عشر عن دير سانت كاترين عما ذكره الرحالة في القرنين السابقين (١٩٦) .

ومن المناطق الهامة التي حرص الرحالة على زيارتها منطقة عيون موسى حيث لا تنقطع المياه ولكن طعمها سيء حار وقذر (١٩٧) .

أما مدينة الطور فهي ميناء الهند بها عدد من المسيحيين والأرمن ، مأوى القوافل التي تتوقف لتنال قسطا من الراحة قبل استكمال الطريق الى مكة والجزيرة العربية (١٩٨) .

(١٩٦) انظر الهام ذهني : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٩٧) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(١٩٨) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

وصف لمدن الوجه القبلى

الجيزة :

عاصمة مصر القديمة تقع على الجانب الآخر من النيل
المواجه للقاهرة ؛ بنيت فى سهل رملى هو سهل الموميات هكذا
عرفها ميليه الجيزة (١٩٩) ، بينما أكد فورمون أن منف هى الجيزة
حسب ما ذكره وكتبه كل من هيروdot وسترابون وبليني وحرص
على إيضاح خلط العديد من الرحالة عن موقع الجيزة وعجزهم
عن تحديد موقع منف « فلم يدركوا بأنها فى الجيزة
الحالية » (٢٠٠) .

وحكم منطقة الجيزة كاشف والمنطقة تحيط بها المزارع خاصة
مزارع الخضروات وبها صناعة استخلاص صبغة الزعفران التى
تستخدم فى صباغة الملابس ، ويصدر الزعفران الى مارسيليا
ولانجدوك ، ويبدو أن مصانع الزعفران استمرت فى عملها منذ

Maillet : Op. Cit., P. 261.

(١٩٩)

Fourmont : Op. Cit., P. 217.

(٢٠٠)

القرنين الماضيين فقد أكد رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر على وجود هذه المصانع في الجيزة (٢٠١) .

وهواء الجيزة أنقى من هواء القاهرة ولكن توجد بعض المناطق ذات رائحة كريهة خاصة المناطق القريبة من مصنع النوشادر (٢٠٢) .

ولا جدال ان الجيزة مثلت أهمية كبيرة للرحالة الفرنسيين ليس فقط بسبب ما بها من مصانع النوشادر والزعفران وغير ذلك . ولكن لأنها ضمت أهم الآثار التي حرص الرحالة على زيارتها والكتابة عنها أسوة بمن سبقوهم الا وهي الأهرام ، والحقيقة ان كتابات رحالة القرن الثامن عشر لا تختلف كثيراً عما ذكر من قبل عن الأهرام فقد عبروا عن إعجابهم وانبهارهم بالمنطقة ورددوا الخرافات والمعتقدات حول أبى الهول وما تناقله سكان المنطقة وعبر سافارى عن إعجابه وانبهاره بالأهرام « فهي جبال من الأحجار من صنع الانسان ترتفع في الفضاء لا يعرف أسرارها الا من بناها » (٢٠٣) .

دخل معظم الرحالة الهرم الأكبر مدفوعين بالفضول الشديد والرغبة في الوصف والتعبير عن عظمة هذا البناء فكتب أوليفيه « لم أستطع المكوث في الهرم أكثر من أربع ساعات لعدم تجدد الهواء وصعوبة التنفس » (٢٠٤) .

اما سافارى فلم يجد في داخل الهرم ما يجذبه فقد عانى من هجمات الخفاش ولم يشاهد سوى صالة كبيرة مربعة.

Savary : Op. Cit., + 1 P. 253.

(٢٠١)

Ibid, P. 253.

(٢٠٢)

Ibid, P. 238.

(٢٠٣)

Olivier : Op. Cit., P. 137.

(٢٠٤)

وغرفة أقل اتساعا (٢٠٥) . وحرص معظم الرحالة على تأكيد مسألة تسلقهم الأهرامات خاصة الهرم الأكبر ، فكتب لوكا « من قمته تمكنت من رؤية مصر كلها والنيل والحدائق » (٢٠٦) وكان من الطبيعي أن يجذب هرم خوفو بضخامته انتباه الرحالة فكتب أوليفيه « ان الهرم الثالث يجذب المسافرين مثل الهرم الأكبر والأوسط ، ان المرء يحتاج أكثر من ستة أشهر لدراسة واكتشافات الأهرامات وان كانت تدل على عظمة المصريين فانها أيضا ترمز الى الطفيان لأن الملوك أجبروا الشعب على بنائها ، وأكد أوليفيه أن أرسطو ذكر في كتاباته عن وجود قناة قرب هرم خوفو كانت تحمل العمال اللازمين للبناء من مصر العليا الى الجيزة » (٢٠٧) . أما سافاري فقد عقد المقارنات بين ما ذكره المؤرخون القدامى عن ارتفاعات الأهرام وما ذكره الرحالة في العصر الحديث فوجد تفاوتاً كبيراً في تقديرات كل منهما (٢٠٨) .

Savary : Op. Cit., + 1 P. 186.

(٢٠٥)

Lucas : Op. Cit., P. 67.

(٢٠٦)

Olivier : Op. Cit., PP. 126 — 143.

(٢٠٧)

العرض	الارتفاع	(٢٠٨) المؤرخون القدامى
٨٠٠ قدم	٨٠٠ قدم	هيرودوت
٦٠٠ قدم	٦٢٥ قدم	سترابون
٧٠٠ قدم	٦٠٠ قدم	ديودور الصقلي
٧٠٨ قدم	—	بلييني

الرحالة :

٧٠٤ اقدام	٦١٦ قدما	لي بروين
٦٥٠ قدما	٦٢٥ قدما	البروفيسور البان
٦٨٢ قدما	٥٢٠ قدما	تيفنو
٧١٠ اقدام	٤٤٠ قدما	تيسور
٦٤٨ قدما	٤٤٤ قدما	جريفز

أما فولنى فقد كتب عن الهرم « عند وصف الأهرام لست بحاجة الى تكرار ما ذكره بول لوكان وميليه وسيكار وبوكوڤ ونوردون ونيبور وسافارى فأهرام الجيزة لم يتفق الجميع فى حقيقة مقاييسها ونقول بخطأ جميع القياسات التى تجعل الهرم الأكبر مساويا لقاعدته لأن مثلثها بين الانبطاح ويبدو لى أن معرفة هذه القاعدة من الأهمية بمكان وكثيرا ما يشكو الناس انهم لا يفهمون باطن الهرم وأحجار الأهرام كلسية ضاربة الى البياض ومن الحماسة أن نزن ان هذه الحجارة نقلت من جهات بعيدة نظرا لتكبد النفقات الباهظة » واختلفت الآراء حول الأهرام فهناك رأى بأنها كانت قبورا وهناك رأى أنها استخدمت مراصد فلكية وذلك نظرا لارتفاعها ولكن هذا الرأى غير صحيح لأن جبل المقطم أكثر ارتفاعا فضلا عن أنه يحجبها « ان هذه الجبال المصطنعة تبدو للناظر على مسافة عشرة فراسخ ويلوح لك انها تبعد عنك كلما اقتربت منها » (٢٠٩) .

اختلفت الكتابات والتفسيرات عن أبى الهول فذكر فورمون « ان له وجه عذراء وجسد أسد (٢١٠) وقد نحت فى الصخور والأخيرة هى نفس نوعية صخور الأهرام جلبت من صحراء ليبيا والرأس فى حالة جيدة ولكن يبدو أنها كانت مغطاة بطبقة صفراء ، والتمثال ارتفاعه ٢٥ قدما وقد نحت فى اتجاه الغرب ، وتوجد فتحة خلفية اعتقد القدماء انها تؤدى الى الهرم الأكبر وهناك اعتقاد ان جسد رمسيس وضع داخل أبى الهول ويعتقد المصريون ان التمثال قادر على تحقيق المعجزات وأنه يعمل على إيقاف زحف رمال ليبيا على الأراضي الزراعية » (٢١١) .

(٢٠٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ص ١٧٧ .

Fourmont : Op. Cit., P. 256.

(٢١٠)

Olivier : Op. Cit., PP. 147 — 148.

(٢١١)

وكان من الطبيعي خلال هذه الفترة من القرن الثامن عشر أن تختلف كتابات الرحالة حول الآثار المصرية وأن ينقل الرحالة آراء المؤرخين القدامى ، كذلك الخرافات التي نسجت حول هذه الآثار لأن الكشف العلمي الدقيق للآثار المصرية لم يكتمل إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية ولذلك نجد أن لوكا يكرر بعض الخرافات والمعتقدات التي سمعها من المصريين حول أبي الهول . « من يمتطى ظهر التمثال لابد وأن تحدث له كارثة » (٢١٢) .

منطقة سقارة :

لم تختلف كتابات رحالة القرن الثامن عشر عن سبقوهم فعرفوا سهل سقارة « سهل الموميات » وأكدوا في كتاباتهم حرصهم على شراء الموميات من البدو كما عبر معظمهم عن رغبته في النزول في الآبار التي دفنت فيها الموميات لمشاهدتها فذكر أوليفيه « سرت في ممرات من الرمال تؤدي إلى عدد من الحجرات حيث وجدت أعدادا هائلة من الموميات ملفوفة ومحنطة كما شاهدت أيضا مجموعات محنطة من العصافير والبجع والطيور والحيوانات » (٢١٣) وهي نفس الملاحظات التي سجلها من قبل الرحالة السابقون عن المنطقة (٢١٤) .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لمدن الوجه القبلي فتميزوا بذلك عن سبقوهم والذين اقتصررت رحلاتهم على مدن الوجه البحري .

Lucas : Op. Cit., P. 172.

(٢١٢)

Olivier : Op. Cit., PP. 159 — 167.

(٢١٣)

(٢١٤) في القرن ١٧ كتب ليفنو عن سقارة « انها مدينة الموميات »

حرص الفرنسيون فيها على شراء الموميات والنزول في الآبار المملئة بالموميات المحنطة . انظر الهام ذهني ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

الفيوم :

وصف جرانجيه الفيوم « بأنها حديقة مصر » وذلك بسبب كثرة الأشجار والفواكه فيها (٢١٥) . وأكد القنصل الفرنسي ميليه على ثراء الفيوم « فهي من أغنى وأجمل وأخصب أراضي مصر تشتهر بانتاج الحبوب والتين والعنب الفيومي » ولكن ميليه اعتراه الحزن عندما زار المنطقة بسبب زحف الصحراء عليها « فتسببت في تدمير كثير من الأراضي الزراعية الخصبة » (٢١٦) ، وأكد معظم الرحالة على أن الفيوم تنتج أجود أنواع الفواكه خاصة « الليمون والبرتقال والخوخ والمشمش » كما كتب لوكا (٢١٧) ، أما سافاري فقد أفاض في وصف سحر المدينة وحيث تنمو الخضروات تلقائيا دون زراعة مثل الشمام والخيار والتين واينما سرنا في الفيوم نشم الهواء المعطر برائحة أزهار البرتقال « فهواء الفيوم معطر مثل هواء فرنسا في الربيع وقد صدق سترابون عندما ذكر انها من أغنى أقاليم مصر » (٢١٨) .

وعاصمة الأقليم هي الفيوم وهي مدينة كبيرة مأهولة بالسكان بنيت على اطلال أرسينوى القديمة (٢١٩) ويحكم المدينة كاشف وأغا انكشارية ويمتلك الكاشف فيها العديد من الأراضي كما ذكر جرانجيه (٢٢٠) وكان من الطبيعي أن تلفت الكنائس نظر الرحالة الفرنسيين فأكد ميليه وجود دير للأقباط وكنيسة واحدة كما أن آباء الأراضي المقدسة استأجروا فيها منزلا لنشر

Granger : Op. Cit., P. 160.

(٢١٥)

Mallet : Op. Cit., P. 294.

(٢١٦)

Lucas : Op. Cit., + 3 PP. 144 — 145.

(٢١٧)

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 41 — 44.

(٢١٨)

(٢١٩)

Granger : Op. Cit., P. 165.

(٢٢٠)

مذهبهم بين السكان خاصة بين الأقباط الأرثوذكس (٢٢١) .
ويسكن الأقباط المنطقة الواقعة غرب المدينة ويعملون في زراعة
العنب وينتجون أنواعه الجيدة ويصنعون منه النبيذ الأبيض (٢٢٢) ،
وتنتشر الصناعات في الفيوم خاصة صناعة الأسماك حيث يباع
في المدن المجاورة وثمانه أرخص من أسماك دمياط (٢٢٣) .

قدم الرحالة وصفا لآثار الفيوم القديمة وأكدوا أنها مدينة
أرسينوى القديمة والتي عبت فيها التماسيح من قبل وقد
ذكر سافاري أن الكهنة في مصر القديمة خصصوا بحيرة في
الفيوم لتربية التماسيح وكانوا يطعمونها بالخبز واللحم والنبيذ
وان المصريين قدسوا التماسيح وصوروها على جدران المعابد
اعتقادا منهم أن ذلك سيحميهم منها ويخفف من حسرة
شراستها (٢٢٤) .

وقد شاهد الرحالة عددا من القصور المهتمة فزعموا بأنها
قصور التيه (اللابرنس) وقام لوكا بحفر اسمه على أحد الأعمدة
الرخامية القديمة فيها ، كذلك أكد جرانجيه رؤيته لهذه القصور
زاعما بأنها اللابرنس كما قدم وصفا للعديد من المسلات
القديمة (٢٢٥) .

بنى مسويقه :

مينا على الضفة الغربية للنيل يحكمها كاشف يعاونه
بيكار بك توجد بها ٤٢ قرية لا تزرع سوى القمح والخضروات

Maillet : Op. Cit., P. 294.

Granger : Op. Cit., P. 165.

Savary : Op. Cit., + 2 P. 48.

Ibid, P. 49.

Granger : Op. Cit., PP. 154 — 165.

(٢٢١)

(٢٢٢)

(٢٢٣)

(٢٢٤)

(٢٢٥)

وتفتقر المدينة الى الأرز والسكر وعلل لوكا ذلك لأن المنطقة مناخها جاف لا يساعد على زراعة هذه النوعية من الحاصلات (٢٢٦) .

ويسكن بنى سويف الأقباط الذين وصفهم الرحالة نوردن « بأنهم عصابة » (٢٢٧) وبها أيضا أعداد كبيرة من المسلمين الذين بنوا العديد من المساجد (٢٢٨) .

وقد أعجب الرحالة بمباني بنى سويف ومباجدها « فهي مبنية بطريقة جيدة » (٢٢٩) ، كذلك أعجبوا بالمدن والقرى حول بنى سويف فوصف سونيني ببا بأنها مدينة كبيرة بها كاشف وبها أعداد من المسلمين والأقباط (٢٣٠) ، ووصفها سيكار بأنها مبناء كما أطلق على الفشن أيضا بأنها مبناء كبير (٢٣١) .

البهنسا :

اهتم الرحالة بزيارتها لأن بها كنيسة وبئر زعم لها الرهبان ان المسيح شرب منه ولذلك فقد ساد الاعتقاد ان من يشرب من مياه هذا البئر فانه تكتب له النجاة في سفره ، كذلك زعم رجال الدين ان مياه البئر يستدل منها على ما سيكون عليه ارتفاع فيضان النيل وان حاكم البهنسا كان يصر على اقامة حفل سنوى عند البئر حيث يتم انزال جبل من القطن عليه علامات باللون الأزرق تستخدم لقياس ارتفاع المياه فيه (٢٣٢) .

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 150.

(٢٢٦)

Norden : Op. Cit., P. 33.

(٢٢٧)

Savary : Op. Cit., + 3 P. 52.

(٢٢٨)

Pococke : Op. Cit., P. 71.

(٢٢٩)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 38.

(٢٣٠)

Sicard : Op. Cit., P. 127.

(٢٣١)

Mallet : Op. Cit., PP. 63 — 65.

(٢٣٢)

المنيا :

مدينة تستحق المشاهدة فهي مدينة جميلة بالنسبة لباقي مدن الصعيد ، شوارعها مستقيمة مبنية من الأحجار وهي مأهولة بالسكان تصنع فيها أجود أنواع الأواني الفخارية (٢٣٢) ووصف سافاري المنيا بأنها ميناء كبير بها تجارة مزدهرة يحكمها كاشف ونظرا لأهمية المدينة التجارية ، فقد وضع فيها جمرك لتحصيل الرسوم من المراكب المارة في النيل وتشتهر المنيا بانتاج القمح والفول والذرة (٢٣٤) .

وقد اقيمت المنيا على طلال مدينة هرموبوليس القديمة وصحح سوزيني خطأ وقع فيه الرحالة البريطاني بروس عندما ذكر بان المنيا هي مدينة فيلة (٢٣٥) ، وتعتبر ملوى من أجمل مدن المنيا ، أسعارها رخيصة (٢٣٦) ، ومنها تخرج القوافل متجهة الى الحج ويزرع فيها القمح وتصدر كميات كبيرة منه الى الجزيرة العربية (٢٣٧) .

أما الأشمونين فقد وصف الرحالة آثارها القديمة مؤكدين انها بنيت على اطلال مدينة لاتوبوليس وبها العديد من الآثار والأعمدة الرخامية وقد وصف دانتريج سكانها بأنهم رؤساء « النساء والرجال يتجمعون حول مساكنهم مثل القروء » وبها شيخ له السيطرة على البدو يعرف بالشيخ اسماعيل وكان تابعا

Sonnini : Op. Cit., PP. 63 — 65.

(٢٣٢)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 66.

(٢٣٤)

Sonnini : Op. Cit. + 3 P. 43.

(٢٣٥)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 67.

(٢٣٦)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 52.

(٢٣٧)

للشيخ همام وقت سيطارته على الصعيد وقبل أن يقضى عليه
على بك الكبير (٢٣٨) .

وقد اتفق الرحالة البريطانيون في رأيهم حول جمال المنيا
وجمال آثارها وقراها مع الرحالة الفرنسيين فأكد بوكوك بأن
مبانى المدينة في حالة جيدة وهى من أجمل مناطق مصر (٢٣٩) .

منفلوط :

تعتبر من أكبر أسواق مصر انتاجا للأقمشة ومعظم سكانها
يعملون بالنسيج (٢٤٠) وهى مدينة صغيرة ولكنها جميلة مضافة
الأسوار وقد اضطر لوكا عند زيارتها أن يدعى أنه طبيب، وذلك
لأن السكان اعتقدوا أنه ساحر حضر لسرقة كنوزهم وآثارهم
فعمل على اقناعهم بأنه لا يبغي سوى التجول في البلاد لمشاهدتها،
وأكد أن السكان لم يعتادوا على رؤية الأوروبيين فيها (٢٤١) .

وتحيط الجبال بمنفلوط وقد اقيمت في كهوفها الأديرة
المسيحية ، فالمدينة بها عدد كبير من الأقباط . وذكر جرانجيه
أنه على مقربة من منفلوط جبل به خمسة كهوف تحتوى على
العديد من الآثار القبطية القديمة (٢٤٢) .

أورانت : Op. Cit. :

ميناء كبير تبعد عن أخميم مسافة بسيطة والجبال تحيط
بالمدينة وتمثل حاجزا أمامها ويوجد بها العديد من الكهوف التى

Auriant : Op. Cit., P. 312.

(٢٣٨)

Pocoke : Op. Cit., P. 73.

(٢٣٩)

Granger : Op. Cit., P. 123.

(٢٤٠)

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 88.

(٢٤١)

Granger : Op. Cit., P. 124.

(٢٤٢)

حرصت على دخولها ومقابلة القساوسة فيها لوصفها وأكد لوكا أن البعض منها على عمق ثلاثمائة قدم وهى مزينة بالرسومات وأسقفها ملونة مغطاة بالأحجار وتشتهر أسيوط أيضا بأنها تحوى العديد من الآثار والمقابر الفرعونية عليها كتابات هيروغليفية (٢٤٣) . والمدينة مأهولة بالسكان تكثر فيها حدائق الفاكهة والخضروات وتعتبر أسيوط محطة للقوافل القادمة من سنار حيث تتجمع فيه البضائع الإفريقية (٢٤٤) .

طهطا :

بها كاشف وبها أعداد كبيرة من الأقباط والكنائس وهى مدينة غير مسورة تنتشر فيها الأشجار والحدائق فتكثر فيها أشجار النخيل والدوم ، كما تكثر فيها أبراج الحمام وقد بالغ لوكا فى تخيلاته وأدعى أنه عندما زار طهطا وجد عددا كبيرا من الفتيات يجلسن عند مدخل المدن والقرى والمنازل عرايا يقوم على خدمتهن بعض الخدم من النوبيين (٢٤٥) ، وقد انتقد كاريه لوكا وأكد استحالة وجود فتيات هوى فى طهطا فى قلب الصعيد (٢٤٦) ، وتمتاز طهطا بوجود الآثار الفرعونية القديمة والآثار القبطية والكهوف المنحوتة فى الصخر (٢٤٧) .

أخميم :

أهم ما لفت نظر الرحالة الفرنسيين هو وجود بعثة الفرنسيين التنصيرية الكاثوليكية وقد حاولت هذه البعثة

Lucas : Op. Cit., + 3 PP. 62 — 64.

(٢٤٣)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 79.

(٢٤٤)

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 99.

(٢٤٥)

Carré : Op. Cit., P. 45.

(٢٤٦)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 130.

(٢٤٧)

اقناع الأقباط في المنطقة بالتحول عن الأرثوذكسية فرفضوا وإن كانت هناك أعداد بسيطة قد استجابت لنداءات هذه البعثة .

وتمتاز أخميم بمبانيها المزينة جيدة البناء حتى أن جرانجيه تحمس وكتب مؤكدا « أن أخميم هي المدينة الوحيدة المنظمة بعد القاهرة فالمدينة متسعة وشوارعها تمتاز بالهدوء والأمن » (٢٤٨) .

وتشتهر المدينة بإنتاج السكر والقطن ومختلف الحاصلات الزراعية وبها أجود أنواع الفواكه خاصة الشمام كما تمتاز أيضا بوجود ثروة سمكية كبيرة وأكد سافاري وجود تجارة نشطة في أخميم ومصانع للقطن يعمل فيها معظم السكان تنتج أجود أنواع المنسوجات وكانت أخميم تتبع الشيخ همام وقت سيطرته على الصعيد (٢٤٩) .

وقد أفاض لوكا في الحديث عن الخرافات التي سسمها في المدن التي زارها من بينها أخميم فكتب مرددا مزاعم الأقباط فيها « أن أرض أخميم لونها أحمر وذلك لأنه دفن فيها ألف شهيد من شهداء المسيحية » (٢٥٠) .

سوهاج :

يحكمها كاشف ، سكانها بؤساء تنتشر فيها أشجار النخيل وتعتبر **طما** أهم مدنها وهي تقع في مواجهة جزيرة جميلة على النيل (٢٥١) .

Granger : Op. Cit. P. 80.

Savary : Op. Cit., + 2 P. 82.

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 118.

Savary : Op. Cit., + 2 P. 81.

(٢٤٨)

(٢٤٩)

(٢٥٠)

(٢٥١)

جرجا :

عاصمة الصعيد من أهم مدن مصر بها كاشف يقوم بمراقبة السفن التي تسير في النيل ليعرف وجهتها ولديه سفن مسلحة لتعقب السفن الهاربة (٢٥٢) . وتشتهر جرجا بخصوبة أراضيها التي تنتج القمح والحبوب والفلول والسكر وأشجار الفواكه التي يستخرج منها السكان الزيوت كما تنتشر بها أشجار النخيل (٢٥٣) .

وللعرب نفوذ كبيرة في جرجا ومصر العليا فهم يستطيعون مهاجمة القوافل ولا يجرؤ الباشا على مطاردتهم ولذلك فإن حاكم جرجا لابد وأن يوطد صلاته مع زعماء العرب ويتقرب اليهم لكي يستتب الأمن ولكي يحصل منهم على الخيول (٢٥٤) .

وتنتشر الأديرة في الكهوف ، ويوجد في جرجا ستة عشر كهفا محفورة في الصخور والكهوف متصلة بعضها ببعض بواسطة سلسلة من الممرات (٢٥٥) .

كذلك توجد في المدينة أعداد من المسلمين وقد بنوا حوالي سبعة مساجد وقد قدر لوكا عدد سكان جرجا بخمسة وعشرين ألفا منهم خمسة عشر ألفا من الأقباط وعشرة آلاف من المسلمين وتوجد أعداد من اليهود في المدينة (٢٥٦) .

Granger : Op. Cit., P. 32.

(٢٥٢)

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 150.

(٢٥٣)

Granger : Op. Cit., P. 82.

(٢٥٤)

Ibid, P. 34.

(٢٥٥)

Lucas : Op. Cit., + 2 PP. 123 — 124.

(٢٥٦)

قنسا :

تفد عليها القوافل من القصير محملة بالبضائع الهندية وتخرج منها القوافل متجهة الى البحر الأحمر ثم مكة والمدينة وهي محملة بالحبوب والقمح ، وفنا جميلة منازلها بيضاء سزينة باللون الأحمر كل منزل شيد وكأنه قصر أو حصن (٢٥٧) .

أبيدوس :

لفتت نظر الرحالة بآثارها الفرعونية القديمة ومعابدها المذهبة باللون الأزرق (٢٥٨) ، كذلك مدينة دندرة التي بنيت على أطلال مدينة Tentyris وبها آثار معبدين لايزيس وبها معبد ضخيم عليه كتابات هيروغليفية وبه صالات واسعة مرتفعة ، وأجمل الآثار الفرعونية يمكن مشاهدتها في دندرة (٢٥٩) فهي مدينة عظيمة ، تحوى العديد من الآثار القديمة كذلك تحوى العديد من آثار المعابد الاغريقية التي تمتاز بالفخامة والعظمة (٢٦٠) .

وتشتهر دندرة بانتاج مزارع الفواكه من بلح وعنب وليمون وبرتقال وبها غابة من النخيل وتمر بها قناة تمتد المدينة بالمياه ، انها من أجمل مدن مصر العليا على حد قول جرانجيه (٢٦١) . وصحح الرحالة الفرنسي موقع دندرة وأوضح خطأ كل من بروس ونوردون في تحديد موقعها (٢٦٢) .

Ibid, P. 174.

Granger : Op. Cit., P. 129.

Ibid, P. 151.

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 175.

Granger : Op. Cit., P. 151.

Sonnini : Op. Cit., + 3 PP. 188 — 191.

(٢٥٧)

(٢٥٨)

(٢٥٩)

(٢٦٠)

(٢٦١)

(٢٦٢)

قفط :

كان لها أهمية كبيرة ولكن قنا حلت محلها في الأهمية .
وهي الآن قرية بنيت على أطلال مدينة كوبتوس وما زالت تجارة
البحر الأحمر تفد عليها ، ولكنها الآن ليست سوى ميناء
صغير (٢٦٣) بعد أن كان لها شهرتها في العصور الوسطى حيث
وفدت عليها منتجات الجزيرة العربية والهند وأثيوبيا واستشهد
سافاري بما كتبه أبو الفدا عن شهرة قفط في العصور الوسطى
بفضل تجارتها (٢٦٤) .

قوص :

بنيت على أطلال مدينة بولونيس بها العديد من المعابد
والآثار خاصة معابد الشمس وقد ذكر سافاري أن قوص قد
انتعشت بعد انهيار قفط فوفد عليها التجار من القاهرة
وأصبحت مخزنا للتجارة القادمة من البحر الأحمر ، ومنها أيضا
تخرج القوافل الى مكة (٢٦٥) .

الأقصر :

فيها أجمل المعابد وأجمل آثار مصر العليا بها العديد من
المسلات الجرانيتية عليها كتابات هيروغليفية بها مقابر ملوك طيبة
محفورة في الجبال مزينة بالرسوم ، والأقصر ساحرة بمبانيها ،
عند رؤية المعابد في الأقصر التي تبهر الأبصار يشعر المرء بصعوبة

Ibid, P. 303.

Savary : Op. Cit., + 2 P. 105.

Ibid., P. 106.

(٢٦٣)

(٢٦٤)

(٢٦٥)

تصدق ان هذا الشعب الجاهل انتج مثل هذه الأعمال
المبهرة « (٢٦٦) .

تحدث عنها المؤرخون القدامى هيرودوت وديدودور ووصفوا
التمائيل الضخمة فيها ومعابدها الجميلة ، لقد كانت طيبة
عاصمة مصر كلها (٢٦٧) .

وتعتبر **القرنية** : جزء من طيبة القديمة وبها العديد من
الآثار والتمائيل المنحوتة من المرمر والجرانيت (٢٦٨) .

اما **الشيخ عبادة** فهي مجموعة من القرى البائسة تمثل
المنطقة حاجزا ضد هجمات العرب وبها دير صغير للأقباط يسمى
دير القديس جان الصغير ، كذلك تكثر فيها الكهوف وعددها
١٥ كهفا مزينة بالصور والرسومات (٢٦٩) .

أرمونت :

بها معبد أبولون والعديد من الآثار القديمة بنيت على
أطلال مدينة هرمونتييس عدد سكانها قليلون ، كذلك وجد بها
بعض الآثار الاغريقية ومعبد للآلهة جوبيتر (٢٧٠) .

أسينا :

يحكمها كاشف بها العديد من المساجد والكنائس ، اشتهرت
بتجارتها مع اسوان وفوص واراضيها خصبة غنية بالحبوب

Savary : Op. Cit., + 2 P. 143.

(٢٦٦)

Ibid, P. 128.

(٢٦٧)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 273.

(٢٦٨)

Gratger : Op. Cit., P. 128.

(٢٦٩)

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 10.

(٢٧٠)

والفواكه بها العديد من الآثار القبطية والمعابد الفرعونية القديمة ولكن وجد جرانجيه اعدادا كبيرة من الأعمدة ملقاة على الأرض ، كذلك وجد ان الأتراك استخدموا أحد المعابد القديمة اسطبلا للخيول فكتب جرانجيه « هؤلاء البرابرة لا يخجلون من استخدام أجمل الآثار اسطبلا للخيول » (٢٧١) . وعدد من الأديرة القبطية ولكنها سيئة المظهر كذلك وصف لوكا كنائس أسنا بأنها فقيرة . كما أن سكانها من الأقباط الفقراء (٢٧٢) .

نقادة :

فهي مدينة صغيرة بها عدد كبير من الأقباط وعدد قليل من المسلمين ، معظم سكانها يعملون في صناعة المنسوجات الزرقاء بها مناجم الزمرد والعرب فقط يعرفون مكان هذه المناجم ويرفضون الارشاد عنها (٢٧٣) . وفي نقادة بعثة كاثوليكية للتنصير افتتحت مستشفى ويوجد دير للرهبان الكاثوليك القادمين من ألمانيا وإيطاليا ، كذلك يوجد بها دير للفرنسيين وتعتبر نقادة محطة في الطريق الى أثيوبيا (٢٧٤) . وقد أكد الرحالة البريطاني بروس وجود هذه البعثات التنصيرية ولكنها عجزت عن تحويل الأقباط الى المذهب الكاثوليكي (٢٧٥) .

أسوان :

سكانها يتحدثون لغة مختلفة عن العربية وعلل لوكا ذلك لأن سكان أسوان خليط من النوبيين والأحباش فالمدينة لها

Ibid, P. 720.

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 150.

Ibid, + 2 PP. 3 — 5.

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 197.

Bruce : Op. Cit., P. 71.

(٢٧١)

(٢٧٢)

(٢٧٣)

(٢٧٤)

(٢٧٥)

صلاتها بالسودان وأفريقيا (٢٧٦) وفي أسوان جزيرة الفنتين وتمتاز أسوان بوجود العديد من المعابد وقد صحح سافارى خطأ وقع فيه فانزليب فى القرن السابع عشر عندما خلط بين أسنا وأسوان وحدد سافارى موقع أسوان تحديدا دقيقا (٢٧٧) .

ركز الرحالة حديثهم عند وصف مدن الوجه القبلى على التعريف بأهم الأديرة والكهوف القبطية ، كذلك اهتموا بوصف العديد من المعابد الفرعونية والاغريقية ولكنهم عجزوا فى أغلب الأحيان عن تحديد أسماء هذه المعابد فاكتفوا بتقديم وصف عنها خاصة وأنهم كانوا يجهلون اللغة الهيروغليفية والتي لم يكشف عن أسرارها إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية على مصر ، فنجدهم عند وصفهم لأحد المعابد الفرعونية يكتفون بذكر « عليه رسومات متعددة » أو « عليه كتابات باللغة الهيروغليفية » وقد دعا سافارى الى ضرورة الكشف عن هذه اللغة ومعرفة أبجديتها « فهى لغة حروفها غريبة ترسم على شكل خطوط — ما زالت مجهولة بالنسبة للمصريين » ، وكشف الغموض عن هذه اللغة سيؤدى الى معرفة عادات المصريين القدماء وتقاليدهم لأنهم سجلوا كل ما يتعلق بحياتهم اليومية على جدران المعابد ، وألقى سافارى اللوم على الكهنة لأنهم حصروا علومهم داخل المعابد ولم يحاولوا إبرازها للنور مما أدى الى ضياع تلك العلوم القيمة .

ورغم جهل سافارى كفيه من الرحالة باللغة الهيروغليفية إلا أنه حرص على القاء الضوء على معتقدات المصريين الدينية . فانفرد بذلك عن غيره من الرحالة وان كانت ملاحظاته قد استقاهها من كتابات هيرودوت وبلو تارك وبليني وغيرهم من

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 163.

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 149 — 159.

(٢٧٦)

(٢٧٧)

المؤرخين القدامى فأعطى القارىء الفرنسى فكرة عن المعبودات المصرية القديمة خاصة ايزيس وأوزوريس ، وأكد اعتقاد المصريين فى الحياة الآخرة وتقديسهم لمظاهر الطبيعة المختلفة فالشمس رمز القوة والقمر امير السماء له تأثير على الجو والرياح والنيل يحمل الرخاء لمصر (٢٧٨) .

سجل سافارى أسفه على عدم اهتمام المصريين بالآثار القديمة وهى ملاحظة سجل أيضا غيره من الرحالة والقناصل خاصة ميليه الذى كتب غاضبا بانه « شاهد بعض الأعمدة الأثرية فى منزل أحد الجنود كذلك فى منزل قاضى العسكر » (٢٧٩) .

ولم يكتف الرحالة عند تجولهم فى مدن الصعيد بالكتابة عن الآثار القديمة ووصف بعض المدن وانما حرصوا على تسجيل ما سمعوه وما تناقله الرهبان ورجال الدين حول قدسية بعض الأماكن مثل بئر بنى سويف أو مزاعم الرهبان حول القصص المتناقلة عبر العصور عن أهمية بعض الأديرة والكهوف ، على أن أهم حدث حرص الرحالة على تدوينه عند زيارتهم مدن الصعيد وقلما خلت كتابتهم عنه هو ما سمعوه وما أدعى البعض منهم رؤيته بنفسه عن أسطورة أو قصة شعبان الشيخ هريدى .

وقد اختلف الرحالة فى تحديد مكان هذا الشعبان فذكر سافارى انه شاهده فى اخميم بينما أكد اوكا انه فى طهطا وذكر جرانجيه ان مكانه فى قنا وأكد البعض انه فى أسيوط والواقع انه توجد حتى يومنا هذا مغارة فى أسيوط تعرف بمغارة الشيخ هريدى .

Savary : Op. Cit., + 3 PP. 270 — 278.

(٢٧٨)

Maillet : Op. Cit., PP. 192 — 193.

(٢٧٩)

أما قصة الثعبان هذا فقد ادعى جرانجيه أن الملك رافائيل وضع الثعبان في أعالي النيل ليمنعه من أذى الناس ولكنه زحف حتى جاء إلى صعيد مصر (٢٨٠) ، بينما زعم لوكا أن الثعبان هو نفسه الملك روفائيل (٢٨١) ، أما نوردون فقد ذكر أن الثعبان إنما هو في الحقيقة شيخ صالح توفي فتحول بعد وفاته إلى ثعبان لا يموت قادر على الاتيان بالمعجزات ونجدة الناس (٢٨٢) .

وزعم جرانجيه حسب الروايات التي يتناقلها الناس أن الثعبان لا يؤذى الرجال فإذا زحف على ذراع شخص فإنه لا يعضه . ولكنه يكره النساء خاصة المتزوجات ويؤذى في الحال من تقترب منه أو من مغارته (٢٨٣) .

وأفاض لوكا في وصف العديد من الخرافات مؤكدا أنها من معجزات الثعبان وأورد كثيرا من المبالغات ادعى أنه شاهدها بنفسه فعلى سبيل المثال أكد أنه تم تقطيع جسد الثعبان إلى ثلاثين قطعة وبعد مضي ساعة اختفى الجسد وعندما عاد مرة ثانية إلى المغارة وجد الثعبان حيا لم يصبه شيء (٢٨٤) .

كذلك قص جرانجيه رواية مماثلة بأنه تم تقطيع الثعبان إلى نصفين ولكنه وجد في اليوم التالي في المغارة مكتمل الجسد (٢٨٥) .

Granger : Op. Cit., P. 85.

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 111.

Norden : Op. Cit., P. 65.

Granger : Op. Cit., P. 89.

Lucas : Op. Cit., + 2 P. 117.

Granger : Op. Cit., P. 89.

(٢٨٠)

(٢٨١)

(٢٨٢)

(٢٨٣)

(٢٨٤)

(٢٨٥)

وجدير بالذكر اننا لمسنا من خلال كتابات الرحالة عن هذا الشعبان اعتقاد المسيحيين والمسلمين في قدرة الشعبان على الأتيان بالمعجزات والخوارق وقد شارك نوردون الرحالة الفرنسيين في الحديث عن هذا الشعبان ولكنه عمل على تحليل وتبرير ما يتناقله الناس خاصة فيما يتعلق بكراهية الشعبان للنساء المتزوجات فقط أما الفتيات فهو لا يقدم على ايذائهم وكتب نوردون انه شاهد الشعبان يلتف حول رقبة احدى الفتيات ولكنه لم يصيبها بسوء وعلل ذلك علمياً « بأنه من المؤكد أن الفتاة تضع بعض الأعشاب ذات الرائحة النفاذة الجاذبة للشعبان ولذلك فهو يتجه نحوها فيلتف حول رقبتها باحثاً عن هذه الرائحة » أما عدم الحاقة الضرر بالفتاة فذلك لأنه مدرب على عدم العض أو انه يتم انتزاع السم منه وضرب نوردون مثالا بما يحدث في شوارع القاهرة من قدرة الحواة المدربين على الامساك بالشعابين دون أن يصابوا بأذى (٢٨٦) .

واخيرا يمكننا القول ان الرحالة قد وصفوا مدن مصر بقسميها البحر والقبلى وان كان الوصف لا يقترب الى الكمال كما انه حوى العديد من المبالغات وترديد الخرافات والشائعات الا ان الذى يهمنا ان مدن مصر وصفت بالفعل قبل مجيء الحملة الفرنسية ومما لا شك فيه ان هذا الوصف مثل ركيزة هامة لعلماء الحملة قبل ان يمضوا في عملهم متوغلين ومنقبين عن تراث مصر .

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية

- ① أولا - طبقات المجتمع .
- ② ثانيا - الاحتفالات والأعياد .
- ③ ثالثا - المنشآت الاجتماعية .
- ④ رابعا - الأمراض والأوبئة .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للمجتمع المصرى ودونوا ما شاهدوه من احتفالات وأعياد ومنشآت اجتماعية .

أولا - طبقات المجتمع المصرى :

تعاقت الأجناس المختلفة على مصر ولكنها امتزجت وانصهرت بسكان البلاد الأصليين مما أدى الى فقدان الأجناس الواحدة لخواصها المميزة ، فأصبحت مصر شعبا متجانسا وقد عدد فولنى الأجناس التى تعاقت على مصر من فرس واغريق ورومان ثم عرب وأتراك ، ورجح أن يكون قدماء المصريين من الزنوج والأفارقة ثم « امتزجت دماؤهم على مر العصور بدماء الشعوب الواحدة مثل الافريق والرومان ففقدوا ملكتهم الأولى » (١) .

ويعتبر الشعب المصرى من أقدم الشعوب « فالمصريون يشبهون الصينيون فى العراقة والقدم » على حد قول القنصل الفرنسى ميليه ، وقد لاحظنا أن معظم الرحالة الذين تحدثوا عن مصر وشعبها حرصوا على التأكيد على « أن مصر كانت من أعظم البلاد والأمم وانها امتازت بحضارتها العظيمة والعريقة »

(١) فولنى : المرجع السابق ، ص ٥٧ - ص ٦٢ .

ثم قارنوا بين مجدها قديما ووضعها السياسي المضطرب في القرن الثامن عشر فكتب ميليه متحسرا « ان مصر اليوم غارقة في الهمجية والجهل » (٢) .

وجدير بالذكر ان هذه الملاحظات عن مصر وتقدمها العلمي والحضاري قديما ثم فقدانها لمكانتها في القرن الثامن عشر ردها أيضا علماء الحملة الفرنسية فنجد في وصف مصر عبارات تشبه ما كتبه ميليه من قبل « ان هذه البلاد التي نقلت معارفها الى كثير من الأمم هي اليوم غارقة في الهمجية » (٣) .

أما عن تعداد سكان مصر فقد أكد معظم الرحالة « ان مصر بلاد مأهولة بالسكان وأن ثروتها الحقيقية تكمن في عدد سكانها » (٤) .

واختلفت تقديرات الرحالة حول التعداد الحقيقي للسكان فقدرهم فورمون من ثلاثة الى أربعة ملايين نسمة ، ولكنه أكد في نفس الوقت ان هذا العدد يتعرض دائما للنقصان بسبب انتشار الأوبئة خاصة الطاعون وضرب مثالا بوفاة ٦٤.٠٠٠ نسمة في واخر القرن السابع عشر من جراء الطاعون » (٥) .

وسكان مصر مسلمون ، وقد استخدم لوكا لفظ « المحمديون » تعبيرا عنهم (٦) ومعظمهم على المذهب الشافعي « ولكل مدينة شيخها الذي يقده السكان » كتب البارون دي توت هذه العبارة متأثرا بتقديس الأوروبيين والمسيحيين

Mallet : Op. Cit., P. 22.

(٢)

(٣) انظروصف مصر ، ج ١ ، ص ١٨٩ . Lucas : Op. Cit., + 3 P. 128.

(٤)

Fourmont : Op. Cit., P. 34.

(٥)

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 192.

(٦)

لرجال الدين المسيحيين ، كذلك عندما تحدث عن المذاهب الأربعة ذكر « المذاهب الأربعة الأرثوذكسية » فوق فيما وقع فيه رحالة القرنين السابقين الذين خلطوا بين الاسلام والمسيحية وذلك يرجع الى جهل دى توت بتعاليم الدين الاسلامى (٧) ، ولكننا نجد فى الوقت نفسه العديد من رحالة هذا القرن أدركوا الفوارق بين المسيحية والاسلام ولم يخطئوا بين الديانتين فنجد فورمون يؤكد « أن المصريين مسلمون يعتقدون أن محمدا أعظم الرسل » (٨) .

لاحظ الرحالة التفاوت الطبقي الشديد فى مصر وى الحقيقة ان هذه الملاحظة تحدث عنها أيضا من سبقوهم من الرحالة ، كذلك كتب عنها الرحالة المسلمون نخص بالذكر ابا القاسم الزيانى الذى كتب معبرا عن هذا التفاوت « هناك الفئات شديدة الثراء » مقارنا بين احوال الفلاحين الذين يعيشون فى بؤس وشقاء وبين أثرياء البلاد (٩) .

فند الرحالة طبقات المجتمع على النحو التالى :

طبقة الأتراك :

تعتبر فى قمة الهرم الاجتماعى وهى الطبقة الحاكمة على رأسها الباشا وقد وصف لنا فولنى لفظا تركيا ومعناه متتبعا نشأة الأتراك فى آسيا الصغرى حتى اعتناقهم الاسلام وظهور عثمان بن أرطغرل وتأسيس الدولة العثمانية واستيلائها على

De tott : Op. Cit., P. 60.

Fourmont : Op. Cit., P. 85.

(٧)

(٨)

(٩) يونان ليب : المرجع السابق ، ص ١٢٧ - ص ١٢٨ .

البلاد العربية ، وعقد مقارنة بين الأتراك والعرب فأنصف العرب
« لأنهم كانوا أكثر توفيقا في نشر دينهم » (١٠) .

الماليك :

شكل الماليك طبقة متميزة في مصر وأفاض الرحالة في
الحديث عن أصولهم فذكر أوليفيه بأنهم « جلبوا من جورجيا
والقوقاز » وكتب متعجبا « عبيد يحكمون شعبا حرا » (١١) .
وقد يردد فولنى نفس الملاحظة « حكمت فرقة الأرقاء الطفلة
مصر » ثم أعطى فولنى القارىء نبذة عن قيام دولة الماليك
حتى الفتح العثمانى ثم أبدى أسفه لأن السلطان سليم كان من
الممكن أن يمحو هذه الفئة بذبحها أو التخلص منها ولكنه رأى
الافادة منهم فأدى ذلك الى تعاظم نفوذهم « (١٢) » ، وأكد أوليفيه
بأنه « لو اتبع الماليك سياسة أفضل لأمكنهم الاستمرار في
الحكم ولكنهم طغاة تهادوا في استبدادهم » (١٣) .

وإذا كان رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر قد
اعجبوا اعجابا شديدا بالماليك فان رحالة القرن الثامن عشر
وصفوههم بالطغيان والجهل ويمكن تفسير ذلك بنمو نفوذ الماليك
بالفعل خلال هذه الفترة فزاد تعسفهم وظلمهم ، وعمد بعض
الرحالة الى تشويه صورة الماليك فأطلقوا عليهم احكاما عامة
خاصة فولنى الذى وصفهم « بالفساد وأن سلوكهم غير سوى
وأخلاقهم فاسدة » فأول درس يتعلمه المملوك هو الشذوذ على
يد معلمه مثله في ذلك مثل اليونانيين والتتار تنتشر بينهم

(١٠) فولنى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .
Olivier : Op. Cit., P. 255.

(١١).

(١٢) فولنى : المرجع السابق ، ص ٧٣ .
Olivier : Op. Cit., P. 199.

(١٣)

الخرافات والجهل » وفي الحقيقة ان فولنى كان الوحيد من الرحالة الذى أشار الى شذوذ الممالك فلم نجد من بين زملائه من وصفهم بهذا الوصف المخزى الماجن (١٤) .

وتنعم طبقة الممالك بالثراء والنفوذ منهم السادة يمتلكون كل السلطات ، وقد اهتموا بالاثراء على حساب الفلاحين التمساء وقد اعتمد الممالك على الكتبة من الأقباط لتحصيل الضرائب من الفلاحين (١٥) .

وقد تحدث المترجم الفرنسى ديجون عن ثراء الممالك فذكر ان أحد الكتبة الأقباط الذين يعملون لدى مراد أكد له أن سيده يمتلك أربعة آلاف قرية مزروعة وقد أكد هذه الحقيقة أيضا دينون المصاحب للحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٩ م فكتب « رأيت عدة قرى كبيرة تابعة لمراد » (١٦) .

لفتت أسلحة الممالك انتباه الرحالة « فهم يهتمون اهتماما شديدا بالأسلحة المزينة وركوب الخيل وهم لا يسمحون للمصريين بركوب الخيل وانما يسمحون لهم فقط بركوب البغال والحمير » وعلل فولنى ذلك « لأن الخيول الفرسان وركوبها شرف يختص به الممالك وحدهم » ويحرص الممالك على وضع عدة ضخمة الهيكل يعلوها قربوش يرتفع ثمانية قراريط ويغطى الفارس حتى رأس الورك وأمام قربوش آخر ويضعون تحت السرج أغطية صوفية سميقة ، وسروجهم واسعة المقدمة لا سير لها فى المؤخرة وذلك لأن المملوك فارس ثابت قوى » (١٧) .

(١٤) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

Hanotaux : Op. Cit., P. 72.

(١٦).

(١٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١١١ - ص ١١٤ .

وقد عدد الرحالة أنواع الأسلحة والسيوف التي يمتلكها المماليك فكتب فولنى « يملك المملوك قرابينة انجليزية يختارها تطلق عشر رصاصات في وقت واحد ، يحملون في وسطهم المسدسات ومن حمالة في جانبهم الأيمن يتدلى سيف معقوف » قلما نشاهد نظيره في أوروبا « وتجلب السيوف من الاستانة وأوروبا والبكوات يتنافسون للحصول على السيوف من المصانع القديمة في دمشق وثمان سيف الواحد أربعين أو خمسين ليرة فرنسية ذهباً » (١٨) . ويظفر المملوك بأكثر وأعلى مما يظفر به جندى على مدى التاريخ فقد كان يحصل في رمضان من كل عام كسوة كاملة جديدة من الأقمشة الفرنسية والدمشقية والهندية وتتحقق رغبته في اقتناء المسدسات والجياد العربية الأصيلة وشيلان الكشمير (١٩) .

وهناك ظاهرة لفتت أنظار الرحالة وأفاضوا في الحديث عنها ألا وهي موت أطفال المماليك فذكر البعض بأن ذلك يرجع الى فساد هواء مصر وعجز الجيل الأول والثانى عن التأقلم مع جو مصر ولكن أوليفيه ناقش هذا الادعاء وأكد بأنه غير صحيح وأنه « لا يجب أن نتهم هواء مصر بأنه سبب موت أطفال المماليك لأن هواء مصر نقي وصحى » ثم علل موت أطفال المماليك بسبب سوء تربيتهم وتنشئتهم وأكد أنه شاهد أطفال الأوروبيين الذين تزوجوا من نساء مصريات « اصحاء » ، كذلك أشار الى أن الاغريق والرومان أدركوا مدى قوة وصحة المرأة المصرية فتزاوجوا منهم وأنجبوا جيلاً يتمتع بالصحة (٢٠) ، وبذلك يمكن القول ان مناخ مصر غير مسئول عن وفاة أطفال المماليك وانما ترتفع نسبة

(١٨) المرجع السابق ، ص ١١٥ - ص ١١٧ .

(١٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

Olivier : Op. Cit., P. 222

(٢٠)

وفيات اطفال الممالك لأن نساءهن يحرصن على تنشئة اولادهن في مكان مغلق لا يجدد فيه الهواء ولا يحصل الطفل على تغذية سوى اللبن ، كذلك تحرص نساء الممالك على أن يرتدى الأطفال ملابس ثقيلة في الصيف ، وأكد أن الأطفال يتم ابقاؤهم في جناح الحريم حتى سن السابعة « فتذبل صحتهم وتعلو الصفرة وجوههم لأنهم يعيشون في أجواء مغلقة غير صحية » ثم أكد أوليفيه « أن اطفال الفلاحين يتمتعون بهواء المطلق والشمس ولذلك فهم أصحاء » (٢١) .

والواقع أن هذه الملاحظات عن طقس مصر ومناخ مصر وأنه المسئول عن ارتفاع وفيات اطفال الممالك أشار إليها أيضا علماء الحملة الفرنسية « طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب » والممالك محرومون من فرص التكاثر الطبيعي ولذلك يشترون الرقيق الشبان (٢٢) .

وقد علل فولني ظاهرة استمرار تكاثر أعداد الممالك رغم ارتفاع نسبة وفيات اطفالهم إلى استمرارهم في جلب وشراء الرقيق وذلك « استمرت أعدادهم في الزيادة وزودت هذه الطبقة على التوالي بدماء جديدة » .

وهكذا نلاحظ أن الرحالة اعتبروا الأتراك والممالك هم الطبقة الحاكمة المنفردة في مصر ولعل خير إيجاز ما ذكره فولني عن الممالك رغم الاتهامات التي وجهها اليهم من قبل « الممالك أجفل جنود آسيا وأكثرهم ظلما وعتوا » (٢٣) .

Ibid, F. 255.

(٢١)

(٢٢) انظر وصف مصر ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٢٣) فولني : المرجع السابق ، ص ٧٣ - ص ٧٧ .

طبقة العلماء :

أما عن طبقة العلماء خاصة علماء الأزهر والقضاة والفقهاء فقد اثنى عليهم الرحالة دورقال فكتب « هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة ، يمتازون بالجد والاستقامة » (٢٤) .

كما أفاض جرانجيه في الثناء على الجامع الأزهر « ففى القاهرة كلية عظيمة اسمها الأزهر يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ ، بها رؤساء المذاهب الأربعة لهم الهيمنة والنفوذ ورغم ان الأزهر يخضع للسلطان العثماني إلا انه له استقلاله فى الإدارة الداخلية » (٢٥) .

كما اشار الرحالة الى وظيفة مفتى المذاهب الأربعة مؤكدين ان مشايخ الأزهر كان لهم نفوذ كبير على المصريين ، كذلك وصفوا أروقة الأزهر « فيوجد فى الأزهر عدة أروقة لتعليم الطلاب منها رواق المغاربة والشوام والعميان » وكان لطلاب الأزهر مكانة كبيرة . كما تحدث الرحالة عن الاشراف موضحين نفوذهم فى القاهرة وحرص السلطات على أن يشاركوهم فى كافة الاحتفالات الدينية (٢٦) .

الفلاحون :

هم اصل سكان مصر يعيشون فى بؤس وشقاء تنتشر فيهم الأوبئة والمجاعات يعاملون معاملة سيئة فاذا أراد شخص تحقيق شخص آخر يطلق عليه لفظ « فلاح » (٢٧) ، ولا ينعم الفلاح

Clement : Op. Cit., P. 187.

(٢٤)

Granger : Op. Cit., P. 141.

(٢٥)

Clement : Op. Cit., P. 187.

(٢٦)

Maillet : Op. Cit., P. 24.

(٢٧)

بشمة جهده فنراه منصرفا الى العمل كارها ، لا توجد لديه صناعة قائمة وفنونه بدائية ، يعيش الفلاح فى فقر مدقع غذاؤه ردىء ؛ يصنع خبزه من اللرة ويعتمد على روث الماشية لاشعال النيران ، طعامه الرئيسى من الخبز والبصل ويسعد او تخلل طعامه الفسل والجبن واللبن الرائب اما اللحم فلا يتذوقه الا فى الأعياد الكبرى (٢٨) .

وملابس الفلاح بسيطة تتكون من قميص من الخام الأسود ، وعلى رأسه قلنسوة من الكتان يلف حولها منديل من الصوف الأحمر ويظهر فى الحقول عارى الذراعين والباقيين والصدر وأغلب الفلاحين لا يلبسون سراويل ، مساكنهم من الطين يضيق صدر المرء من غرفها لأنها غير صحية تكثر بينهم أمراض الصدر (٢٩) .

وتفرض الضرائب على الفلاحين وما يحصدونه من حبوب تذهب الى موائد أسيادهم والواقع أن ما ذكره الرحالة الفرنسيون عن المغارم الجبرية والضرائب التى فرضت على الفلاحين صحيحة فقد تزايدت بشكل واضح فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر كما تزايدت حوادث الاستيلاء على الحيوانات والبضائع (٣٠) .

وقد أفاض الكونت دانتريج فى تصوير الفظائع التى يتعرض لها الفلاحون خاصة من المماليك من تنكيل ومصادرة لممتلكاتهم (٣١) ، كما أكد المترجم الفرنسى ديجون أن الفلاحين

(٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٢٩) المرجع السابق .

(٣٠) هاملتون جب : المجتمع الاسلامى والغرب ، القاهرة ، ١٩٨٩ م ،

Aurlant : Op. Cit., P. 225.

ص ١٢٨ .

(٣١)

يعاملون أسوأ معاملة ووصفهم بأنهم « عبيد لديهم انحطاط لا يثورون ضد أسيادهم الذين ينظرون اليهم كحيوانات لازمة ولا يعاملون معاملة انسانية » (٣٢) .

ولكن فولنى كان له رأى مخالف فقد رأى ان الفلاحين لديهم نخوة ويتسمون بالعناد ولا يحتاجون سوى التوجيه حتى تصبح شجاعتهم رهيبة ودل على ذلك بالفتن التى يثيرونها خاصة فى مديرية الشرقية واكد أنها تدل « على نار تحت الرماد لا تنتظر الا الانفجار » (٣٣) .

ثم تعجب فولنى من عدم ثورة المصريين على المماليك خاصة ابان المجاعات ، وعلل ذلك فذكر « ان سكان البلاد الحارة مستضعفون وان الطبيعة أعدتهم لأن يكونوا عبيدا للاستبداد » ولكن سرعان ما لجأ للدفاع عن المصريين فذكر « ان أحوالهم قاسية وهم أجدر بالشفقة من الاحتقار انهم مستعبدون لقاتحين غرباء عنهم » ودعا فولنى للثورة ضد المماليك وابداهم ولكن فى الوقت نفسه رأى أن من الصعوبة تحقيق ذلك « لأن الفلاحين الحفاة المشاة لا أسلحة لهم أمام أسلحة المماليك وهم يجهلون فنون القتال كما أن مصر السهلية المسطحة يسهل فيها تفريق الجماعات عكس البلاد الجبلية التى تكسب شعوبها نشاطا وحيوية » (٣٤) .

البدو :

انفرد سافارى عن غيره من الرحالة بتقديم صورة مشرقة للبدو فكتب « انهم يعشقون الحرية يعيشون أحرارا فى الصحراء ،

Hanotaux : Op. Cit., P. 73.

(٣٢)

(٣٣) قولنى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣٤) قولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٩ - ص ١٣٠ .

يعتقدون أن سهول مصر سوف تحولهم إلى عبيد ، وكثيرا
 ما أعطتهم الحكومة أرضا ولكنهم كانوا يرفضون الإقامة فيها ،
 وهم لا يعرفون الكتابة ، عجز الفرس والعشانيون عن اخضاعهم ،
 يحتقرون العلوم لديهم كبرياء لا يخضعون لأحد ، وهم أفضل
 شعوب العالم لا يعرفون الكذب ولا النفاق ، معتدون بأنفسهم
 كرماء خيامهم مفتوحة دائما لاستقبال ضيوفهم فإذا نزل عندهم
 مسافر فإنهم يكرمونه ويلبسون له الخراف ويقدمون له العسل
 واللبن وهم يتسمون بالجراة لا يلجأون إلى الدسائس للانتقام
 من خصومهم ، يعرفون المساواة فهم يتحدثون إلى مشايخهم
 دون خوف أو وجل وهم لا يميلون إلى الأثراك ولا يخشونهم ،
 وهم شهداء حريتهم التي يعشقونها لأنهم يصرون على الحياة
 الخشنة الصعبة (٣٥) . وإذا كان سافري قد اثنى على البدو
 هذا الثناء إلا أن غيره من الرحالة خالفوه في هذا الوصف فنجد
 ثوكا يصفهم بأنهم لصوص ، طغاه متشردون ، يعشقون الاغارة
 على القوافل كما يغيرون على المدن (٣٦) .

وقد قارن أوليفيه بين البدو والفلاحين فرجحت كفة
 الفلاحين « لأنهم أكثر رقة من البدو » وشهد أوليفيه لبعض زعماء
 البدو بالكرم فذكر أنه استقبل استقبالا حافلا من زعماء البدو
 في صحراء أبو قير وقاموا بذبح الخراف له ولكنه كتب « وهذه
 حالات نادرة » (٣٧) . ولا تقتصر إقامة البدو على المناطق
 الصحراوية فهم يحاولون كسب عيشهم في بعض المدن فيقومون

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 23 — 37.

Lucas : Op. Cit., + 3 P. 142.

Olivier : Op. Cit., P. 108.

(٣٥)

(٣٦)

(٣٧)

بنقل البضائع من رشيد الى القاهرة (٣٨) ولكن من المؤكد أن الغالبية العظمى منهم تقطن الصحراء والأماكن المنعزلة ويعيشون في ترحال دائم لا يتعلقون بالأرض الا من أجل المراعى وهم عشائر مختلفة تسمى وراء العشب ، وتقعد بعض القبائل على مصر كل عام بعد الفيضان لتستفيد من نمو العشب في فصل الربيع وبعض القبائل المتنقلة في مصر تستأجر بعض الأراضي لزراعتها وبين هذه القبائل حدود متعارفة محترمة المعالم فاذا تجاوزتها تعرضت للحرب ، وللبدو نمط واحد في المعيشة وعادات وتقاليدها واحدة وهم أميون فقراء مسالمون في ربعمهم ولكنهم قساة في وقت الحرب يكرههم الفلاحون والمسافرون بسبب اغارتهم المتكررة على المدن والقوافل ولم يختلف وصف فولنى عن البدو عن غيره من الرحالة فكتب « أنهم لصوص متشردون » (٣٩) .

وقد قدم لنا الرحالة صورة مشرقة لبعض زعماء القبائل لعل أبرزهم هو الشيخ همام الذى اتفقت آراء الرحالة حوله سواء الفرنسيين أو غيرهم من الجنسيات فقد وصف بالأدب الجم ، سيطر على مصر العليا وامتد نفوذه من أسبوط حتى أسوان وصفه نوردون بالكرم وانه من خيرة العرب (٤٠) . بينما وصفه الرحالة البريطاني بالقوة والشجاعة والحكمة وقوة الشخصية فقد حرم على سكان فرشوط شرب الخمر والدخان وقد بلغ درجة كبيرة من النفوذ والسلطان حتى أن بكوات القاهرة شعروا بالغيرة منه فأرسلوا له على بك قوة للقضاء عليه (٤١) .

Ibid, : P. 108.

(٣٨)

(٣٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

Norden : Op. Cit., P. 56.

(٤٠)

Bruce : Op. Cit., P. 25.

(٤١)

أهل الذمة :

الأقباط :

ينتشر الأقباط على طول وادى النيل (٤٢) ولكن معظمهم يقطن الصعيد حيث تتألف منهم قرى بأكملها وهم ينحدرون من سلالة الفراعنة ولكنهم اختلطوا بالفرس والرومان مذهبهم يختلف عن سائر المسيحيين يعملون فى الأديرة الداخلية أمناء سجلات الأراضي وكتبه ووكلاء وجباة ضرائب لدى الحكومة والبكوات (٤٣).

والأقباط هم سكان مصر الأصليين عاشوا فى رق وبؤس وشقاء وما زالوا يحتفظون ببعض العادات القديمة ، اضطهدهم الرومان فاضطر العديد منهم الى الفرار فى الجبال حيث أقاموا فى الأديرة مما أدى الى حفظ تاريخ الكنيسة القبطية (٤٤) .

ورغم تأكيد معظم الرحالة بأن الأقباط هم أحفاد الفراعنة إلا أنهم أكدوا اختلاطهم بالشعوب الوافدة على مصر خاصة الاغريق والرومان ، تتسم وجوه الأقباط بسمة خاصة بالبشرة صفراوية دخانية اللون مما يرجح أصولهم اليونانية لا العربية ولهم وجه منتفخ وأنف افطس وشفة ضخمة ومجمل القول وجه خلاسى واضح وقد امتزجوا بالاغريق ففقد لونهم حلكتته الأولى (٤٥) .

وجدير بالذكر ان هذا الوصف عن الأقباط اقتررب كثيرا مما ذكره علماء الحملة الفرنسية والأقباط أكثر الطوائف اثارا للاهتمام فيعتبرون أنفسهم أحفاد المصريين القدماء وهم فى

Fourmont : Op. Clt., P. 33.

(٤٢)

(٤٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ٦١ .
Savary : Op. Clt., + 2 P. 78.

(٤٤)

(٤٥) فولنى : المرجع السابق ، ص ٦١ - ص ٦٣ .

ملمحهم يشبهون الافارقة ويعملون فى النواحي الادارية خاصة
فى سجلات الضرائب وتقسيم التركات العقارية كما يعمل معظمهم
كتبة (٤٦) .

وصف معظم الرحالة الأقباط خاصة رجال الدين منهم
بالجهل الشديد وانتقدوا تمسكهم بالمذهب الأرثوذكسى
وتقديسهم البالغ فيه لرؤسائهم الدينيين خاصة القساوسة ،
ولعل الأب سيكار كان من أشد المهاجمين للأقباط خاصة وأنه
حاول نشر المذهب الكاثوليكى بينهم فلم يجد أية استجابة ، وقد
كتب بأنه « وجد صعوبة فى التعامل مع الأقباط المصريين وذلك
لتمسكهم الشديد بالمذهب الأرثوذكسى » فالتعامل مع الأقباط
أمر ليس هينا فهم متعصبون ولذلك « لابد لنا من التعرف على
عاداتهم وتقاليدهم حتى نستطيع أن نهزمهم ونصحح أخطائهم »
ولذلك قام سيكار بزيارة الأسر القبطية فى المدن التى مر بها
وزار المرضى منهم فى محاولة لكسبهم ولكن يبدو أنه فشل
فى مهمته وفى تحويل الأقباط الى المذهب الكاثوليكى فكتب
« حاولت دون جدوى ولكنهم لا يريدون التحول عن عقيدتهم »
وهم يحترمون البطريك والقساوسة وقد حاولت اطلاعهم على
قواعد مذهبنا فرفضوا بشدة ولم يقتنعوا وقد رفض أقباط
دمنهور اتباع المذهب الكاثوليكى كذلك أقباط دمياط « وبصفة
عامة ينقص الأقباط التعليم ولذلك فهم فى حاجة الى ارشاد
وتعليم (٤٧) .

وقد فشلت مهمة سيكار فى مصر العليا لأن هذه المناطق
تشتهر « بتعصب الأقباط فيها عن مصر العليا » ولكن يبدو أن

(٤٦) انظر وصف مصر ، ج ١ ، ص ٢٤ ، ص ٢٦ .
Sleard : Op. Cit., PP. 24 — 29.

(٤٧)

محاولاته لنشر المذهب الكاثوليكي قد لاقت نجاحا طفيفا في جرجا فقد ذكر ان أقباط جرجا كتبوا له عدة رسائل تضمنت اعترافا منهم بفضله في تبصيرهم في أمور دينهم (٦٨) .

والواقع ان بعثة سيكار اليسوعية أعقبها عدة بعثات تنصيرية أخرى تجولت في مدن الصعيد في قوص - جرجا - أخميم - منفلوط - ملوى وغيرها من المدن ولكن معظم هذه البعثات حققت نتائج محدودة ، ولم يتزايد عدد الأقباط الكاثوليك الا في القرن التاسع عشر (٦٩) . وقد تعجب سونيني من تمسك الأقباط بمذهبهم وعدم اهتمامهم أو احترامهم للمذهب الكاثوليكي فكتب متعجبا « ان اسم فرنسا الذي يحترم في أوروبا كلها والشرق وفي الدولة العثمانية محتقر من قبل أهالي الصعيد ، فالأقباط الأرثوذكس يهتقون البعثات الكاثوليكية ويطلقون على أعضائها « الكلاب » ومن الصعب تحويل الأقباط الى الكاثوليكية وأكد انه لا يوجد رحالة ولا عضو بعثة تنصيرية الا وشكى من الأقباط وتعصبهم الشديد » (٥٠) .

وقد أسهب الرحالة الفرنسيون في وصف عادات الأقباط « الخاطئة » من وجهة نظرهم وذلك لمخالفتها لمذهبهم الكاثوليكي فأوضح سينكار « بانهم يعمدون الأطفال بعد مضي أربعين يوما وليس فور ولادتهم ، وان التعميد يتم في المنازل ، واذا أصاب المرض أحد الأطفال ولم يشف فانهم يتركونه يبكي لمدة ثلاثة أيام على أسطح المنازل » (٥١) ، كذلك انتقد فورمون تأثير الأقباط

Ibid. : PP. 162 — 166.

Clement : Op. Cit., P. 180.

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 245.

Sicard : Op. Cit., P. 131.

(٦٨)

(٦٩)

(٥٠)

(٥١)

بالمسلمين في طريقة ذبح الحيوانات (٥٢) . كذلك انتقد القنصل
ميلييه تقديس الأقباط لرجال الدين المسيحيين رغم انهم « لا يحبون
العلم ولا يحبون التغير حتى كتبهم وآدابهم محفوظة لا تنشر » (٥٣) .

وللأقباط في القاهرة احياء خاصة بهم للسكنى ، وقد
قدرت أعدادهم بعشرة آلاف حسب ما ورد في أرشيف مارسيليا
ومراسلات القناصل وقد ذكرت التقارير بانهم لا يلعبون دوراً
في التجارة التي تهم الفرنسيين مثل البن وتجارة الأقمشة
وانما يعملون في صناعة المصوغات وتتركز محلاتهم في خان الخليلي
والحمزاوي والجمالية ، كذلك يعملون في صناعة الحرير ،
ومعظمهم يميل للعمل كتبه في منازل البكوات وقد ذكر دييجون
بان الأقباط عملوا في منازل البكوات ولدى ضباط الأوجاق (٥٤) .

اليهود :

ركز اليهود اقامتهم في مدن مصر الهامة مثل القاهرة
والاسكندرية وقد قدم سونيني وصفا عاما عنهم « انهم يتحدثون
بصوت منخفض على عكس المسلمين ، فاليهود يهدسون »
وعلى ذلك لخوفهم من سكان البلاد ، ولذلك نجد اليهودي يسير
منحنى الرأس وبخطوات سريعة وهم بخلاء غشاشون (٥٥) .

ولليهود رئيس ديني هو الحاخام الذي يقنس ويحفظ
قوانين اليهود ولهم معابد في القاهرة يمارسون فيها شعائريهم
الدينية ولم تختلف طقوسهم الدينية عما كانت عليه في المصور

Mourmont, : Op. Cit., P. 89.

(٥٢)

Mallet : Op. Cit., P. 68.

(٥٣)

Raymond : Op. Cit., P. 458.

(٥٤)

Sonnini, : Op. Cit., + 3 PP. 116 — 117.

(٥٥)

الوسطى (٥٤) ، ويعمل اليهود في صناعة الذهب والفضة ولديهم مصانع للمنسوجات الخفيفة ويصنعون منسوجات من القطن الوارد من البنغال ومن الحرير الوارد من سورية (٥٧) .

وفي عام ١٧٢٧ م افتتح اليهود شركة للتجارة مع المسيحيين القادمين من أوروبا ولكن محاولاتهم فشلت كما ذكر ميليه ، وقد تمتع العديد منهم بالثراء فأكد ميليه انه في عام ١٧٤٧ م أصبح اليهودى ابراهيم سرانو من أغنى تجار القاهرة ، كما ذكر نيبور انهم تمتعوا بحرية تامة في العمل بمختلف المهن (٥٨) .

وقد عمل اليهود في تغيير العملة وتركزت أعمالهم في خان الحمزاوى كذلك عملوا في دار سك العملة وقد قدر دييجون أعدادهم في القاهرة عام ١٧٧٨ م من ألفين الى ثلاثة آلاف يعملون بالتجارة (٥٩) . وتركز عمل اليهود في الجمارك وقد قدمت العديد من الشكاوى ضدهم خاصة من قبل التجار الفرنسيين وقد ذكر ميليه قضية اليهودى زافير الذى كان مسئولاً عن جمرك الاسكندرية وفرض الغرامات على التجار الفرنسيين فطالبوا الباشا بمعاقبته واستدعى في الديوان ووجهت اليه الاتهامات ثم قدمت ضده الشكاوى في استانبول فتم استدعاؤه للمحاكمة (٦٠) .

Benjamin : Voyage De Rabbi Benjamin
filles de Jona De tudle en Europe, eu Asie en Afrique Amesterdarn
1873. P. 226.

Savary : Op. Cit., + 3 P. 39.

Maillet : Op. Cit., P. 92.

Raymond : Op. Cit., P. 459.

Maillet : Op. Cit., P. 37.

(٥٦)

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩)

(٦٠)

وقد قضى على بك على نفوذ اليهود في الجمارك ففي عام ١٧٦٩ م أوقف المشرف على جمرك بولاق وشنقه وصادر أمواله وحل محل اليهود في إدارة الجمارك الشوام الكاثوليك وقد كتب القنصل الفرنسي في الاسكندرية عن هذا التغير « لقد انتهى أمر اليهود فقد فقدوا السيطرة على الجمارك » واختفت أسماءهم من سجلات الجمارك (٦١) .

نساء مصر :

أفاض الرحالة في وصف النساء في مصر فقدّموا وصفا موجزا عن نساء المماليك والأتراك وقد أعجب الرحالة بنساء الأتراك فذكر فورمون « انهن على جانب كبير من الجمال فهن من أجمل نساء العالم يتم جلبهن من موسكو وجورجيا ولكنهن لم ينلن أى نصيب من التعليم » (٦٢) . وقد أكد فولنى على ان نساء البكوات على قدر كبير من الجمال كذلك أكدت هذه الحقيقة زوجة ماجالون بحكم اختلاطها وزيارتها لنساء المماليك (٦٣) .

أما دانتريج فقد كتب عن مقاييس الجمال بالنسبة للمرأة من وجهة نظر الأتراك والمماليك « فلا بد أن تكون المرأة بيضاء سمينة » ولذلك تكثر في أقوال المصريين « بيضاء سمينة وجهها كالقمر » (٦٤) وأكد فولنى هذه الحقيقة فذكر ان العامة يرددون في أمثالهم « خذ البيضاء من أجل عينيها » (٦٥) .

Raymond : Op. Cit., P. 84.

(٦١)

Fourmont : Op. Cit., P. 103.

(٦٢)

Hanotaux : Op. Cit., P. 77.

(٦٣)

Aurlaut : Op. Cit., P. 295.

(٦٤)

(٦٥) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

أما نساء مصر فلم يعجب بهن فولنى « أجسادهن ضعيفة
جلودهن عليها صفرة » فلم ير فولنى فى سيدات مصر
الا « أشباحا جائلة بعباءات فضفاضة ولولا العيون التى تنفذ من
ثقوب البراقع ما فطن المرء الى انوثتهن » (٦٦) ولكن سونينى
انصف المرأة المصرية فذكر أنها « على جانب كبير من الجمال
سواء المسلمات أو المسيحيات يضمن الكحل فى أعينهن ويصبغن
رموشهن ويتزين بالحنة » (٦٧) .

أما القرويات فقد وصفهن أوليفيه « انهن قبيحات يخفين
وجوههن عند رؤية الأجنبى » (٦٨) ، ولكن سافارى خالفه الرأى
فقد وصف القرويات وصفا شاعريا فهن « ممشوقات القوام
يحرصن على الاستحمام فى مياه النيل فتبدو أجسادهن المشوقة
الجدابة ، يدلكنها بطنى النيل واسترسلت جدائل شعورهن على
أكتافهن القمحية الداكنة وبشرتهن التى لفحتها الشمس
الحارقة » (٦٩) . وقد وجد سونينى أن نساء الوجه البحرى
أجمل من نساء الوجه القبلى فوصفهن بأنهن « قبيحات » (٧٠) .

لم يقتصر وصف الرحالة على نساء مصر من الطبقة الحاكمة
والمصريات والقرويات وإنما قدموا وصفا لنساء العوالم فى مصر
فذكر سافارى « للعوالم مجتمع خاص بهن وهن يتقن الغناء
والرقص ولا يوجد احتفال يتم فى مصر دون غناء ورقص العوالم
اللاتى يمتزن بنعومة أجسادهن ، يرقصن على نغمات الطبول

(٦٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ، ص ٧٣ .
Sonnini : Op. Cit., + 1 PP. 292 — 291.

(٦٧)
Olivier : Op. Cit., P. 109.

(٦٨)

(٦٩) ثروت عكاشة : المرجع السابق ، ص ٦٨ .
Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 223.

(٧٠)

ينشدن الأشعار والمواويل حتى الأتراك أعداء كل الفنون يجدون متعة في الاستماع الى الغناء ورقص العوالم ولا بد من تواجد العالمة في حفلات الزفاف حيث تسير امام العروس مع ايقاعات الموسيقى « (٧١) » .

وقد كتب علماء الحملة الفرنسية نفس الملاحظات « تتعلم الفتيات اللاتي يعددن كى يصبحن « عوالم » منذ نعومة اظفارهن والعوالم في مصر هن بهجة الأعياد » (٧٢) .

وقد اهتم الرحالة بوصف ملابس النساء خاصة نساء الماليك اللاتي يحرصن على ارتداء الملابس الثمينة وتفوق ملابسهن ملابس القرويات فخامة وجمالا واناقة (٧٣) فملابسهن مزينة بالذهب وتفوق تكاليف ملابسهن ملابس المرأة في فرنسا ثلاث مرات أو اضعاف (٧٤) .

ويختلف حجم نساء مصر عن حجم الفرنسيات فنساء مصر اكبر حجما وهن يتصفن بالفيرة الشديدة على الأزواج خاصة في الوجه القبلى فلو تزوج رجل امرأة اخرى فان زوجته تدس له السم ببطء وتترك زوجها يتعذب لمدة عام حتى يسقط شعر رأسه ولحيته واسنانه وهى تراقبه في غل وشماته حتى يموت مسموما (٧٥) .

وتلقب المرأة بست أو هانم أو باسم ابنها ولا يمكن أن يناديها أحد باسمها وهى جريصة على تربية اولادها وتستمر في

Savary : Op. Cit., + 1 PP. 149 — 155.

(٧١)

(٧٢) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٩٢ .

Fourmont : Op. Cit., P. 100.

(٧٣)

Maillet : Op. Cit., P. 12.

(٧٤)

Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 24.

(٧٥)

أرضاعهم لمدة عامين حسب شريعة محمد ولو عجزت المرأة عن أرضاع طفلها فإنها تستدعى مرضعة وتعامل مثل ربة المنزل وإذا عجزت المرأة عن الانجاب فإنها تهدي زوجها جارية فإذا ولدت له ولدا فإن التي تتولى تنشئته هي الزوجة الأولى (٧٦) .

كان من الطبيعي أن يلمس الرحالة الفارق بين الفرنسيات ونساء مصر خاصة وأن الشرق عرف عنه المحافظة على فضيلة النساء وقد أعجب ميليه بغيرة الشرقي على نسائه فكتب « يراعى الشرقيون التقاليد أكثر منا ويعرفون الفضيلة والطهر أكثر من الغرب » (٧٧) وأكد لوكان « أن المرأة لا تخرج إلا للضرورة أو إلى الحمام أو زيارة صديقاتها » فكتب لوكان « أننا نادرا ما نقابل النساء في الطرقات » (٧٨) .

وإذا خرجت نساء الممالك أو الأتراك للزيارة فلا بد أن يصحبها الجنود الانكشارية يسرون أمامها بينما يتبعها العبيد والجواري طوال الطريق متمنين لها الصحبة السعيدة والتوفيق (٧٩) .

وأسهب سافاري في وصف مجالس النساء فالمرأة عند زيارتها لصديقتها تستقبلها المضيضة بعبارات الترحاب. مثل طال انتظارنا لك ، تسعدنا رؤيتك ، ازدان المنزل بحضورك ثم يقدم المبيد القهوة وتجلس النساء على الكنبه حيث تقدم لهن الفواكه من البرتقال والشمام والموز ثم يفسلن أيديهن في طبق صغير من

Fourmont : Op. Cit., P. 111

(٧٦)

Maillet : Op. Cit., P. 106.

(٧٧)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 75.

(٧٨)

Fourmont : Op. Cit., P. 104.

(٧٩)

الفضة به ماء معطر ثم ترقص الجوارى تحية للضيافة وعند انتهاء الزيارة يتم تبادل عبارات وصفها سافارى بأنها عبارات لطيفة تنم عن الود مثل الله يحفظك ويحفظ اولادك ، وطوال فترة الزيارة يمنع الرجال من دخول الغرفة (٨٠) . ويسمح للنساء بالتنزه في النيل وتخصص لهن المراكب المفلقة المزينة ويصعدن في المساء على سطح المركب للاستمتاع بالهواء المنعش وكتب سافارى « ان اقصى ما تتمناه المرأة هو نزهة على ظهر مركب او جولة تحت اشجار البرتقال » (٨١) .

وبينما أعجب سافارى بطريقة حياة المرأة في مصر الا ان معظم الرحالة انتقدوا وضع المرأة فذكر سونيني ان النساء في الشرق مظلومات وهن اسرى الرجال ، ولا توجد عاطفة ولا علاقة قوية بين الأزواج (٨٢) كذلك كتب ميليه ان النساء في مصر مجبورات على الزواج ليس لديهن فرصة اختيار الزواج كما في فرنسا والعلاقة الزوجية اجبارية ولكن ميليه أعجب بطهارة الفتاة في مصر ومحافظةها على سمعتها وشرفها (٨٣) .

وأخيرا عند ختام الحديث عما ذكره الرحالة عن النساء سنورد بعض القصص التى رواها مؤكدين بانها حقيقية ذكر سافارى قصة حب بين فتاة من جورجيا عمرها ستة عشر عاما تزوجت كهلا يكبرها فى السن ثم أحبت أحد الأوروبيين وتكررت لقاءاتهما وكلما امتنع الأوروبى عن الحضور أرسلت له الفتاة العبيد يهددونه وقد أفاض سافارى فى الحديث عن لقاءات الفتاة

Savary : Op. Cit., + 1 PP. 168 — 170.

(٨٠)

Ibid : PP. 171 ... 173.

(٨١)

Sonnini : Op. Cit., + 1 PP. 292 — 294.

(٨٢)

Mallet : Op. Cit., P. 133.

(٨٣)

بالأوروبي بشاعرية وكأنه يكتب قصة أو رواية « تكررت لقاءاتهما تحت ضوء القمر وورائه البرتقال يعبق الجو » (٨٤) .

كذلك سجل ميليه بعض الروايات التي سمعها خلال تواجده في مصر فكتب عن قصة حب بين حسن وفاطمة واستهل ميليه حديثه بأن الحب في فرنسا له طابع الرقة والحنان أما في آسيا وخاصة الأتراك فهم لا يعرفون هذه المشاعر وقص ميليه قصة حسن كخيا العزب في القاهرة الذي تزوج من فاطمة ابنة سيده كامل كخيا ورغم جمال فاطمة وعراقة نسبها إلا أن حسن أحب جميلة جاريتها والتي تفنن في اختلاق المعاذير لرؤيتها والالتقاء بها ولكن الجارية كانت تحب أحد المماليك المجلوبين من بولندا فأخبرت سيدتها فعملت فاطمة على أن تبين في مخدع جميلة كل ليلة بينما زوجها حسن يعتقد أنه يلتقي بجميلة ، كان في حقيقة الأمر لا يلتقي إلا بزوجته ثم انكشف الأمر في النهاية وسمح حسن للجارية في النهاية بالزواج من المملوك البولندي . أما ميليه فقد علل السبب في تصرف حسن أنه لم يحب فاطمة عند الزواج وإنما أجبر على الزواج منها لأن التقاليد تفرض عليه الزواج من ابنة سيده (٨٥) .

كذلك قص ميليه قصة مولاي حسن وكان أميرا في إحدى مناطق البحر الأحمر كتب ميليه أن هذه القصة اختلطت فيها العواطف أحب مع البخل مع الطمع والجشع فمولاي حسن حكم منطقة عند سلاسل جبال البحر الأحمر وكان محبوبا من سكان هذه المناطق محترما بين الأمراء العرب المجاورين له تقاسموا حكم مصر العليا واتخذوه رئيسا لهم واستشاروه في كل صغيرة

Savary : Op. Cit., + 1 P. 173.

(٨٤)

Maillet : Op. Cit., PP. 118 — 120.

(٨٥)

وكبيرة وعندما قامت الحرب الفارسية شارك فيها وقدره رجال الدولة العثمانية لشجاعته في الحرب وكان يمتلك منجما للزمرد فطمع فيه اغا الأتراك فشكى حسن الى الباشا في مصر الذي اراد التخلص منه واخذ يدبر له المكائد لدى الباب العالي فطلب السلطان استدعاء مولاى حسن الى القاهرة فحضر ومعه زوجته وتحدث الناس عن جمالها للباشا واخبروه ان حسن يمتلك كنزين الاول زوجته والثاني منجم الزمرد ولذلك صمم الباشا على التخلص منه وارسل الحملات الى المنطقة التى يقيم فيها حسن حتى تم اسره والقاء القبض عليه وسيق الى القاهرة ومعه زوجته للمرة الثانية وحاول حسن قتل الباشا ولكن رجاله منعوه وقتلوه أما زوجة حسن فقد أسرع بتناول السم بعد أن علمت بمقتل زوجها وهكذا عجز الباشا عن أن يحقق اغراضه فلم يظفر بزوجة حسن ، كذلك لم يعرف مكان مناجم الزمرد لأن حسن قتل قبل أن يخبره بها (٨٦) .

الجالية الفرنسية

كان من الطبيعي أن يهتم الرحالة الفرنسيون بتسجيل وتدوين أحوال الجالية الفرنسية بأسهاب شديد خاصة وان اسكالة مصر كانت من أهم اسكالات الشرق وقد مثل التجار الفرنسيون الغالبية العظمى من الجالية الفرنسية .

وقد شهد القرن السابع عشر اهتماما كبيرا من قبل الحكومة الفرنسية لتنظيم اسكالات الشرق بصفة عامة واسكالة مصر بصفة خاصة فقد ظلت هذه الاسكالات منفصلة عن ملوك فرنسا مما أدى الى انتشار الفوضى لضعف الرقابة على القناصل الذين انحصر اهتمامهم في البحث عن الثروة ولذلك بدأ كولبير سلسلة من الاصلاحات لتنظيم الاسكالات وكان من نتائج هذه الاصلاحات ان أصبح القناصل موظفين ملكيين يتبعون الملك وهو الذى يعينهم بعد أخذ رأى غرفة تجارة مارسيليا ومحافظ بروفانس وحرّم عليهم الاشغال بالتجارة وقدّرت لهم رواتب

ثابتة (٨٧) . وقد أنفرد الرحالة الفرنسي كوبان في القرن السابع عشر باعطائنا صورة للمنازعات بين القناصل في اسكالة مصر (٨٨) .

وفي القرن الثامن عشر استمر الاهتمام بتنظيم اسكالات الشرق فصدر أمر في ٢ نوفمبر عام ١٧٠٠ م بمنع سفر أى تاجر الى الشرق اذا كان سنه يقل عن ٢٥ سنة ، كذلك ألزم كل فرنسى يريد العمل بالتجارة أن يحصل على شهادة واذن من السلطات اما بالنسبة للقناصل فقد ألزموا بتقديم التقارير الى غرفة تجارة مارسيليا عن الفرنسيين المقيمين في الشرق (٨٩) . ويرجع الفضل الى لويس الرابع عشر في تنظيم الاسكالات وادارة القنصليات وتلك الاصلاحات التى قام بها كل من وزير البحرية موروبا والسفير الفرنسى في استانبول فيلينيوف حتى أن المؤرخ الفرنسى ماسنون أطلق على هذه الاصلاحات نظام موروبا - فيلينيوف . وقد حرمت هذه الاصلاحات على التجار عام ١٧٢٣ م الزواج من نساء البلاد التى يعطون فيها وذلك « لأن أولادهم لابد وأن يتبعوا فرنسا » كذلك صدر أمر ملكى في ٢٠ يوليو

(٨٧) أسس مجلس التجارة عام ١٦٦٤ م ثم جعل لغرفة تجارة مارسيليا كيانا مستقلا يشرف عليها ثلاثة قناصل وأربعة أعضاء من التجار وثمانية مستشارين وألزم الغرفة بالاجتماع يومين اسبوعيا لدراسة كل ما يتعلق بالتجار ثم أصبح لزاما على أى تاجر يريد التجارة في الشرق أن ينتمى لغرفة تجارة مارسيليا ليتمتع بها ولحصة تمكنه من مراوطة نشاطه والتمتع بحصيلة دولته ويجب الا يقل سنه عن أربعة وعشرين عاما وكانت الغرفة تدفع للقناصل رواتبهم وهم مسئولون أمام السفير الفرنسى في استانبول ، وفي عام ١٦٨١ م أصدرت وزارة البحرية الفرنسية تنظيما للأسكالات وأعطت القناصل حق ترخيص أى مواطن بسببه سوء سلوكه ، كذلك أعطته الحق في إصدار الأحكام القضائية ومنعته من الاستدانة باسم فرنسا .

(٨٨) الهام ذهنى : المرجع السابق ، ص ٤١ ، ص ٤٥ .
(٨٩) Clement : Op. Cit., P. 133.

عام ١٧٢٦ م بمنع النساء من التواجد في الاسكالات وامتد هذا المنع ليشمل التجار المزوجين فتمنعوا من انحضار زوجاتهم او بناتهم الى الشرق كذلك منع التجار من الزواج من نساء الاقباط في مصر فكتب نائب القنصل في رشيد في ٢٠ مارس عام ١٧٢٨ م « ان النساء هن النساء في كل مكان لا تختلفن ان الشرق ليس للنساء والتجارة لا تحتاج تواجدهن » كذلك حدث فترة تواجد وعمل التاجر في الاسكالة بعشر سنوات بمقتضى امر صدر عام ١٧٣١ م ثم زيد الى خمسة عشر عاما ووركل الى القنصل اعادة ارسال التاجر الذي يقضى مدته في الشرق وكانت هذه المهمة من اضعف المهام لأن كثيرا من التجار رفضوا العودة الى فرنسا فكتب الوزير موروبا الى غرفة تجارة مارسيليا ينتقد عدم عودة التجار في الموعد المحدد (٩٠) .

استمرت اشرف الدولة في ادارة اسكالات الشرق حتى قيام الثورة الفرنسية فارتبكت احوال الاسكالات وفي عام ١٧٩١ م صدر قانون بالغاء عمل غرفة تجارة مارسيليا (٩١) .

عمل في اسكالة مصر القنصل الفرنسي ومقره في القاهرة اما نوابه فقد اقاموا في كل من رشيد ، دمياط ، الاسكندرية وقد عاونهم المترجمون والقضاة والاطباء وجموعة من رجال الدين « اطلق عليهم جنود القنصلية » وكانت مهمتهم الرئيسية هي العمل على الاشراف على التجار الفرنسيين وقد اختلفت العلاقة بين هؤلاء التجار والقنصل فاحيانا يسود الود والتفاهم بين الطرفين ، واحيانا تتأزم العلاقات بينهما ويقدم كل طرف الشكاوى ضد الطرف الآخر فعلى سبيل المثال تأزمت العلاقة بين القنصل

Ibid, : P. 134.

(٩٠)

Roux : Op. Cit., P. 242.

(٩١)

الفرنسي ميليه والتجار الفرنسيين لأنه أراد تنظيم التجارة فأطلقوا عليه (عدو البروفانسيين) وقدموا العديد من الشكاوى ضده واتهموه بالاتجار في النبيذ وفي البن واضطر الوزير الفرنسي بونشتران في عام ١٧٠٦ م الى ارسال لجنة لتقصي الحقائق أو الحقيقة ولكن التحقيق جاء في صالح ميليه ورغم ذلك تم ابعاده من مصر « فظل التجار يرقصون طوال الليل ابتهاجا برحيله » (٩٢) .

استمر التجار الفرنسيون في معارضة أوامر الملك فكان القناصل يقدمون بدورهم الشكاوى ضد هؤلاء التجار فقد قدم القنصل بليرون (١٧٠٧ - ١٧١١) الشكاوى ضد التجار لعدم التزامهم بتنفيذ الأوامر ، كذلك دخل القنصل بينون عام ١٧٣٠ م في صراع مع التجار وطلب ترحيل التجار الذين يتعاملون مع اليهود ولكن غرفة تجارة مارسيليا اتهمته بالقسوة فدافع عنه الوزير موروبا « ان الهدف هو صالح التجارة ولا مجال للمواطف » (٩٣) .

عاون القنصل نوابه في المدن المصرية الهامة كذلك المترجمين وكان لوظيفة المترجم أهمية كبيرة فهو الوسيط بين الفرنسيين والسلطات المحلية خاصة الباشا وكبار الشخصيات من البكوات الأوجاق ، وقد تخرجت أعداد كبيرة من المترجمين من مدرسة اطفال اللغات في بيرا حيث كان الطفل يتعلم في الأديرة اللغات الشرقية على يد رجال الدين الكابوسيين خاصة العربية والتركية واليونانية والإيطالية (٩٤) .

Ibid, : P. 89.

(٩٢)

Hanotaux : Op. Cit., 198.

(٩٣)

(٩٤) الهام ذهني : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

وجدير بالذكر ان الجزويت تقدموا بطلب الى الملك لويس الرابع عشر لاقامة مدرسة للغات في مارسيليا على غرار مدرسة بيرا وذلك لتعليم الأطفال اليونانية والأرمنية والسريانية لكي يكونوا مؤهلين للذهاب الى الشرق ونشر النفوذ الفرنسى ، ثم ازداد الحماس لإنشاء مدرسة لتعليم اللغات في كلية لوس لى جران عندما انشأ البريطانيون في اكسفورد مدرسة لتعليم الأطفال اللغات فكتب الوزير الفرنسى بونشتران في ٣١ مارس ١٧٠٠ م الى غرفة تجارة مارسيليا بان الملك علم بتأسيس مدرسة للغات الشرقية في اكسفورد وان خريجى هذه المدرسة سوف يتم ارسالهم الى الشرق لنشر المذهب الانجليكانى ولذلك قرر لويس الرابع عشر احضار اثنى طفلا من الأرمن واليونانيين والأقباط لتلقى تعليمهم في كلية لوى لى جران ليكونوا نواة للبعثات التنصيرية ويعملون على خدمة القناصل والتجار في اسكالات الشرق ثم صدر مرسوم في ٢٠ يوليو ١٧٢١ م بدنع أى طالب من الالتحاق بمدرسة بيرا الا اذا تعلم في كلية لوى لى جران وقد تخرج من هذه الكلية بالفعل معظم المترجمين الذين عملوا في الشرق (٩٥) .

وقد افادت فرنسا بالفعل من هؤلاء المترجمين في الشرق افادت منهم في ترجمة تراث الشرق ولعت اسماء العديد منهم الذين اهتموا بالاستشراق منهم فين Jean Baptiste De Fiennes الذى تلقى تعليمه في بيرا ثم عمل في كلية فرنسا ، وبيرا ارمان Pierre Armain الذى مكث في بيرا في الفترة من عام ١٧٠٦ م حتى عام ١٧١٢ م ونقل العديد من المؤلفات التركية والعربية الى المكتبة الوطنية في باريس ، وبينون Pignon .

الذى عمل في مكتبة ملك فرنسا ثم عمل أستاذا للغة العربية والتركية والفارسية في كلية لوى دى جران عام ١٧٥٢ م كذلك عمل ايشيان لى جران Brienne Le Grand مترجما في الاسكندرية ثم في القاهرة عام ١٧٤٥ م وترجم العديد من المؤلفات وقد مكث في اسكالات الشرق حوالى أربعة وثلاثين عاما عمل خلالها في مصر وطرابلس وحلب واستانبول ثم عين بعد عودته سكرتيرا للملك ثم استأذا الفات الشرقية في كلية لوى لى جران واشتهر بانه من أكثر علماء أوروبا علما في اللغات الشرقية (٩٦) .

ومن الاسماء التي لمست دنيس جوردون Denis Dominique Gordonne الذى عمل مترجما في القاهرة عام ١٧٥٤ م ثم عين أستاذا للغات الشرقية في كلية لوى دى جران وفي عام ١٧٦٠ م عين أستاذا للفارسية والتركية وقد ترك عدة مؤلفات عن تاريخ افريقيا ، وتاريخ اسبانيا تحت الحكم العربى (٩٧) .

أما جيلى Gilly فقد عمل في اسكالات الشرق لمدة عشرين عاما وفي عام ١٧٦٩ ترك مصر بسبب تخوفه من على بك وعمل أستاذا للغات الشرقية في مدرسة اللغات في كلية لوى لى جران (٩٨) .

ولم تقتصر اهتمامات المترجمين على الاستشراق وترجمة المؤلفات العربية وإنما أهتم البعض منهم بالموسيقى الشرقية مثل شارل فونتون Charles Fonton الذى عمل مترجما

Hanotaux : Op. Cit., P. 175.

(٩٦)

Ibid., P. 74.

(٩٧)

Clement : Op. Cit. P. 140.

(٩٨)

في القاهرة ثم عمل استاذا للغات الشرقية في باريس وترك مؤلفا
عن الموسيقى الشرقية (٩٩) .

ولعب المترجم ديجون Digeon دورا هاما في مصر فلم
يقتصر عمله على الوساطة بين القنصل وكبار الشخصيات وإنما
أفاد منه بونايرت عندما أرسلت للحملة الفرنسية على مصر لائقته
اللغة العربية ومعرفة الوثيقة بأحوال مصر بصفة خاصة والشرق
بصفة عامة (١٠٠) .

ولقد شعر المترجمون بأهميتهم فعملوا على تقوية علاقاتهم
بالسلطات المحلية فتعاضدوا تقوذهم حتى أنهم تناولوا على القناصل
فشكا القنصل داميرا في عام ١٧٣٩ م « ان المترجمين لا يشتغرون
ان القناصل رؤسناؤهم » (١٠١) .

لا نستطيع التعرف على حياة الفرنسيين في مصر إلا من
خلال التقارير ورسائل القناصل الفرنسيين الى غرفة تجارة
مارسيليا ، كذلك من كتابات الرحالة خاصة وأنهم افاضوا في
القرن الثامن عشر في وصف أحوال الجالية الفرنسية في مصر وأن
كنا لا نخفى أن رحالة القرن السابع عشر تحدثوا عن الفرنسيين
في مصر خاصة كوبان الذي عمل نائب قنصل في دمياط والقى
الضوء على الخلافات والمنازعات بين القناصل الفرنسيين
ومنافسيهم .

واللاحظ في كتابات القرن الثامن عشر ان أعداد الفرنسيين
لم تتزايد عما كانت عليه في القرن السابع عشر فلم يغيروا نمط

Ibid, : P. 141.

Hanotaux: Op. Cit., P. 174.

Ibid, : P. 165.

Clemeliff : Op. Cit., P. 145.

(٩٩)

(١٠٠)

(١٠١)

(١٠٢)

حياتهم فنجدهم في القرن الثامن عشر يسكنون نفس الأحياء التي كانت مخصصة لهم في مدن مصر ، في القاهرة ، رشيد ، والإسكندرية وقد أطلق الكتاب الفرنسيون على الفرنسيين في مصر اسم الأمة Nation باعتبار أنهم يمثلون فرنسا فلم تخل كتابات الرحالة من هذا اللفظ (١٠٢) .

إذا فندنا ما ذكره الرحالة عن الجالية الفرنسية فلا بد أن نستهل حديثنا عن الحي الذي سكن فيه الفرنسيون فالحي الفرنسي وقع في القاهرة الجديدة أي أنه ليس في مصر القديمة وهو يقع بين الخليج وحديقة قريبة من الأزبكية وقد قدم لنا القنصل ميليه عام ١٦٩٧ م وصفا للحي الفرنسي « أنه في شارع سييء مؤلف من عدة منازل سيئة وهي تشبه الفجوات والكهوف ، ولا يختلف منزل القنصل عنها » وطالب ميليه باستغلال المساحات الخالية في الحي لبناء أكثر من ثلاثين منزلا ، وعقد ميليه مقارنة بين منزل القنصل الفرنسي ومنزل قنصل البندقية فكتب في حسرة « يعتبر منزله قصرا بجانب منزل القنصل الفرنسي » (١٠٣) .

ورغم امتعاض ميليه عند وصفه الحي إلا أننا نجد أن الرحالة الفرنسي لوكا الذي زار مصر في فترة لاحقة اختلف في وصفه عن ميليه مما يؤكد أن منازل الحي تم تجديدها فقد كتب لوكا « منازل التجار مريحة ومنزل القنصل أعظم وأكبر وأضخم المنازل مدخله جميل والحي به عدة محلات لتخزين الأخشاب ومنزل القنصل به عدة حجرات مفروشة بأثاث فاخر وفيه حجرة خصصت لاستقبال الأتراك وحجرة ثانية لاستقبال التجار وختم

لوكا حديثه لقد شمرت بالسعادة لأن الفرنسيين يشعرون
بالسعادة في مصر » (١٠٤) .

وقد أفاد القناصل من توثيق الصلات مع السلطات الحاكمة
للحصول على امتيازات لأبناء الجالية الفرنسية فأفاد القنصل
لى مير من صلاته القوية مع ضباط الوجاق لتجديد الحى فكتب
فى عام ١٧٢٠ م لقد تمكنت من إعادة بناء الحائط الذى يفصل
الحى عن أحياء المسلمين وتمكنت من إنشاء باب من الخشب
لحماية الحى (١٠٥) .

والواقع أن القناصل الفرنسيين تمتعوا بتعزيد أوجاق
الانكشارية فى نظير « جعل » معين (١٠٦) .

قدم سونينى وصفا للحى فيه « أبواب تفلق على الفرنسيين
والمبانى المقامة داخله على شكل مربع » (١٠٧) ، وأكد فورمون أن
الحى لا يحتوى على منزل القنصل والتجار الفرنسيين فحسب
وانما كان هناك مبان خصصت للبعثات البابوسية
واليسوعية (١٠٨) .

أما منازل التجار فقد فرشت بأحسن أنواع الأثاث وتكونت
من عدة غرف ومحلات مثل منزل التاجر الفرنسى ديبنى
Despiegues الذى حوى مكتبة ضخمة وكتب متعددة من
بينها مؤلفات الرحالة سافارى ومؤلفات الأدباء الفرنسيين مثل :

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 52. (١٠٤)

Hanotaux : Op. Cit., P. 160. (١٠٥)

(١٠٦) هاملتون : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .
Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 201. (١٠٧)

Fourmont : Op. Cit., P. 94. (١٠٨)

راسين وبانيسكال ولافونتين الى جانب العديد من المؤلفات التاريخية والدينية والموسوعات والقواميس (١٠٩) .

ومن الطرائف التي كتبها القنصل ان القنصل لى مير تقدم بشكوى الى السلطات المحلية بشأن وجود باب في منزله عليه كتابات باللغة العربية علم بعد الاستفسار عنها بأنها تحوى دعاء ضد ساكنى الحى من الفرنسيين فعمل لى مير على التخلص من هذا الباب (١١٠) .

وعلى الرغم مما كتبه الرحالة عن فخامة منازل التجار الفرنسيين والقنصل الا انهم اشاروا الى بعض المتاعب التي تعرض لها الحى بحكم قربهم من الخليج مما عكر صفو اقامتهم فكتب القنصل ليرنكور في عام ١٧٤٨ م يشكو من ان الفرنسيين يعانون بسبب الروائح الكريهة التي تنبعث من الخليج خاصة في شهر أغسطس عندما ترتفع مياه النيل فلا توجد رائحة أسوء من رائحة الخليج ولا بد للفرنسيين من تغيير مكان اقامتهم بعيدا عن هذا الحى بسبب الروائح الكريهة (١١١) .

لم يختلف الحى الفرنسى في الاسكندرية ورشيد عن القاهرة وقد ذكر سبونجنى ان الحى الفرنسى في الاسكندرية كان قريبا من البحر عند الميناء الجديد وهو بناء مربع مغلق من كل الجهات بداخله فناء وحوله الوكالات (١١٢) .

Clement : Op. Cit., PP. 152 — 153.

(١٠٩)

Ibid, : P. 152.

(١١٠)

Hanotaux : Op. Cit., P. 161.

(١١١)

Sonnini : Op. Cit., + 1. P. 107.

(١١٢)

أما في رشيد فقد أشرك في الأمانة مع الفرنسيين جاليات أخرى مثل اليونانيين ويبدو أن الفرنسيين لم تطب لهم الإقامة في الحي المخصص لهم في رشيد فتقدم نائب القنصل بشكوى عام ١٧٥٠ م من سوء حال الوكالة وأزدحامها بالحيوانات والآجانب اليونانيين واليهود الذين يغدون عليها وأراد نائب القنصل حل المشكلة عن طريق تأجير المكان كله لصالح الفرنسيين أو بناء وكالة خاصة بالفرنسيين فقط (١١٢) .

أما عن أعداد الفرنسيين فقد وجد أن الجالية الفرنسية معظم أفرادها من التجار القادمين من بروفانس وليفوزن وقد وجد من بينهم الأطباء فذكر القنصل ميليه أن رامي باشا كان يعالجه ويعمل لديه طبيب فرنسي من راجوز ، كذلك كتب داميرا عام ١٧٦٢ م أن محمد باشا له طبيب فرنسي وحمزة باشا له طبيب من البندقية يدعى بمبيني Bimbini وعند مجيء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م وجدت طبيبا فرنسيا من الأناضول مقيما في القاهرة يعمل لدى البكوات ، كذلك عمل الأطباء الفرنسيون لدى بكوات مصر مع علي بك ومحمد أبي الذهب وحسن بك كشكش (١١٤) .

وفي عام ١٧١١ م احصى القنصل عدد الفرنسيين في القاهرة فوجد أن عددهم ٢٣ تاجرا وثمانية صناع وطبيين وفي منتصفت القرن الثامن عشر بلغ عدد الفرنسيين في القاهرة ٢٨ فرنسيسيا منهم الطباط والتجار والحرفيين وفي الاسكندرية ستة عشر وفي رشيد سبعة أي أن إجمالي عدد الفرنسيين ٥١ فرنسيسيا (١١٥) .

Clement : Op. Cit., P. 156.

Hanotaux : Op. Cit., P. 82.

Roux : Op. Cit., P. 7.

(١١٢)

(١١٥)

شارك الفرنسيون بلدهم في الاحتفالات وفي الانتصارات ففي عام ١٧١٣ م كتب القنصل الفرنسي مهنثا وزير البحرية بانتصارات فرنسا في فليسبورج « احتفلنا وأنشدنا الأناشيد الوطنية » وفي عام ١٧١٣ م كتب بونشتران الى القنصل « أعلم أنكم أنشدتم تسبيحة الشكر لعقد الصلح بين هولندا وبريطانيا كذلك شارك الفرنسيون بلدهم في أحزانها خاصة عند وفاة لويس الرابع عشر فارقدى التجار الفرنسيون السواد وأقاموا القداس في الكنيسة . كذلك شارك الفرنسيون الدولة العثمانية في انتصاراتها وشاركوا المصريين في الاحتفالات بالأعياد والمناسبات الهامة مثل وصول الباشا الجديد والاحتفال بوفاء النيل ، ورحيل القافلة الى مكة » (١١٦) .

واذا كان هناك مراسم لاستقبال الباشا الجديد فان هناك ايضا مراسم لاستقبال القنصل الجديد ولئذع ميليه يصف طريقة استقباله « عند وصولي الاسكندرية جاء القاضي وثلاثة من التجار لاستقبالي على ظهر المركب وهناوني بسلامة الوصول ، ثم جاء الفرنسيون لاستقبالي واصطحبوني الى الشاطئ وعند نزولي من السفينة اطلقت ١٩ طلقة مدفع تحية لي واستقبلني على البر مدير الديوان ويدعى شلبي اغا الاسكندرية واصطحبني الصوباشي والكخيا والقاضي وأطلق الانكشارية الهتافات لي وسرت وسط الناس الى ديوان الأغا يتبعني الفرنسيون ، واجلسني اغا الاسكندرية بجواره وشربت الماء الأسود (القهوة) ثم غسلت يدي في صحن به ماء معطر ثم عطروني وأهداني الأغا قطعة قماش غالية الثمن وحصانا ليقلني الى منزل القنصلية وسرت بصحبة الانكشارية » (١١٧) .

Clement : Op. Cit., P. 160.

(١١٦)

Mallet : Op. Cit., PP. 5 — 6.

(١١٧)

متاعب الفرنسيين في مصر :

لخص الرحالة والقناصل الفرنسيون أهم المصاعب التي تواجه الفرنسيين في مصر على النحو التالي :

— شانى الفرنسيون من الطقس والحرارة الشديدة مما أدى الى اصابة الكثيرين منهم بالحمى خاصة في شهر أغسطس فكتب القنصل الفرنسي في عام ١٧٥٣ م « انتشرت الحمى بسبب حرارة الجو في هذا الشهر وتوفى عدد من التجار » وللتغلب على هذه المشكلة كان القنصل ينقل مقر اقامته الى الاسكندرية في فصل الصيف (١٧٨) .

— شكوا الفرنسيون من انتشار الأوبئة والمجاعات وانخفاض مياه النيل وقد تعجب فولنى من رغبة الأجانب في الإقامة في مصر رغم ما بها من أوبئة وأمراض « أن مصر لها سحر لا يقاوم على الأجانب الذين يسكنون فيها (١١٩) .

— اجبار السلطات المحلية الفرنسيين على ارتداء ملابس معينة وتعجب الفرنسيون من اصرار السلطات التركية على منعهم من ارتداء القبعات والشعر المستعار واللون الأبيض فشكا ميليه الى السفير الفرنسي في الآستانة من منع الفرنسيين من وضع غطاء رأس لونه أبيض (١٢٠) فكتب محتجا « من الصعب على الفرنسيين في مصر ارتداء القبعات والشعر المستعار مثلما يفعل الفرنسيون في استانبول والا تعرضوا للاهانات » وقد انتقد الرحالة الفرنسي دانتريج الفرنسيين الذين يقلدون المسلمين في

Clement : Op. Cit., P. 65.

(١١٨)

(١١٩) فولنى : المرجع السابق .

Maillet : Op. Cit. P. 7.

(١٢٠)

ارتداء الملابس الشرقية وعاب عليهم ذلك (١٢١) بينما ذكر سونيني انه في الاسكندرية يسمح للفرنسيين بارتداء الملابس العادية اما في القاهرة فلا بد من ارتداء الملابس الشرقية ، كذلك ذكر انهم لا يستطيعون ارتداء الملابس الخضراء لأنها مختصة للاشراف وانتقد سكان القاهرة ووصفهم بانهم برابرة واكثر شراسة من غيرهم لأنهم يجبرون الأجانب على ارتداء ملابس معينة (١٢٢) .

— منعت السلطات المحلية الفرنسيين من ركوب الخيول وذكر دانتريج انه سمح للفرنسيين بركوب الحمير فقط وكلمة من أحد المماليك كان لابد من النزول من على ظهر الحمير وذكر حادثة تعرض لها أحد التجار الفرنسيين فقد مر على أحد المماليك ونسى أن ينزل من على حماره فتعقبه العبيد وكسروا قدمه (١٢٣) ، ولم يصرح بركوب الخيل الا للقنصل فقط ، وقد فضل القنصل ميليه ركوب الحمير لأنها أنسب لشوارع القاهرة (١٢٤) .

— عداة المصريين للفرنسيين وشعور الفرنسيين بعدم الأمان فقد ذكر ميليه أن أحد عبيد ضباط الانكشارية صفع أحد التجار الفرنسيين فطالب القنصل بضرورة توقيع العقاب على العبيد فوعده الضابط وضربه بالفعل ولكنه مات من اثر الضرب المبرح فتجمع العامة امام منزل القنصل يريدون الانتقام منه واضطر الباشا الى ارسال بعض القوات لاطلاق سراح ميليه وفي مايو عام ١٧٥٠ م كتب القنصل ليرنكور « من النادر أن يعود التاجر من القاهرة الى بلاده دون أن يكون قد تلقى عدة ضربات

Auriant : Op. Cit., P. 283.

(١٢١)

Sonnini : Op. Cit., + 2. P. 305.

(١٢٢)

Auriant : Op. Cit., P. 283.

(١٢٣)

Maillet : Op. Cit., P. 7.

(١٢٤)

بالعصى (١٢٥) ، ولم ينج من الضرب بالعصى حتى كبار الشخصيات «
فقد ذكر سونيني ان المترجم الفرنسي اونسون والذي يعمل في
اكاديمية باريس خلال زيارته لمصر تقدم أحد التجار بشكوى
ضده الى الباشا الذي أمر بضربه بالعصى وانتقد سونيني هذا
التصرف قائلاً « رجل له ذكاؤه وخبرته ودراسته القيمة يضرب
بالعصى » (١٢٦) .

ولم تتركز العقوبات والاهانات التي تعرض لها الفرنسيون
في القاهرة فحسب وانما تعرضوا لها في باقي المدن المصرية ففي
دمياط شكوا نائب القنصل لى نوار لى رول عام ١٧٠١ م بان
شيخا ضريرا قاد مظاهرة أمام منزله وبصحبه عدد من الأطفال
أخذوا يصيحون « لا نريد الفرنسيين في دمياط » واضطر
الفرنسيون الى الاختباء وعدم الخروج لمدة ثلاثة أيام وعند
خروجهم من دمياط عزف الأهالى الموسيقى تعبيرا عن فرحتهم
برحيلهم ولذلك آثر لى نوار عدم استلام منصبه والرحيل من
البلاد (١٢٧) .

— ومن المصاعب التي واجهت الفرنسيين تدخل السلطات
المحلية في شئونهم ففي عام ١٧٤٩ م حذر ابراهيم كخيا القنصل
الفرنسي ليرتكور من تعيين خادم مسلم ولكن سمح له باستخدامه
فيما بعد ذلك بعد أن حصل على موافقة من أحد المشايخ فأخبره
بجواز عمل الخادم لديه ولكن بشرط الا يعمل في المطبخ (١٢٨) .

Clement : Op. Cit., P. 65.

(١٢٥)

Sonnin : Op. Cit., + 1 P. 207.

(١٢٦)

Clement : Op. Cit., PP. 120 — 121.

(١٢٧)

Hanotaux : Op. Cit. P. 176.

(١٢٨)

— لم تقتصر متاعب الفرنسيين في القاهرة على تدخل السلطات المحلية في شئونهم وعلى عداة المصريين لهم وإنما واجهوا العديد من المتاعب بسبب تصرفات الفرنسيين أنفسهم فالقناصل الفرنسيون شكوا دوما من عدم التزام التجار الفرنسيين بالقوانين والأوامر وقد كتب عليه عام ١٧٠٠ م « انني أعلم الحياة المأجنة التي يحياها معظم التجار الفرنسيين » كذلك تقدم بالعديد من الشكاوى ضد التجار ومحاولاتهم للاتصال بالنساء » وكتب في ١٦ ابريل ١٧٠٣ م علمت ان سييدة فرنسية تقوم بارسال الاشارات لبعض نساء البكوات للحضور الى منازل الفرنسيين في يوم الجمعة » كذلك قدم عليه شكوى ضد المترجم فورنتى لانه « اقام العديد من العلاقات النسيائية » ولذلك كان القناصل يخشون من انتقام السلطات المحلية فكانوا يقومون على الفور بترحيل الشخص المشكوك في سلوكه وقد افاض الرحالة والقناصل في ذكر العديد من المخالفات التي ارتكبتها الفرنسيون فقد قام القنصل بيلرون بترحيل الطبيب الفرنسي شاربير لانه اتصل بجارية سوداء عمرها خمسة عشر عاما ، كذلك قام القنصل مور في عام ١٧٨٤ م بطرد التاجر الفرنسي لازار مارتين لاقامته علاقة مع جارية مسلمة (١٢٩) .

وهكذا تدخل القناصل لمراقبة الحياة اليومية للجالية الفرنسية ومراقبة سلوك افرادها وكتبوا العديد من التقارير عنهم وطالبوا بضرورة احترام تقاليد وعادات البلاد والا تعرضوا للمتاعب .

وجدير بالذكر ان ما ذكره القناصل الفرنسيون عن مخالفات الفرنسيين في مصر فيه الكثير من الصحة ففي دراسة اجراها

د. صلاح هريدى عن الجاليات الأوروبية في الاسكندرية في العصر العثمانى وبعد اطلاعه على وثائق المحكمة الشرعية وجد العديد من الشكاوى مقدمة ضد التجار الفرنسيين تذكر منها احتسائهم الخمر ، اعتداءهم على مساكن المسلمين ، سرقة بعض الأوروبيين بعضهم البعض وإشارات الوثائق الى صور الاعتداءات الأخلاقية للفرنسيين والأوروبيين مثل ممارستهم الدعارة وغير ذلك من المخالفات (١٣٠) .

— ومن المتاعب التى أشار اليها القناصل في تقاريرهم هو تعود بعض الفرنسيين على حياة الكسل فقدم بينون في عام ١٧٣٠م تقريراً حوى شكوى ضد المترجم الفرنسى شابسان لأنه لا يعمل بجد (١٣١) ويعمل على إضاعة الوقت « فهو شخص لا قيمة له ولا يريد أن يفعل شيئاً » .

— أضيف الى ذلك منازعات الفرنسيين أنفسهم وبينهم وبين الأوروبيين أيضاً ، فنجد منازعات ومنافسات لا تنتهى بين البعثات التنصيرية خاصة الكابوسينية واليسوعية وبين آباء الإبراضى المقدسية واختلاف هذه البعثات حول مراسم الدفن والزواج وآداء الشعائر الدينية ، كذلك التنافس فيما بينهم على جذب الأقباط المصريين لتحويل مذهبهم الأرثوذكسى الى المذهب الكاثوليكي (١٣٢) .

— لعل من أكبر المصاعب التى تعرضت لها الجالية الفرنسية بالفعل هي عند نشوب الحروب الأهلية والاضطرابات

(١٣٠) انظر صلاح هريدى : الجاليات الأوروبية في الاسكندرية في العصر العثمانى الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ٧١ ، ٧٥ .
Hanotaux : Op. Cit., P. 170. (١٣١)
Clement : Op. Cit., P. 178. (١٣٢)

بين الممالك في القاهرة فكان أعضاء الجالية يضطرون للبقاء في الحي ويمتنعون عن التجول في الشوارع وقد عبر عن ذلك فولني فكتب « أن اسكالة القاهرة أقل اسكالات الشرق استقرارا وأكثرها استنفارا » (١٢٣) .

— عانى التجار الفرنسيون من منافسة اليهود لهم خاصة وأن البعض منهم كانت له صلاته القوية بيهود ليفورن كذلك تحكموا في الجمارك . فقدم القنصل الفرنسي ميليه شكوى ضد المسئول عن الجمارك في الاسكندرية وكان يدعى زافير وذلك لأنه فرض العديد من الغرامات على التجار الفرنسيين وتم استدعاؤه في الديوان ووجه اليه الباشات الاتهامات وتم ترحيله الى الاستانة حيث أعدم .

ويبدو أن زافير أدرك مصيره فأخبر الفرنسيين قبل رحيله « انه يود رؤية رأس ميليه معلقة كذلك رؤوس الفرنسيين ورأس ملك فرنسا » (١٢٤) .

— تزايدت الغرامات والاتاوات المفروضة على الفرنسيين كذلك القروض الاجبارية والهدايا وقد اضطر الفرنسيون الى الاستجابة للسلطات المحلية خوفا على تجارتهم وقد شكوا القنصل الفرنسي جوانفيل من انه بنى بابا للحي الفرنسي فقامت قوات حسن بك بمداومة الحي وأمر على بك بنزعه ولكن بعد تولى القنصل داميرا أغدق الهدايا على بك ليسمح له باعادة وضع الباب للحي فأعفى على بك ساعة مزينة بالماس قيمتها ٣٥٠ سكينى ، وحسن تقارير القناصل كانت الهدايا تقدم سنويا

(١٢٣) فولني : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
Mallet : Op. Cit., P. 57.

(١٢٤)

أعلى بك وغيره من أصحاب القوى والنفوذ فعندما عاد من مكة بلغ مجموع ما قدمه الفرنسيون له من الهدايا أربعة آلاف أبو طاقة وأثناء حروبه في بلاد الشام قدم له الفرنسيون عشرة آلاف قرش ثم استدان بعد ذلك بعدة أشهر خمسة وعشرين ألف أبو طاقة (١٢٥) .

أما في عهد محمد أبي الذهب فقد أفاض القناصل في وصف مطالبية من الفرنسيين كان أغربها طلبه مركبة تجرها الخيول فوق القنصل في حيرة لأنها مكلفة وفي الوقت نفسه خشي من إتيان أبي الذهب من التجار الفرنسيين فتعددت المراسلات والتقارير بين القنصل الفرنسي وغرفة تجارة مارسيليا والحكومة الفرنسية واضطر القنصل الفرنسي داميرا إلى التأكيد في تقاريره على غرفة التجارة على شكل المركبة وحجمها ونوعية الخيول التي تجرها وكيفية تزيينها وأرسل داميرا تعليماته لأبد أن تكون العربية مزودة بأربعة مقاعد مزينة مسموح برسم الورود والفواكه ويحذر رسم الوجوه أو الشخصيات ولابد ألا يقل ثمنها عن أربعة آلاف جنيه وأن تكون المركبة فاخرة ولكن إذا رأت غرفة تجارة مارسيليا أن تشتري عربية قديمة فعليها أن تقوم بتجديدها وإعادة تجهيزها وإعادة دهانها حتى تبدو كالجديدة .

— كذلك كتب داميرا عن نوعية الخيول التي ستجر المركبة فلا بد أن تكون من أصل دانمركي أو الماني كبير الحجم « فكما تعلمون مصر هي بلد الخيول العريقة » (١٢٦) .

Olement : Op. Cit., PP. 213 — 214.

(١٢٥)

(١٢٦) قدم المؤرخ الفرنسي مقالا عن مركبة أبي الذهب ، انظر

Douin : Le Carosse De Mohamed Bey--Bulletin de L'Institut d'Egypte tome 8 Session 1925 — 1926. Le Caire 1926 PP. 170 — 184.

وقد دارت المراسلات بين غرفة تجارة مارسيليا وقصر
فارسي بشأن شراء هذه العربة واستقر الرأي على شرائها
خوفاً على تجارة الفرنسيين ، وفي عام ١٧٧٤ م شكل وزير
البحرية دى بويرن De Boynes لجنة لشراء المركبة التى تجرها
الخيول الأربعة وكتب الوزير الفرنسى سان دينيه الى غرفة
تجارة مارسيليا فى مايو ١٧٧٤ م « من الصعب علينا عدم
الاستجابة لمطالب أبى الذهب دون أن نخشى عواقب ذلك ، فمن
الأفضل أن نضحى ونعمل على اتمام المشروع وقرر الملك
الموافقة على شراء العربة » .

وقامت اللجنة المشكلة بالتجول فى مدن فرنسا خاصة
باريس وافيتيون لشراء المركبة وحرص أعضاء اللجنة على
التدقيق عند اختيارهم الخيول وأكدوا على ضرورة معرفة سلاسلها
وبيتنام الأمور تجرى على قدم وساق فى فرنسا كان التجار
الفرنسيون فى القاهرة يشعرون بالقلق فقد مضت ستة أشهر
ولم يتم إرسال المركبة فكتبوا الى الحكومة يحثونها على سرعة
إرسال المركبة .

وقد تم إرسال المركبة محمولة على ظهور بغال أستوردت
خضياً من مالطة ولكن لم يقدر لأبى الذهب أن ينعم بها فقد
وافته المنية عند وصولها الى ميناء الاسكندرية فأصبحت من
نصيب ابراهيم بك وكتب القنصل مور متحسراً عام ١٧٧٥ م
« لقد آلت المركبة الى ابراهيم بك (١٢٧) وبعد وفاة أبى الذهب
استمر مراد بك وابراهيم بك فى فرض الغرامات على التجار
الفرنسيين رغم توطد العلاقة بين ماجالون التاجر الفرنسى وزوجته

بالممالك وقد أفاد ماجالون من هذه العلاقة لتوطيد النفوذ الفرنسي في البلاد ولعب دور الوساطة بين الممالك والتجار الفرنسيين فقد حدث في عام ١٧٧٥ م أن قدم التجار ساعة هدية إلى مراد بك ويبدو أنه لم يعجب بها فرماها على رأس المترجم الفرنسي ولكن مدام ماجالون أسرعت بمعالجة الموقف وكتب القنصل الفرنسي إلى غرفة تجارة مارسيليا في ١٦ أكتوبر عام ١٧٧٥ م « لقد عالجت مدام ماجالون الموقف لأن لها نفوذا مطلقا على زوجة مراد » وفي اليوم التالي عاد المترجم وقدم لمراد بك هدية أخرى باهظة الثمن مكونة من دبوس مزين بالماس ومنسجحة من اللؤلؤ (١٣٨) .

وجدير بالذكر أن القناصل اعتادوا ذكر الهدايا المقدمة إلى البكوات وكبار الشخصيات في تقاريرهم السنوية ففي عام ١٧٧٦ م كتب القنصل الفرنسي إلى غرفة تجارة مارسيليا « قدمنا هذا العام لأبراهيم بك عدة متاعات وخنجرا مزينًا بالماس ثمنه عشرة آلاف أبو طاقة » وفي عام ١٧٧٧ م كتب مور « بلغت قيمة الهدايا المقدمة إلى إبراهيم بك هذا العام ٣٣٣٤ أبو طاقة » (١٣٩) .

وقد ساء أوليفيه أن يقدم التجار الفرنسيون هذه الهدايا الثمينة إلى الممالك فكتب « لقد ساءت العلاقة بين الممالك والتجار الفرنسيين » رغم محاولات القناصل التقريب بين الطرفين لقد قدم التجار الفرنسيون « التضحيات » من الأموال والهدايا للحصول على الأمن والحماية ولكن رغم ذلك لم يتوقف الممالك عن فرض الغرامات وطلب المزيد من الهدايا (١٤٠) .

Clement : Op. Cit., P. 229.

(١٣٨)

Ibid, : P. 229.

(١٣٩)

Olivier : Op. Cit., PP. 200 — 201.

(١٤٠)

وعندما جاءت حملة حسن باشا الى مصر عام ١٧٨٦ م
اعتقد الفرنسيون انهم سيحصلون على الحماية من الباب العالي
فأسرعوا بتقديم الهدايا الثمينة الى قائد الحملة كما ذكر أوليفيه
ولكن حسن باشا لجأ بدوره الى فرض الغرامات على الفرنسيين
فأصيبوا بخيبة الأمل (١٤١) .

ولكن سرعان ما انتعش الأمل في نفوس التجار الفرنسيين
بعد تعاظم نفوذ اسماعيل بك وفرار مراد وابراهيم بك فعملوا
على تقوية صلاتهم به فطلب اسماعيل بك من وزير البحرية
دي لوزرن امداده ببعض الصناعات الفرنسية وضباط من المدفعية
لتعليم قواته ، واراد اسماعيل بك تقديم بعض الهدايا الى لويس
السنداس عشر فعرض على ماجالون ارسال بعض الخيول ،
ولكن وزير البحرية تجنب الاتصال المباشر مع اسماعيل بك
خوفا من اغضب الباب العالي وظل اسماعيل بك يقدم تعهداته
لماجالون بحماية الفرنسيين وقد كتب عنه ماجالون معجبا
« أن بكوات القاهرة ليسوا وحوشا يعيشون في الغابات فاسماعيل
بك يعرف اسماء ملوك أوروبا ولديه فكرة عن قوتهم وهو على
استعداد للتحالف مع فرنسا » (١٤٢) .

لم يقدر للفرنسيين أن ينعموا بحماية اسماعيل بك طويلا
فسرعان ما نشبت الثورة الفرنسية وقامت الاضطرابات بين أفراد
الجمالية الفرنسية أنفسهم فقد اختلفت آراؤهم حول الثورة ما بين
مؤيد ومعارض وزاد من تفاقم الموقف بالنسبة لهم انتهاز القنصل
الاطالى روزيتى الفرصة للدس بين الفرنسيين والماليك فقد
ذكر لمراد بك « لقد أصبح الفرنسيون بلا قوة منذ قيام ثورتهم

Ibid, : P. 202.

(١٤١)

Roux : Op. Cit., PP. 223 — 226.

(١٤٢)

فهم بلا حكومة وبالتالي هم بلا حماية من قبل الباب العالي
وقد رصد أوليفيه تحركات روزيتي وكتب عن دوره الخطير من
أجل استبعاد التجار الفرنسيين من البلاد « (١٤٣) .

وعندما علمت حكومة الثورة الفرنسية بسوء أحوال التجار
الفرنسيين عينت ماجالون قنصلا في القاهرة عام ١٧٩٣ م
وكانت مهمته الاتصال بالبكوات وتقوية العلاقات معهم ولكن رغم
مكانة ماجالون وزوجته لدى مراد بك وإبراهيم بك إلا أن هذا
لم يمنعهما من فرض الغرامات على التجار الفرنسيين من جديد
فقد طلب مراد بك مبلغ ١٢ ألف قرش وذلك بسبب سفر قافلة
الخجج الى مكة ونظرا لتزايد الغرامات على التجار الفرنسيين
فكر البعض منهم في السفر الى الأستانة وتقديم الشكاوى ضد
مراد ولكن مراد ألقى القبض عليهم وتعرضوا للاهانة وأصدر
مراد أمرا بمنع سفر الفرنسيين وضرورة دفع غرامة ١٣ ألف
قرش (١٤٤) .

وقد أدت هذه الغرامات كما ذكر أوليفيه الى افلاس العديد
من التجار وفي عام ١٧٩٤ م طلب إبراهيم بك من التجار الفرنسيين
تجديد ملابس البكوات واهدائهم أقمشة من الجوخ وقد اضطر
التجار الى هجر اسكالة القاهرة والانتقال الى الاسكندرية تفاديا
لهذه المفارم (١٤٥) .

وفي نوفمبر عام ١٧٩٤ م ارسل ماجالون تقريرا الى لجنة
العلاقات الخارجية طالبا نجدة المواطنين الفرنسيين لأن « الحالة

Olivier : Op. Cit., P. 203.

(١٤٣)

Ibid, : P. 207.

(١٤٤)

Ibid, : P. 208.

(١٤٥)

سيئة للغاية » كذلك أرسل في ٨ أكتوبر ١٧٩٤ م إلى ديغورس
السفير الفرنسي في الاستانة يستنجد من أجل حماية الفرنسيين
وفي ١٢ فبراير ١٧٩٥ م طلب ماجالون النجدة من الباب العالي
« لاستخدام نفوذه السياسي والديني لانقاذ الفرنسيين » (١٤٦) .

ورغم كتابات وتقارير ماجالون ضد مراد بك وابراهيم بك
الا انه كان يتقرب منهم في الوقت نفسه مدعيا « ان فرنسًا هي
الصديق الوحيد للمسلمين » كذلك عمل على احباط مخططات
قنصل النمسا للتقرب من المماليك (١٤٧) .

وقد اضطرت الحكومة الفرنسية بسبب كتابات ماجالون
إلى ارسال لجنة لتقصي أوضاع التجار الفرنسيين فوصل
تائفيل Thäinville إلى الاسكندرية عام ١٧٩٦ م وزار القاهرة
ورشيد وقابل ابراهيم بك ومراد بك وحاول تائفيل تمجيد بلاده
أمام المماليك مذكرا اياهم بأمجاد فرنسا وهيبتها وعظمتها ولكن
ابراهيم بك رد عليه بذلك « يبدو لي منذ خلع ملك فرنسا وكل
فرد في بلادكم أصبح له حق القيادة والحكم » ثم تقابل تائفيل مع
مراد بك طالبا منه تخفيف الفرامات على التجار الفرنسيين
فصاح مراد « انكم تهددونى وليكن في علمكم اننى لا أخشى
شيئا » واضطرت بعثة تائفيل إلى الرحيل بعد أربعة اشهر ولم
تحصل من المماليك سوى على وعود زائفة بحماية التجار
الفرنسيين (١٤٨) .

والواقع ان الفرامات التى تعرض لها الفرنسيون في اسكالة
مصر تعرضوا لها أيضا في اسكالة الشام فقد كان الباشا يفرض

Roux : Op. Cit., PP. 265 — 268.

(١٤٦)

Ibid, : P. 270.

(١٤٧)

Ibid, : PP. 285 — 288.

(١٤٨)

الغرامات على التجار ويلزمهم بدفعها متعللا بحجج واهية وقام القناصل الفرنسيون بنفس دور زملائهم في مصر فكانوا يجمعون الأموال من فرنسا لسد طلبات الباشا (١٤٩) .

وأخيرا يكفي أن ندلل على خطورة الغرامات التي فرضتها الممالك على الفرنسيين من أن حكومة الإدارة اتخذت من هذه الغرامات ذريعة لمجيء الحملة الفرنسية على مصر وهو ما ذكره العالم الفرنسى جيرار المصاحب للحملة (١٥٠) .

ويتضح مما سبق اهتمام الرحالة الفرنسيين بوصف أحوال الجالية الفرنسية وأدق تفاصيل حياتهم اليومية . ولم يكتف القناصل والرحالة بتقديم وصف عن الجالية الفرنسية فحسب وإنما اهتموا بتدوين ملاحظاتهم عن باقى الجاليات خاصة الأرمن واليونانيين وقد ذكر مثليه ثواجد اعتاد من اليونانيين في دمياط ورشيد والقاهرة والأستكندرية (١٥١) .

أما عن الأرمن فقد وصفهم ديجون بأنهم اقتصدادون يعملون فى صناعة المصوغات وحنائكة الملابس والبناء وهم مستظاء بين التجار الفرنسيين ولكن لم يكن لهم دور بارز فى التجارة مثل الشوام الكاثوليك أو اليهود ، وقد تركزت محلاتهم فى الصاغة والموسكى ولهم كنيسة قريبة من القنطرة الجديدة (١٥٢) .

(١٤٩) لى الصباغ : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(١٥٠) انظر وصف مصر ، ج ٤ ، ص ٣١٥ ، جيرار : الحياة الاقتصادية

فى مصر فى القرن ١٨ .

Maillet : Op. Cit., P. 92.

(١٥١)

Raymond : Op. Cit., P. 500.

(١٥٢)

وكتب ميليه عن بعض احتفالات ومعدات الأرمن خاصة عند الزواج فسجل متعجبا من ان « العريس يمكث خمسة أيام لا يرى عروسه ثم يسمح له برؤيتها والعروس لا تتحدث معه الا بالإشارات أو بصوت منخفض وإذا حدثها شخص فأنها تحييه بهز رأسها » (١٥٣) .

كذلك تحدث الرحالة الفرنسيون عن الشوام الكاثوليك الذين وفدوا على مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، واستنطاعوا ممارسة نشاطهم التجاري بحرية تامة وقد استقروا في خان الحمزاوى ودرب الجماميز والجمالية وتاجروا في الصابون والطباق وقد تزايدت أعدادهم بدرجة ملحوظة منذ منتصف القرن الثامن عشر وقد تولوا امر الجمارك بدلا من اليهود ولكن التجار الفرنسيين قدموا الشكاوى ضدهم الى غرفة تجارة مارسيليا في عام ١٧٥٧ م « انهم يكيّدون لنا وسوف يتسببون في ضياع تجارة ليفورن مع مصر » وقد تركّز الشوام في دمياط وقد شعر القنصل داميرا بالضيق من استفحال نفوذ الشوام في مصر فكتب في عام ١٧٧٣ م « لقد أصبحوا بمثابة وزراء الحكومة » وكتب القنصل مور في عام ١٧٨١ م عن وضع السوريين الكاثوليك « منذ عشر سنوات والجمارك كلها في يد السوريين الكاثوليك الذين استقروا في هذا البلد » (١٥٤) ، أما فولني فقد وصفهم « ان الأسر الشامية في مصر أسوء أنواع البشر ، ان أخلاقهم لا ترتفع الى أخلاق المسلمين » (١٥٥) .

Maillet : Op. Cit., P. 84

(١٥٣)

Raymond : Op. Cit., PP. 487 — 488.

(١٥٤)

(١٥٥) فولني : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

كذلك استقرت جماعة من المارون الشوام في مصر وكانت لهم علاقاتهم التجارية مع تجار مارسيليا وليفون وأسسوا في عام ١٧٣٤ م شركة للتجارة مع إيطاليا ، فقد شعر التجار الفرنسيون والقنصل الفرنسي بالقلق من تزايد نفوذ المارون خشية احتكارهم للتجارة فكتب القنصل الفرنسي في عام ١٧٥٢ م « أن تجارة الفرنسيين تتجه نحو الدمار بسبب توافد المسيحيين القادمين من حلب فهم يكدون للتجار » (١٥٦) .

ثانياً - الاحتفالات والأعياد

حرص أنرحالة على تسجيل الاحتفالات والأعياد التي شاهدوها في مصر فسجلوا احتفالات قدوم الباشا الجديد وجاء ما ذكره مطابقاً الى حد كبير لما ذكره الأمير أحمد الدمرداش في كتابه « الدرة المصانة » ولنقرأ ما سجله سافاري عن الاحتفال بمجيء باشا جديد « يتم استقبال الباشا وسط مظاهر من الحفاوة وفي موكب ضخم فاذا كان الباشا قادماً من البحر اى من بلاد الشام يتم استقباله في الاسكندرية بواسطة كبار الشخصيات ويقام له معسكر كبير وتنصب الخيام الزاهية الألوان وتفرش أرضيتها بالسجاجيد الثمينة ويقام اثرياء المماليك المآدب والولائم ثم يركب الباشا سفينة ضخمة تبعه السفن والمراكب المزينة حتى يصل الى قصر الحلى في بلاق حيث يكون في استقباله الأغوات والسناجق ويسلمه أفا الانكشارية مفاتيح القلعة ويسير الباشا في موكب كبير حوله الجنود على الجانبين بينما ترتفع اصوات الموسيقى والفرسان يحملون أسلحتهم مرتدين أجمل الملابس على ظهور الخيول العربية الأصيلة » .

وفي اليوم التالي يجتمع الباشا في الديوان بالقلعة حيث يقوم باهداء شيخ البلد قفطانا وجوادا ثم يهدي البكوات أيضا مجموعة من القفاطين (١٥٧) .

ولم تقتصر ملاحظات الفرنسيين على احتفالات تولية باشا جديد لمصر وإنما ذكروا أيضا كيفية عزله فذكر سافاري « يحضر مندوب عن السلطان يرتدي ملابس سوداء ويقوم بالاجتماع مع البكوات في ديوان القلعة ثم يرمي الأوراق في ركن الديوان ويطوى طرف السجادة ويقول انزل يا باشا وعلى الباشا جمع متعلقاته فوراً ومغادرة البلاد في خلال ٢٤ ساعة ، وإذا كان لدى البكوات شكوى من الباشا فإنهم يحاسبونه حسابا عسيرا ويستردون الأموال التي حصل عليها أثناء ولايته (١٥٨) .

والواقع أن الجبرتي كتب عن عزل الباشا فذكر : أن الأوده باشا كان هو الذي يبلغ الباشا بالعزل عندما يقرر البكوات أو الكرخيا عزله وسمي أبو طبق لشكل العمامة التي كان يضعها على رأسه وكانت من الجوخ الأسود وبعد مقابلة الباشا يقلب يقلب طرف السجادة ويقول انزل يا باشا « (١٥٩) . وقد تفاوتت مراسم استقبال الباشا الجديد من حيث الفخامة والبساطة فبعض الباشوات دخلوا مصر في موكب متواضع فذكر ميليه أن « رامي محمد باشا دخل مصر في موكب بسيط » أما القنصل جوفانفيل فقد أفاض في وصف موكب محمد باشا عام ١٧٣٠ م من حيث الفخامة (١٦٠) . وقد حضر لوكا موكب قدوم الباشا

Savary : Op. Cit., + 2 PP. 201 — 205.

(١٥٧)

Ibid, : P. 206.

(١٥٨)

(١٥٩) جلال يحيى : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

Hanotaux : Op. Cit., P. 20.

(١٦٠)

حيث خرج الناس لاستقباله حاملين المشاعل (١٦١) . وسجل
دان تريج موكب اسماعيل باشا حيث اقيمت الخيام وفرشت
بالسجاجيد الفارسية وأقيم لاسماعيل باشا معسكر فخيم
ورائع (١٦٢) .

ومن أجمل الاحتفالات التي حرص الرحالة على تسجيلها
هو الاحتفال بسفر المحمل الى الأراضي المقدسة وأفاضوا مثل
من سبقوهم من الرحالة في وصف القوافل المتجهة الى الحجاز
وطريقة تزيينها وحراستها ولا بد من حضور الباشا عند خروج
المحمل من القلعة بقيادة أمير الحج يصحبه عدد من الانكشارية
والعزب ، كذلك أفاض الرحالة في وصف الاحتفالات التي تقام
عند عودة القافلة من الحج حيث يتم تزيين منازل الحجاج
وتقام الولائم احتفالاً بهذه المناسبة (١٦٣) .

ومن الاحتفالات الهامة أيضا الاحتفال بسفر الخزنة الى
الاستانة ففي يوم الاحتفال ينزل الباشا من القلعة ويسير مع القافلة
المتجهة الى الاستانة وهي تحمل أموال الخزنة ويسير المركب في
نظام تام على دقات الطبول مصحوبا بالآلاف من الجنود والانكشارية
لحراسته (١٦٤) .

اما الاحتفال بفتح الخليج فكان من أهم الاحتفالات وقد
ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا حيث يسير في موكب مع
كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس جدار الخليج فتندفق

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 81.

(١٦١)

Amiaut : Op. Cit., P. 304.

(١٦٢)

(١٦٣) انظر الهام ذهني : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(١٦٤) المرجع السابق ، ص ٩١ .

المياه من القناة ويستمر الاحتفال سبعة أيام وتقام الاحتفالات في الروضة ويزين السكان منازلهم ويقذفون بقطع من النقود والزهور في النيل ويستحم الرجال عرايا ويتقاذفون بمياه النيل « وكأنهم يقبلونه » ويحرض الممالك على حضور هذا الاحتفال ويقيمون المعسكرات لاستقبال الزوار ولا يقتصر الاحتفال بفتح الخليج على منطقة الروضة وإنما تزين باقى مناطق مصر خاصة الأزبكية ومصر القديمة حيث تزين المنازل بالمصابيح وقد كتب لوكا ملاحظة طريفة بان « المصريين يحتفلون بفتح الخليج تعبيرا عن حبهم للنيل لأنه أنقذهم وأنقذ بلادهم » (١٦٥) .

وتكثر في مصر بصفة عامة الاحتفالات الدينية وقد كتب لوكا « لا يوجد في العالم بلد يستمر فيه الرقص والفناء طوال الليل مثل مصر (١٦٦) ، فلا يمر يوم لا نرى فيه احتفالات فالمصريون مغرمون بها وهى تتركز في المدن أكثر من الريف » (١٦٧) .

ومن الاحتفالات الدينية الهامة الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وليلة القدر وقد حرص الفرنسيون على مشاهدة هذه الاحتفالات ويعتبر مولد الرسول الكريم من أهم الاحتفالات في القاهرة حيث تضياء المدينة كلها بالمشاعل والأنوار ويستمر الاحتفال بالمولد النبوى طوال الليل وتزدحم الشوارع بالناس وقد ذكر لوكا انه عند الاحتفال بالمولد النبوى لابد من زيارة منزل أحد الأشراف في الأزبكية وكان مضياء بالمشاعل وأقيمت الاحتفالات أمام منزله واستمرت حتى الصباح كما زاره في هذا اليوم كبار الشخصيات (١٦٨) .

Lucas : Op. Cit., + 1 PP. 76 — 78.

(١٦٥)

Ibid, : + 3 P. 234.

(١٦٦)

Maillet : Op. Cit., P. 106.

(١٦٧)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 75.

(١٦٨)

ويميل المصريون الى الاحتفال بموالد كبار المشايخ (١٦٩)
وقد حضر سافارى أحد هذه الموالد فى رشيد فشاهد مولد
سيدى ابراهيم حيث سار الناس فى موكب كبير يتقدمهم علماء
الدين ، وفى المساء اقيمت الاحتفالات وحضر أعداد
من الحواة قاموا بوضع الشعابين حول اعناقهم وأجسادهم
ورأى سافارى بعض الحواة ينزعون بأسنانهم جلود الشعابين وهى
حية بينما تنسكب الدماء من أفواههم « وكأن بين الطرفين معركة
لا بد من خروج أحدهما منتصرا » (١٧٠) .

ولا تقتصر احتفالات المصريين على المناسبات الدينية فهناك
بعض الاحتفالات القديمة العريقة حرصت الأجيال على توارثها
مثل الاحتفال بيوم شم النسيم حيث يأكل فيه كل الناس البصل
والسمك المملح والخضراوات وقد اثنى ميليه على الفسيخ المصنوع
فى دمياط والبحر الأحمر فهو من أجمل الأنواع وقد تخصصت
هذه المناطق فى صناعته (١٧١) .

احتفالات الزواج :

إما احتفالات الزواج فقد اهتم ميليه بالحديث عنها مؤكدا
اختلاف عادات الزواج فى مصر عن أوروبا ففى أوروبا لا بد وان
تتحقق ثلاثة أمور قبل الزواج الأمر الأول التعارف والثانى
الارتباط الدائم وعدم الطلاق والثالث المساواة فى المصالح ،
هذه الأمور الثلاثة غير متوفرة فى مصر ، فلا يسمح للفتاة
بالتعرف على زوجها قبل الزواج ، كذلك لا يوجد ارتباط دائم

Ibid + 3 P. 236.

Savary : Op. Cit., + 1 PP. 62 — 63.

Mallet : Op. Cit., P. 110.

(١٦٩)

(١٧٠)

(١٧١)

بين الزوجين إذ يمكنهما الانفصال ، ولا يوجد تفاهم أيضا بينهما فالعرب لا يتزوجون الا من نفس قبيلتهم حتى من يستقر منهم في الريف لا يصاهر أبناء الفلاحين ويميل الأبناء خاصة في المدن الى تزويج بناتهم من أشخاص أقل في المرتبة لكي يشعر الزوج دائما بأنه في مستوى صهره ولذلك يختار الأب أحد المماليك للزواج من ابنته وبذلك يضمن سيطرة الابنة على زوجها وأحيانا يزوج الرجل زوجته لأحد مماليكه بعد طلاقها وكثيرا ما تزوجت النساء بمملوك زوجها بعد وفاته ، وقد وجد ميليه ان السيدة هي المستفيدة الأولى من هذا الوضع فأحيانا يكون زوجها مسنا وتكون في ريعان الشباب فتسعد بالزواج من المملوك الشاب بدلا من زوجها الكهل (١٧٢) .

ويسمح للمسلم بالزواج من أربع زوجات كما يسمح له أيضا بفراق زوجته وطلاقها ولكنه اذا أقسم ثلاث مرات على الطلاق فلا بد من مفارقة زوجته نهائيا ولا تعود لمعاشرته الا اذا تزوجت مرة ثانية (١٧٣) .

وتكان من الطبيعي الا يفهم الرحالة معنى كلمة المهر فذكر ميليه ان الرجل يدفع مبلغا من المال لشراء زوجته ، كذلك يشتري لها بعض الهدايا من الأساور وهي في نظر ميليه دليل العبودية فهي قيود من الذهب والفضة (١٧٤) .

وتقام الاحتفالات بالزواج ولا بد أن تقوم العروس بتلوين وتخضيب أقدامها بالجناء وتذهب الى الحمام أربعة ايام متتالية في موكب رائع ينشد فيه المغنون الأغاني وفي الزفاف يقام حفل

Ibid, : P. 81.

Savary : Op. Cit., + 3 P. 45.

Mallet Op. Cit., P. 87.

(١٧٢)

(١٧٣)

(١٧٤)

كبير يتجمع فيه الرجال في بهو كبير يقضون الليل في شرب القهوة والاستمتاع بالغناء ورقص العوالم اللاتي لا يعدلن أحد في الرقص ويعزفن بالطنبور وتغنى العالمة للعروس كلمات تعبر فيها عن جمال العروس وعفتها وحسنها ولا تختلف مراسم الاحتفال بالزواج بين المسلم والمسيحي (١٧٥) .

وقد ذكر بعض الرحالة بعض العادات المتعلقة بالزواج بين الأقباط في مصر فأكد ميليه أنه في يوم الزواج لا تنام العروس في فراش زوجها وإنما في اليوم التالي يحضر القس ومعه قطعة من زنار من حرير يمررها على رقبة العريس راسما شكل صليب ويكون ذلك أيذانا له بممارسة حقه كزوج (١٧٦) .

كذلك ذكر ميليه بعض احتفالات الزواج لدى بعض الجاليات الأجنبية خاصة الأرمن فلديهم تقليد غريب اذ يمكث العريس خمسة أيام لا يرى العروس وفي يوم الزفاف يقام حفل كبير في كنيسة الخان ليلا حيث يضع الأشبين القماش على أيدي العروسين ويتم لبس خاتم الزواج في أصبع كل منهما ، ولكن لابد من تغير الخاتم ووضعه في كل أصبع على حدة ثم يسير العروسان حتى يصلا أمام مقعد القس فيجري مراسم الزفاف واضعا اكليلا من الورد على رأس العروسين وفوقه قطعة من القماش توضع بالتبادل على رأس العروسين ثم يحضر القس قدحا من النبيذ يغمس فيه قطعة من الخبز يأكل منه العروسان والأشبين ويشربون النبيذ ثم يقدفون بالقدح نحو الحائظ ثم يسير القس ويصحبه العروسان حول المقاعد في الكنيسة ثم ينزع الأكليل وتقام الصلوات (١٧٧) .

Savary : Op. Cit., + 3 PP. 45 — 51.

(١٧٥)

Maillet : Op. Cit., P. 84.

(١٧٦)

Ibid, : P. 85.

(١٧٧)

احتفالات الختان :

الختان ضرورى فى مصر وهو يتم للذكور فور الولادة وأحيانا عندما يبلغ الطفل اثنى عشر عاما (١٧٨) وهو عملية ضرورية يشترك فيها المسلمون والأقباط على حد سواء (١٧٩) ، أما العالم سونينى فقد علل أهمية الختان فى مصر « من أجل حرارة الطقس بين شعب قليل الاعتناء بنظافته » ثم انفرد سونينى عن غيره من الرجال بالحديث عن ختان البنات فى مصر وكتب ان أحدا لم يتحدث عن ختان الفتيات فى مصر وإنما اهتم الجميع بالحديث عن ختان الذكور فقط وأكد سونينى ان ختان الفتيات معروف فى الشرق ، أما فى مصر فإن نساء الصعيد متمرسات فى هذه المهنة فهن يطفن الشوارع وينادين على مهنتهن ويوجد أيضا فى مصر بعض النساء الحبشيات يقمن بهذه المهنة أو العملية وقد حرص سونينى على مشاهدة ووصف ختان إحدى الفتيات (١٨٠) .

هذا ولم يقتصر وصف الرحالة على احتفالات المصريين من زواج وختان الخ ، وإنما وصفوا أيضا إجراءات دفن الموتى ، فذكر ميليه ان المصريين اعتادوا قديما تحنيط موتاهم ولكنهم ألقوا عن هذه العادة الآن (١٨١) ، ويتم لف جسد الميت بالقماش ثلاث مرات ويعطر الكفن بالزهور والروائح الجميلة ويكون الكفن عادة مصنوعا من القطن (١٨٢) .

وفى مصر نساء مهنتهن الرئيسية البكاء على الميت وينتشرن

Fourmont : Op. Cit., P. 88.

(١٧٨)

Mallet : Op. Cit., P. 73.

(١٧٩)

Sonnini : Op. Cit., + 2 PP. 35 — 39.

(١٨٠)

Mallet : Op. Cit., P. 89.

(١٨١)

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 125.

(١٨٢)

في جرجا وفي وجه قبلى بصفة عامة وهن يصبغن وجوههن بالنيلة
ويضربن صدورهن ويمسكن بالمناديل السوداء في أيديهن ويستمر
صراخهن حتى انتهاء إجراءات الدفن (١٨٣) .

وعند وفاة المسلم توضع رأسه في اتجاه الكعبة ، أما المسيحي
فتوضع رأسه تجاه الشرق والنساء في مصر مجبورات على
البكاء على أزواجهن ولابد من زيارة المدافن ثلاث مرات
أسبوعيا (١٨٤) ، وقبل دفن الميت لابد من احضار الشيوخ
لقراءة القرآن في المنزل ويتجمع الناس حول جسد الميت ثم يدفن
خارج المدينة ويستمر البكاء أسبوعا (١٨٥) .

وفي القاهرة توجد « قراقة » المقطم التي دفن فيها الطبيب
الشافعي وصفها المقرئزي على حد قول فورمون بأنها مدينة
الأموات (١٨٦) .

والى جانب مواكب الاحتفالات والأعياد وصف الرحالة
مواكب الشهير بالمجرمين حيث يتم وضع المجرم على التاجيل
ونطاف به في شوارع المدينة وقد شاهد لوكا تنفيذ عقوبة الإعدام
في اثنين من الأعراب فكتب ، تم وضعهما على ظهور الجمال ،
وعلق في رقبتيهما قطعة الخشب على شكل صليب معلق بها
عدد كبير من الشموع لكي تنزل على جلودهم فتحرقها وقد تم
اقتيادهم في أحياء القاهرة حتى وصلوا ميدان الرميطة وهو الميدان
المخصص للإعدام فتم طرحهما أرضا ونزع الجلد من على

Ibid, : P. 125.

Fourmont, : Op. Cit., P. 115.

Lucas : Op. Cit., + 1 P. 125.

Fourmont : Op. Cit., P. 112.

(١٨٣)

(١٨٤)

(١٨٥)

(١٨٦)

ظهريهما وبطنيهما فمات الأول من النزيف، أما الثاني فقد نهض
وسار عدة خطوات ثم مات .

كذلك شاهد لوكا عقوبة الاعدام على الخازوق وذكر انه
شاهد الشخص الذي وُضع على الخازوق حيا لمدة تسع ساعات
وبالغ لوكتا في الأمر وأكد أنه ظل يشرب القهوة حتى مات (١٨٧) .

وقد وصف الرحالة الاحتفالات التي تقام عند ختان الطفل
وحضر القنصل ميليه عام ١٦٩٦ م حفل ختان ابراهيم بك
ابن انسماعيل بك وكان عمره خمسة عشر عاما فوصفا حفل
الختان بأنه كان رائعا حضرة مندبو الاقاليم واستمر عشرة ايام
وأجريت خلاله مسابقات للخيل والحيوانات وتم احتضار
الراقصين من دمشق وحضر الحفل البكوات ورجال الأواجق
وتم فيه كسوة العبيد ، وأرلدى ابراهيم بك كسوة من القماش
البندقي المطعم بالذهب وغطاء الرأس به ورود وبدل الضبي
ملابسه أربع مرات ودفع الباشا غرامات المحبوسين وأفرج عن
المستجولين وتم ختان عدد كبير من العبيد في هذا الحفل وليبدو
ان هذا الحفل كان عظيما فقد أحصى ميليه عدد المصابيح التي
تم انارتها فوجد انها تزيد عن ألف مصباح (١٨٨) .

ويحرص المصريون في أعيادهم واحتفالاتهم على تقديم الطعام
واقامة الولائم ، ومن عاداتهم فرش الموائد على الأرض على مفرش
من الجلد الأحمر وهم يأكلون كل أنواع الطعام وكل أنواع
اللحوم خاصة لحوم الأبقار والماعز فيما عدا لحم الجوزير فهو
محرم عليهم (١٨٩) .

Lucas : Op. Cit., + 1 PP. 55 — 59.

(١٨٧)

Mallet : Op. Cit., P. 73.

(١٨٨)

Fourmont : Op. Cit., P. 95.

(١٨٩)

والغذاء الرئيسى للمصريين الخبز والخضروات والفواكه
والأرز ويحبون مختلف أنواع الجبن أما البدو فغداؤهم الرئيسى
بسيط مكون من القمح المطحون المضاف اليه قليل من اللبن
ويميل المصريون لشرب الشاي والقهوة والشيشة ونادرا
ما يشربون الكحوليات وهم يشربون المياه من النيل وهى تعطىهم
القوة والنشاط (١٩٠) .

وهناك بعض العقوبات الخاصة بمخالفة الأسعار أو الغش فى
المواد التموينية وقد وكل بها الى المحتسب وقد وصفه بول لوكا
بانه يمشى فى شوارع القاهرة يعتلى حصانا يلبس رداء أسود
وله غطاء رأس على شكل قربة مغطى بالموسلين الأبيض يسبقه
موظفوه حاملين الموازين وحوله الانكشارية وأعوانه يحملون الغصى
والكرابيج يسير فى المراكز التجارية الهامة ومن يفش فى الموازين
يضرب على رجليه ، وقد وصف لوكا العقوبات التى توقع على
البائعين فذكر انه شاهد المحتسب يدق مسمارا فى أنف وأذن
الباعة الفشاشين كذلك شاهد معاقبة أحد الخبازين باع خبزا
ناقص الوزن فتم طرحه أرضا وضرب على ظهره وبطنه ثم دهن
وجهه بالطين (١٩١) .

Savary : Op. Cit., + 3 P. 2.

Ibid, : + 1 P. 57.

(١٩٠)

(١٩١)

ثالثا - المنشآت الاجتماعية

المساجد :

عندما نتحدث عن المساجد فلا بد لنا أن نذكر الجامع الأزهر هكذا بدأ ميليه حديثه عن مساجد مصر ، مؤكدا روعة وجمال الجامع الأزهر فلا يوجد جامع يضاهيه في فخامته ثم اتى ميليه على دور الأزهر مؤكدا بأنه لا يقود مصر فحسب وإنما له دور رائد في العالم الاسلامي كله وفيه يتم تعليم علوم الفلك والطب والرياضة والتاريخ وكل دارس له جراية من الخبز واللحم والخضار والأزهر في وقت من الأوقات كان قادرا على تعليم وإطعام ١٤ ألف شخص يوميا ولكن هذا العدد انخفض الآن الى ١٤٠٠ فقط (١٩٢) .

وذكر فولني انتشار الأروقة في الأزهر فأكد أن الرواق السوري في الأزهر كان من أنشط الأروقة وعلل ذلك لأن الطلبة السوريين كان لديهم استعداد للسفر خارج بلادهم أكثر من

المصريين فقد توجهوا للجامع الأزهر للتعليم (١٩٣) ، وأفاض ميليه في وصف جمال جامع الأزهر بأعمدته الرخامية الضخمة وأعمدته من الجرانيت وهو الآن من أجمل وأضخم المساجد (١٩٤) .

أما سافاري فقد أعجب بمساجد القاهرة ومناراتها المرتفعة ولكنه تعجب من عدم وجود أجراس للتنبيه على الصلاة وعندما سئل أحد العلماء كانت اجابته « ان الأجراس مزعجة ولا تمس القلب وأنها صنعت خصيصا للبهائم وليس للبشر » (١٩٥) .

وقد بنيت مساجد القاهرة على نمط واحد فالمسجد مربع كبير من الداخل فناؤها مفتوح وحول المربع العديدة من الأعمدة الجميلة (١٩٦) .

ولما كان فورمون قد أطلع على الحضارة الإسلامية مع اتقانه للغة العربية فقد شرح للقارئ الفرنسي المذاهب الأربعة السنية في مصر وأعطى نبذة عن المذهب الشيعي خاصة في عهد الدولة الفاطمية وأكد احترام وتقديس المصريين للقرآن الكريم فلهم طريقة معينة في القراءة ومحرم عليهم التلفظ بأي خطأ في القرآن كما أكد اعتزاز المصريين بالمذهب الشافعي ويفخرون بأن صاحب المذهب مدفون في بلادهم (١٩٧) .

المستشفيات :

تحدث فولتي عن الطب في مصر فأكد انتشار الجهل والأمراض حتى ان الخدم الأوروبيين كانوا يستشارون في الأمور

(١٩٣) هاملتون : المرجع السابق ، ج ٢ ص .

Mallet : Op. Cit., P. 192.

(١٩٤)

Savary : Op. Cit., + 1 P. 99.

(١٩٥)

Mallet : Op. Cit., P. 200.

(١٩٦)

Fourmont : Op. Cit., PP. 50 — 54.

(١٩٧)

الطبيبة ، وقد افتتح عدد من الأولوبيين عدة صيدليات في القاهرة حسب ما ذكره أوليفيه (١٩٨) ، على أن أشهر مستشفى حرص الرحالة على الحديث عنها هي مستشفى « المجانين » التي تحدث عنها ميليه وقد نسب ميليه بناءها الى ابنة احمد ابن طولون وكان السبب في بناءها ان إحدى الأميرات اصبحت بالجنون فتم تخصيص قصر لها للبقاء فيه وحراستها وبعد شفائها خصصت القصر للمجانين ليشفوا من امراضهم وتقع المستشفى في شارع رئيسي من أجمل الشوارع في القاهرة حيث يوجد مسجد السلطان حسن وحول المستشفى عدة مبان للمجانين وكل مريض يخصص له شخص للعناية به وفي المساء وقبل النوم يتم عزف الموسيقى ويسمح للمرضى بحرية التجول ساعتين نهارا وبالمستشفى كميات كبيرة من الأدوية والأطباء ويوجد مكان للفقراء ويتم تصنيف المرضى حسب حالتهم وكل مريض مخصص له طبيب معين وكانت هناك شروط لاختيار الأطباء في القاهرة (١٩٩) .

الحمامات العامة :

علل سافاري وجود أعداد كبيرة من الحمامات العامة بسبب ارتفاع حرارة الجو في مصر ، كذلك لأن ديانة المصريين تحت على النظافة وعقد سافاري مقارنة بين حمامات مصر ومثيلاتها في فرنسا فأكد ان الأخيرة تشبه السجن لأنها ضيقة بينما حمامات مصر متسعة جميلة (٢٠٠) . والحمامات العامة في مصر جميلة رائعة أرضياتها من الرخام ويتوسط الحمام نافورة وتوجد بها موائد من الرخام يستلقى عليها المستحم للتدليك وهي مزودة

(١٩٨) هاملتون جب : المرجع السابق ، ص ٣١٠ - ص ٣١١ .

Maillet : Op. Cit., P. 202.

(١٩٩)

Savary : Op. Cit., + 2 P. 124.

(٢٠٠)

بالماء الساخن والبارد ، ويقصد الرجال والنساء الحمامات ولكن خصصت الفترة المسائية للنساء (٢٠١) .

ورغم وجود أعداد كبيرة من الحمامات العامة إلا أن الفقراء يؤثرون الاستحمام في النهر للطهارة ولأنهم لا يملكون المال اللازم للذهاب إلى الحمامات وتتخذ النساء من الذهاب إلى الحمامات ذريعة للخروج من منازلهن (٢٠٢) ، وعند خروج المرأة إلى الحمام ترتدى أفضل أنواع الثياب المصنوعة من الشمير وتضع المناديل المصنوعة من الهند على رأسها وتسير إلى الحمام وبصحبتها العبيد (٢٠٣) .

وأعجب سافاري بالحمامات في مصر وبطرق التدليك فيها فبعد الحمام « نشعر بالدماء تجري في عروقنا » كما أنها تساعد على اختفاء بعض الأمراض خاصة الروماتيزم وأمراض الجلد وهي لا تصيب الجهاز التنفسي بأية أضرار (٢٠٤) .

Fourmont : Op. Cit., P. 67.

Maillet : Op. Cit., P. 208.

Savary : Op. Cit., + 1 P. 123.

Ibid, : P. 132.

(٢٠١)

(٢٠٢)

(٢٠٣)

(٢٠٤)

رابعاً - الأمراض والأوبئة

وعنى الرحالة الفرنسيون بالحديث عن الأمراض في مصر وعللوا وجود هذه الأمراض بسبب حرارة الجو وهبوب الرياح وقد فندوا هذه الأمراض على النحو التالى :

أمراض العيون :

علل فورمون إصابة سكان مصر بالعمى بسبب الرياح المتربة القادمة من الصحراء الغربية (٢٠٥) ، وأضاف جرانجيه أن مناخ مصر المترب والهواء المحمل بالأتربة هو السبب الرئيسى للإصابة بالعمى (٢٠٦) ، أما فولنى فأكد أن أمراض العيون ليست قاصرة على مصر وحدها فهى تنتشر فى سورية أيضا أما فى مصر فهى بسبب قذارة القاهرة والحرارة الممتزجة بالرطوبة كما أن هواء الدلتا به نسبة كبيرة من الملوحة أضف الى ذلك نوعية طعام

Fourmont : Op. Cit., P. 26.

(٢٠٥)

Granger : Op. Cit., P. 22.

(٢٠٦)

المصريين الذى يتكون من اللبن الرائب والجبن والعسل والثمار الخضراء يحدث كل ذلك تشويشا في أسفل البطن فيتأثر البصر ، وأضاف فولنى سببا آخر الا وهو كثرة العرق عند المصريين لأنهم يلبسون العمامة فينزل العرق على عيونهم بغزارة فاذا كشفوا رؤوسهم تعرضوا للبرد فتكون عيونهم اقل مقاومة (٢٠٧) .

أما أوليفيه فأكد ان الهواء المحمل بالأملاح هو السبب في انتشار أمراض العيون في مصر خاصة الرمى وكتب تبريرا غريبا وهو ان المصريين اعتادوا النوم ليلا في الهواء الطلق خارج منازلهم فيكونون عرضة لهبوب رياح الصحراء ويكون الهواء لطيفا ليلا وفي الصباح تشتد أشعة الشمس فهذا الانتقال الفجائي من حرارة الليل المنخفضة الى حرارة الصباح الشديدة هي وراء انتشار أمراض العيون في مصر (٢٠٨) .

أما سافارى فقد عزي سبب إصابة المصريين بأمراض العيون الى انهم يستنشقون رائحة الورود ليلا فتسبب لهم الحساسية لعيونهم ، كذلك أكد ان رياح الخماسين هي السبب في انتشار العمى ونفى سافارى أن تكون الحرارة أو الشمس الحارقة هي المسؤولة عن أمراض العيون مؤكدا أن البدو يعيشون في الصحراء وعيونهم سليمة (٢٠٩) .

الحمى :

عانى الرحالة الفرنسيون من الحمى بسبب ارتفاع حرارة

(٢٠٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ص ١٥٦ .

Olivier : Op. Cit. P. 152.

(٢٠٨)

Savary : Op. Cit., + 3 P. 11.

(٢٠٩)

الجو ولكن فورمون أكد أن هواء القاهرة نظيف وأن مياه النيل هي العلاج الوحيد للحمى وهي لا تحتاج لغلى أو تطهير (٢١١) .

أمراض الرئة :

أكد فولنى أن أمراض الرئة ترجع الى الحرارة ورياح الخماسين فهي تؤدي الى اضطراب الدورة الدموية في الشرايين فيطرد القلب الدم الى الرأس والصدر وهذا ما يفسر النزف من الأنف والفم ولذلك عند هبوب الرياح لابد من وضع قطعة من القماش على الأنف تجنباً للنزف (٢١١) .

الأوبئة :

أما الأوبئة في مصر فأشهرها الجدري وقد وصفه فولنى بأنه شديد الفتك بالأرواح ويعالج باعطاء غسل وسكر يوميا لمدة ستة أيام وفي اليوم السابع يعطى سمكا مملحا ولا يأخذ المريض مسهلا قط ويمنع من غسل عينيه حتى ولو امتلأتا بالقيح وانطبقت جفونه وأكد فولنى أن مرضى الجدري يعالجون في مصر بطريقة سيئة للغاية (٢١٢) .

وأكد فورمون انتشار الطاعون في مصر وأشار الى أن ابن دقماق أكد وفاة ٢٠ ألف شخص من جراء الطاعون (٢١٣) ، وقد أشار أحمد شلبي الى انتشار هذا الوباء في النصف الأول من القرن الثامن عشر بصورة ملحوظة مما ترتب عليه انتشار

Fourmont : Op. Cit., P. 26.

(٢١٠)

(٢١١) فولنى : المرجع السابق ، ص ٥٠ - ص ٥١ .

(٢١٢) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

Fourmont : Op. Cit., P. 23.

(٢١٣)

الوفيات خاصة خلال عام ١٧٢٦ م « فقد زاد الطاعون الى أن صار يدخل البيت فلا يبقى فيه أحد وبيوت لم يدخلها قط وبيوت أخذ منها البعض من الذين فرغت آجالهم وأبقى من بقى في عمره بقية » (٢١٤) .

كذلك اشار الى انتشار هذا الوباء مؤرخنا الجبرتي في حوادث عام ١١٤٧ هـ الموافق ١٧٣٤ م « وقع الطاعون ويسمى الفصل المائق يأخذ على الرائق ، ومات به كثير من الأعيان » (١٢٥) ، وفي عام ١٧٨٣ م رأى فولنى الطاعون يفتك بالسكان فتكا ذريعا حتى انه خرج من أبواب القاهرة في يوم واحد ألف وخمسمائة جثة وأكد فولنى أن مصر ليست منشأ الطاعون وإنما هو يفتد عليها من سورية والمغرب وهو ينتشر شتاء لأن الحر يقتل المرض وتتبع انتشار المرض في مصر فهو يأتي أولا من السواحل خاصة من السفن القادمة الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ودمياط وعندما يشعر الفرنسيون بانتشار الوباء فانهم يغلقون باب الخان ولا يكلمون أحدا ولا يختلطون بأحد وتنبك مصر بالطاعون كل أربع سنوات فطن الباب العالي وانشاء محاجر صحية في ازسير وكنديا والاسكندرية (٢٢٦) .

(٢١٤) أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٤٨٨ .

(٢١٥) الجبرتي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٢١٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٦٢ - ص ١٦٣ .

الخاتمة

يتضح لنا مما سبق أن الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر تابعوا خطا الحجاج المسيحيين فزاروا الأماكن المقدسة في الشام ومنها اتجهوا الى مصر حيث اهتموا أيضا بزيارة أهم المزارات المسيحية فيها من أديرة وكنائس وكهوف قبطية ، وقد كلف البعض منهم من قبل ملوك فرنسا والساسة الفرنسيين في مهام رسمية مثل لى نوار لى رول وكانت مهمته الاتصال بملك الحبشة لفتح طرق تجارية بين البلدين ونشر المذهب الكاثوليكي . كذلك كلف الملك لويس الخامس عشر بول لوكان بالسفر الى الشرق للبحث عن الآثار ، وكلف الطبيب جرانجيه بدراسة التاريخ الطبيعى لمصر ويلاحظ ان البعض منهم جاء على رأس بعثة تنصيرية هدفها الرئيسى تحويل الأقباط الأرثوذكس الى المذهب الكاثوليكي مثل سيكار ، كذلك كلف البعض من هؤلاء الرحالة بشراء المخطوطات العربية والقبطية مثل الأب دورفال وفورمون لاثرء المكتبة الملكية فى باريس .

هذا بينما تنوعت وظائف الرحالة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فلا نجد من بينهم أعضاء بعثات تنصيرية أو رجال دين باستثناء الأب بينو وإنما تنوعت وظائفهم فمنهم العالم الطبيعي مثل سسونيني والمتعمق في دراسة اللغة العربية مثل سافاري وصاحب الدراسة الجادة فولني ، والطبيب أوليفيه وقد وصل هؤلاء الرحالة الى مناطق لم يصلها فرنسي خاصة في مصر العليا واتصفت كتاباتهم بالطابع العلمى الى حد كبير واعتمد البعض منهم على المؤلفات العربية ساعدهم في ذلك اتقانهم للغة العربية وقد حقق رحالة القرن الثامن عشر تقدما في علم الجغرافيا والأثنوجرافيا وقد اتصفت كتاباتهم خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية بالدقة فكانت بمثابة تحقيقات علمية أصبحت نواه المعهد العلمى المصرى فى عهد الحملة الفرنسية .

ويقابلنا فى القرن الثامن عشر ظاهرة تسجيل القناصل وتدوينهم لمشاهداتهم فدون ميليه ملاحظاته عن مصر فى بداية القرن الثامن عشر ونشر كتابه باسم « وصف مصر » كذلك اعتمدنا على رسائل القنصل الفرنسى مور فى التعرف على أحوال مصر السياسية والاقتصادية . وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر بزوغ نجم ماجالون ولاشك أن تقاريره ورسائله المثيرة الى لجنة الأمن العام وحكومة الادارة كانت من أهم الأسباب التى أدت الى مجيء الحملة الفرنسية على مصر .

أسهب الرحالة والقناصل الفرنسيين فى وصف أوضاع مصر السياسية فى القرن الثامن عشر فألقوا الضوء على المنازعات بين الفرق العسكرية المختلفة وقد ساهم القناصل فى وصف المنازعات وذلك بحكم عملهم واحتكاكهم بالقوى السياسية المختلفة

في البلاد ، كذلك امدنا الرحالة والقناصل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بمعلومات عن تصاعد نفوذ المماليك خاصة على بك ومراد بك وابراهيم بك .

لم يكتف الرحالة بتدوين ملاحظاتهم عن احوال مصر السياسية بل اهتموا بوصف احوالها الاقتصادية بما يخدم مصالح بلادهم فدعا البعض منهم السيطرة على البحر الأحمر واحياء طريق التجارة القديم وقد بالغ بعضهم في احلامه خاصة مور وماجالون فاعتقدوا أن فرنسا أحق باقتلاك ثروة مصر الاقتصادية من القوى السياسية المتصارعة العاجزة عن النهوض بالبلاد .

أسهب الرحالة في وصف مدن مصر خاصة وأن منطقة مصر العليا لم تعد غريبة عليهم فقد تعمقوا في جنوب البلاد ووصلوا الى مناطق لم يصلها فرنسي من قبل فقدموا وصفا ورسم للمدن والآثار المختلفة التي شاهدوها فلم تعد مصر مجهولة أو غامضة أو مأهولة بالمتوحشين كما كان يحلو لبعض الرحالة السابقين وصفها وإنما زادت المعرفة عنها وعن حضارتها العظيمة .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لطبقات المجتمع وكان من الطبيعي أن يركزوا حديثهم عن الجالية الفرنسية ومتاعبها اليومية وحياتها في مصر وأن يبرزوا ويضخموا من الغرامات التي تفرضها السلطات الحاكمة عليهم . ووصفوا المماليك بالطغاة الأرقاء وقد فرق الرحالة بين الدولة المملوكية في أوج عظمتها ومجدها وبين بقايا المماليك في القرن الثامن عشر الذين تمنوا لهم زوال السلطان .

حمل الرحالة حملة شعواء على الأقباط في مصر فقلما نجد من يثنى عليهم وقد وصفوهم بالجهل والقذارة والانحطاط ولم يسلم رجال الدين المسيحي من هذه الأوصاف ويمكن تعليل ذلك ان الأقباط في مصر تمسكوا بمذهبهم الأرثوذكسي ورفضوا اتباع المذهب الكاثوليكي رغم محاولات الرحالة وأعضاء البعثات التنصيرية المختلفة فلم تحقق البعثات الكاثوليكية في مصر الانجاحا محدودا للغاية .

وبينما حمل الرحالة على الأقباط حملة عنيفة نجد في المقابل اشادة بعلماء الأزهر ودورهم الديني فمعظم الرحالة أشادوا بعلماء الأزهر وعلمهم الغزير « فهم مسلمون بالفطرة مثاليون » كما اثنوا على دور الأزهر التعليمي والديني ، ولكن هذا لا يعنى ان نغفى البعض منهم التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، كذلك خلط بعضهم بين الاسلام والمذاهب الأربعة والمذهب الأرثوذكسي مثل تعجبهم من « عدم وجود أجراس في المساجد » أو ما ذكره بعضهم من « وجود أربعة مذاهب أرثوذكسية في مصر » .

أبدى الرحالة الفرنسيون اعجابهم بالمرأة الشرقية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة ، كذلك اعجبوا بغيرة الشرقى على زوجته وقارنوا بين وضع المرأة الأوروبية ووضع المرأة المصرية فرجحت كفة الأخيرة ، ولكن هذا لا يمنع من مهاجمة بعضهم للتقاليد الشرقية خاصة فولنى وأوليفيه فلم ير فولنى في نساء مصر سوى « أشباحا جائلة » .

اننا لا نتعجب من العمل الضخم الذى انجزته الحملة الفرنسية الا وهو « وصف مصر » فما كان لهذا العمل ان يتم لولا وجود أساس قوى متين استند عليه علماء الحملة فانجاز

الحملة في ثلاثة أعوام إنما هو حصيلة جهد تم على مر ثلاثة قرون وان كانت كتابات الرحالة والقناصل في القرن الثامن عشر هي أساس وركيزه عمل الحملة فمن الطبيعي أن تجيء الحملة على مصر وهي مزودة بفكرة عامة عن كل ما يتعلق بمصر من أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية فتعمل على دراسة مصر دراسة علمية دقيقة ، ولا ننسى ان كتابات ورسوم رحالة القرن الثامن عشر عن الآثار الفرعونية والقبطية والاسلامية قد اتسمت بالقيمة خاصة وان هذه الرحلات تمت في عهد لويس الخامس عشر عصر الأبهة والعظمة والفخامة في فرنسا .

وأخيرا لقد كانت كتابات الرحالة والقناصل نواة المعهد العلمي المصري في عهد الحملة كما أسهمت في تعريف القاريء الفرنسي بحضارة مصر وأصبح الراى العام الفرنسى شغوفا بالتعرف عليها لذلك أيد الجميع حملة بونابرت على مصر تلك الحملة التى صورت فى فرنسا وكأن الفرض الرئيسى منها هو اكتشاف الحضارة التى طالما قرأ عنها الفرنسيون من خلال كتابات الرحالة . لقد وصفت مصر بالفعل قبل مجيء الحملة ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان وصف علماء الحملة جاء أدق وأعمق وعلى أسس علمية متينة .

أولا - المصادر والمراجع :

١ - أحمد الحشة :

تاريخ مصر الاقصادى فى القرن التاسع عشر :
القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٢ - أحمد الدمرداشى :

كتاب الدرة المصانة ، تحقيق عبد الرحيم
عبد الرحمن ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ،
القاهرة ، ١٩٨٩ م .

٣ - أحمد شلبى عبد الفنى الحنفى المصرى :

أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من
الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى ، تقديم
وضبط وتصحيح د. عبد الرحيم عبد الرحمن ،
القاهرة ، ١٩٧٨ م .

٤ - أحمد عزت عبد الكريم :

دراسات فى تاريخ العرب الحديث ،
القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٥ - اسماعيل سرهنك :

تاريخ الدولة العثمانية ، القاهرة ، ١٩٨٨ م .

٦ - الشاطر بصيلى عبد الجليل :

معالم تاريخ السودان وادى النيل من القرن
العاشر الى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٥ م .

- ٧ - العمرى - شهاب الدين ابى العباس احمد بن يحيى :
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار « دولة
المماليك الأولى » ٧٠٠ هـ - ٧٤٩ هـ (١٣٠١ - ١٣٤٩ م)
دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى ، المركز الاسلامى
للبحوث ، بيروت ١٩٨٦ م ، الطبعة الأولى .
- ٨ - الهام محمد ذهنى :
مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين
السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ، ١٩٩١ .
- ٩ - أندريه ريمون :
فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ،
ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ١٠ - ثروت عكاشة :
مصر فى عيون الغرباء الرحالة والفنانين والأدباء
(القرن التاسع عشر) ، القاهرة ، ١٩٨١ ج ١ .
- ١١ - جلال يحيى :
مصر الحديثة (١٥١٧ - ١٨٠٥) ، الاسكندرية .
- ١٢ - زينب راشد :
تاريخ أوروبا الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٦ م
ج ١ .
- ١٣ - شوقي الجمل :
تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ،
عام ١٩٧٢ م .

١٤ - صلاح هريدى :

الجاليات الأوروبية فى الاسكندرية فى العصر
العثمانى ، دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية
٩٢٣ هـ - ١٢١٣ هـ (١٥١٧ - ١٧٩٨ م) ،
الاسكندرية ١٩٨٩ م .

١٥ - عبد الرحمن الجبرتى :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، بيروت ،
ج ١ - ج ٢ .

١٦ - عبد الرحمن الرافعى :

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى
مصر ، ١٩٨١ ج ١ .

١٧ - عبد الرحيم عبد الرحمن :

تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ،
عام ١٩٨٦ م .

١٨ - عبد العزيز الشناوى :

الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ،
القاهرة ، ١٩٨٠ م ج ١ - ج ٢ .

١٩ - عبد العزيز الشناوى ، جلال يحيى :

وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ،
القاهرة ، ١٩٦٩ م .

٢٠ - عبد العزيز نوار :

الشعوب الإسلامية ، القاهرة .

٢١ - عبد الوهاب بكر :

الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من
القرن الثامن عشر ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

٢٢ - علماء الحملة الفرنسية :

وصف مصر ج ١ ، المصريون المحدثون ، ترجمة
زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

علماء الحملة الفرنسية :

وصف مصر ج ٢ ، العرب في ريف مصر
وصحراوتها ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

علماء الحملة الفرنسية :

وصف مصر ج ٣ ، مستخلص من دراسة عن
بحيرات وصحراوات مصر مصر السفلى .

علماء الحملة الفرنسية :

وصف مصر ج ٥ ، الحياة الاقتصادية في مصر
في القرن ١٨ ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

علماء الحملة الفرنسية :

وصف مصر ج ٦ ، وصف الحياة الاقتصادية
في القرن ١٨ ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

٢٣ - علي حسون :

تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ١٨٩١ م .

٢٤ - فساروق أباطة :

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر
١٨٣٩ - ١٩١٨ م ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .

٢٥ - فولنى :

ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام ، نقلها الى
العربية ادوارد البستاني ١٩٤٩ ج ١ .

٢٦ - ليلى الصباغ :

الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد
العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر ،
بيروت ١٩٨٩ ج ١ ، الطبعة الأولى .

٢٧ - ليلى عبد اللطيف :

الصعيد في عهد شيخ العرب همام ، القاهرة ،
عام ١٩٨٧ م .

٢٨ - محمد فريد :

تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ،
عام ١٩١٢ م .

٢٩ - محمود الشرقاوى :

دراسات في تاريخ الجبرتي مصر في القرن الثامن
عشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م ج ٢ ، الطبعة الثانية .

٣٠ - هاملتون جب ، هارولد بووين :

المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، ١٩٩٠ ج ٢ .

٣١ - يونان لبيب ، محمد مزين :

تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع
العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٩٠ م .

ثانيا - المجلات العربية :

— المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثاني المجلد الثاني عام ١٩٤٩ م ، مقالة للدكتور محمد أنيس « النشاط الأوروبي بمصر وجيرانها أواخر القرن الثامن عشر » .

— الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد العشرون ١٩٧٣ م أندريه ريمون ، القاهرة العثمانية بوصفها مدينة « شئون البلديات ومشكلات المرافق » ترجمة زهير الشايب .

— مجلة كلية الدراسات الانسانية ، العدد السابع ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، فرنسا والهند الصينية ، د. الهام ذهني .

ثالثا المراجع الأجنبية :

1. Auriant : Un Français d'autrefois en Egypte Paris 1935.
2. Benjamin : Voyages De Rabbi Benjamin fils De Jona De tudele en Europe, en Asie en Afraique depuis l'espagne jusqu'à La chine Amesterdam 1734.
3. Brehier, Louis : L'Egypte de 1798 à 1900 Paris 1900.
4. Bruce, James : Travels to discover the source of the Nile in the years 1768 — 69 — 70 — 71 — 72 — 73 London 1804 Second Edition Vol. II.
5. Carré, Jean Marie : Voyageurs et écrivains Français en Egypte. Le Caire 1960.

6. Clement : Les Français en Egypte. Le Caire 1912.
7. Combe, E : Lettre De Mure Consul de France à Alexandrie à M G R Le Comte De choiseul Gouffier Ambassadeur De France à la Sublime Porte Le Caire. 1927.
8. De Tott : Mémoires du Baron De Tott sur les turcs et les tartares. Paris 1875 + 2.
9. Douin : M G : Le Carosse De Mohamed Bey. Bulletin de L'institut d'Egypte. Le Caire 1926 + 8. session 1925.
10. Fourmont : Description historique et géographique des plaines d'Heliopolis et de Memphis Paris 1755.
11. Goby, Jean Edouard : Les quarantes éditions traduction et adaptations «Du Voyages dans La Basse et La Haute Egypte De Vivant Denon » Le Caire 1952.
12. Granger, Le Sieur : Relation du Voyage fait en Egypte par le Sieur Granger de l'année 1730 Paris 1765.
13. Hanotaux, Gabriel : Histoire de la Nation Egyptienne par Henri Deherain Paris 1931 + 5.
14. Lucas, Paul : Voyage du Sieur Paul Lucas Au Levant. Rouen 1772 3 tomes.
15. Maillet : Description de l'Egypte. L'abbé le Mascrier composée sur les memoires de M. Maillet ancien consul de France au Caire. Paris 1735.

16. Norden, Frederic Louis : Voyages d'Égypte et de Nubie Paris 1795.
17. Olivier, C : Voyages dans l'empire Ottoman L'Égypte et la Perse fait par ordre du gouvernement pendant les six premiers années de la republique + 3.
18. Pocoke : A discription of the east and some other countries. London 1763 Vol. V.
19. Raymond, André : Artisans et commerçants au Caire au 18ème siècle Damas 1974.
20. Roux, Charles : Les Origines de l'expédition d'Égypte Paris 1910.
21. Roux, Charles : Les échelles de Syrie et De Palestine au 18 ème siècle Paris 1928.
22. Savary : Lettre sur l'Égypte. Paris 1786 3 tomes second édition.
23. Sonnini, C. Voyage en Égypte Paris 1793 3 tomes.
24. Sicard : Nouveaux mémoires des missions de la compagne de Jésus dans le levant Paris 1722.
25. Volkoff, Oleg : Voyageurs Russes en Égypte. L Caire 1972.

صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د • عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د • محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطئ المصرية فى العصور
الوسطى
عطية عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمى المطيعى

- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د • عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لازمة الحياة الفكرية
د • هلى بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د • محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكري القاضي
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير
د • نبيل راغب
- ١٣ - أكدوبة الاستعمار المصرى للسودان
د • عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د • سيدة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د • على حسن الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د • حلمى أحمد شسلى

- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د • محمد نصر فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د • على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د • أحمد محمود صايون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د • محمد أنيس
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د • نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى
ترجمة : د • عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د • سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

- ٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين
د • سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر
د • حلمى احمد شلبى
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
منى المطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الاثريتى
د • خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د • يونان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢
ترجمة : د • احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف
تأليف : د • سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى
العصر العثمانى
د • عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د • جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د • عبد المعتم الدسوقي الجميعى

- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال
- ٤٣ - رسالة في عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر
العثماني
د . محمد عفيفي
- ٤٥ - الحروب الصليبية
تأليف : وليم الصوري
ترجمة : أ . د . حسن حبشي
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث
تأليف : أ . د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصري
تأليف : د . زبير عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : أ . د . عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د . سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس
اعداد : د . عبد العظيم رمضان

الفهرس

الصفحة

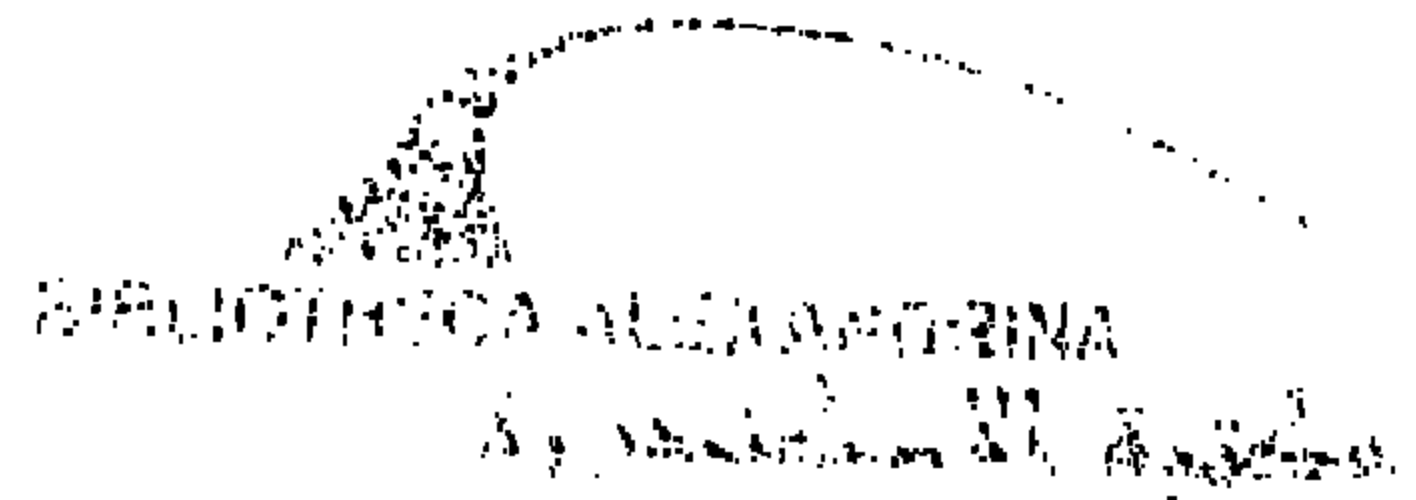
٥	تقديم د/عبد العظيم رمضان
٧	المقدمة
	الفصل الأول : علاقة فرنسا بالدولة العثمانية ومصر
١٣	في القرن الثامن عشر
١٥	موقف فرنسا من الصراع العثماني الأوروبي
٢٩	فرنسا وفكرة تقسيم الدولة العثمانية ..
٣٥	مصر في مخططات السياسة الفرنسية
٤٧	الفصل الثاني : تعريف بالرحالة والقناصل الفرنسيين
٤٩	تعريف بالرحالة الفرنسيين
٨٥	القناصل الفرنسيين
	الفصل الثالث : احوال مصر السياسية كما صورها
٩٥	القناصل والرحالة الفرنسيين
	احوال مصر السياسية في النصف الأول من
١١٥	القرن الثامن عشر
	احوال مصر السياسية في النصف الثاني من
١٢٧	القرن الثامن عشر

الصفحة

١٥٥	الفصل الرابع : نشاط المصريين الاقتصادي
١٩٥	الفصل الخامس : وصف مدن مصر
٢٠٧	وصف مدن وجه بحرى
٢٤٣	وصف لمدن الوجه القبلى
٢٦٥	الفصل السادس : الحياة الاجتماعية
٢٦٧	أولاً : طبقات المجتمع المصرى
٢٩١	الجمالية الفرنسية
٣١٨	ثانياً : الاحتفالات والأعياد
٣٢٩	ثالثاً : المنشآت الاجتماعية
٣٣٣	رابعاً : الأمراض والأوبئة
٣٣٧	الخاتمة

رقم الايداع ١٩٩٢/٣٣٢٢

الترقيم الدولى 4 — 3018 — 01 — 977 I.S.B.N.

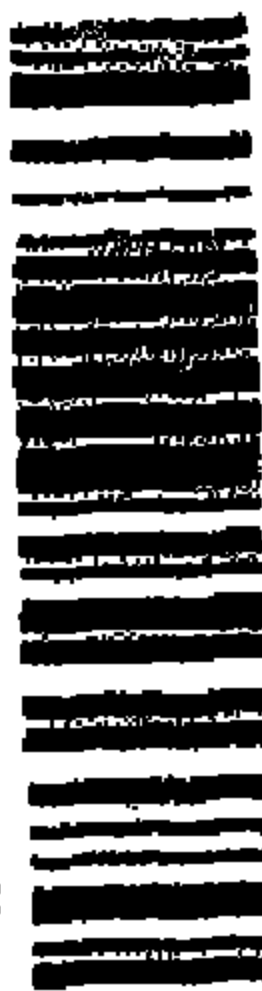


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

دراسة اعتمدت على النصوص الأصلية لكتابات الرحالة
والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر وبلغتها الفرنسية
القديمة ، مشيرة بأن زيارات الرحالة والقناصل امتدت عدة
سنوات جابوا فيها مدن مصر ، وتوغلوا في صعيدها
وصحاريها واستطاعوا أن يصفوا الكثير من أحوالها
السياسية والاجتماعية ، كما لفتت الأنظار إلى أنه كان من بين
هؤلاء الرحالة والقناصل جواسيس اهتموا بدراسة أحوال
مصر السياسية والعسكرية لخدمة مصالح بلادهم .

واختيرت هذه الدراسة لتريينا صورة مصر في عيون
الأوروبيين خلال هذه الفترة ، ولتسد ركناً هاماً في المكتبة
العربية يضاف إلى ما قدمته وتقدمه هذه السلسلة الطويلة
من الدراسات التاريخية عن تاريخ المصريين .

Bibliotheca Alexandrina



0331257

مطابع الهيئة المصرية الـ

٤٢٥ قرشاً